

سيمون بوليفار

أو الجنرال فى المتاهة

تأليف : جابرييل جارسيا ماركيز
ترجمة : محمد عبد المنعم جلال

ـة المصرية
ـامة للكتاب

سيمون بوليفار
أو
الجنرال في المتاهة

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام
د. سمير سرحان
رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير
احمد صليحة

سكرتير التحرير
عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى
علياء أبو شادى

سيمون بوليفار
أو
الجنرال في المتاهة

بقلم
جابرييل جارسيا ماركيز

ترجمة
محمد عبد المنعم جلال



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٦

لمحــة عن حيــاة ســيمون بوليفــار

١٧٨٣	٢٤ يولية :	مولد سيمون بوليفار
١٧٨٦	١٩ يناير :	وفاة فينست بوليفار ، والد سيمون
١٧٧٣	٦ يولية :	وفاة دونا ماريا لاكونسسيو بالاسيوس ، اى بلانكو ، ام بوليفار
١٧٧٥	٢٣ يولية :	بوليفار يغادر بيت عمه • بداية محاكمة طويلة • يقيم لدى مدرسه سيمون رودريجز • يعود الى بيت عمه فى اكتوبر
١٧٩٧	:	مؤامرة جوال اى اسبانيا فى الفنزويلا • بوليفار الى المليشيا للتدريب فى وادء أراجوا
١٧٩٧ ـ ١٧٩٨	:	يعطيه اندريس بيللو دروسا فى النحو والجغرافيا يدرس الطبيعة والرياضيات فى بيته وفى الأكاديمية التى أنشأها الأب فرانسيسكو دى اندوجار
١٧٩٩	١٩ يناير :	يسافر الى اسبانيا ، ويتوقف فى كوبا والمكسيك يكتب أول رسالة له فى فيراكروز •
١٧٢٢ ـ ١٨٠٠	:	يتصل فى مدريد بالعالم ، المركيز دى اوستاريز . أستاذه الفكرى الحقيقى •
١٨٠١	:	يدرس الفرنسية خلال مارس وديسمبر
١٨٠٢	١٢ فبراير :	يعجب بنابليون فى اميان ، ويقع فى الحب فى باريس
	٢٦ مارس :	يتزوج ماريا تيريزا رودريجز دل تورو مدريد •
	١٢ يولية :	يصل الى فنزويلا مع زوجته ، ويكرس نفسه لادارة أملاكه •
١٨٠٣	٢٢ يناير •	تموت ماريا تيريزا فى كاراكاس •
	٢٣ اكتوبر :	هو فى أسبانيا من جديد •

١٨٠٤	٢ ديسمبر :	يحضر تتويج نابليون فى باريس ٠
١٨٠٥	١٥ أغسطس :	حلف اليمين على جبل ساكرو بروما
	٢٧ ديسمبر :	ينضم الى ماسونية اسكتلندا ، وفى يناير ١٨٠٦ يحصل على رتبة أستاذ ٠
١٨٠٧	أول يناير :	يبحر الى شارلستون ويزور عدة مدن بالولايات المتحدة وفى يونية يعود الى كاراكاس ٠
١٨١٠	١٨ أبريل :	يعتزل بوليفار فى مزرعته بأراجوا ولا يستطيع الاشتراك فى أحداث ١٩ أبريل ، بداية الثورة الفنزويلية ٠
	٩ يونية :	يسافر فى مهمة دبلوماسية الى لنـدن حيث يلتقى بفرانسيسكو دى ميراندا ٠
	٥ ديسمبر :	عودة الى لندن ، وبعد خمسة أيام يصل مـع فرانسيسكو الى كاراكاس ويقيم هذا الأخير فى بيت بوليفار ٠
١٨١١	٥ مارس :	يجمع كونجرس فنزويلا لأول مرة ٠
	٤ يولية :	خطاب بوليفار فى الجمعية الوطنية ٠
	٥ يولية :	فنزويلا تعلن استقلالها ٠
	٢٣ يولية :	يشترك بوليفـار تحت أوامر ميراندا فى معارك فالنسيا ، أول تجربة له فى الحرب ٠
١٨١٢	٢٦ مارس :	زلزال فى كاراكاس ٠
	٦ يولية :	يفقد الكولونيل سيمون بوليفار بويرتو كابيللو ، اثر خيانة ٠
	٣٠ يولية :	يلقى بوليفار القبض على فرانسيسكو دى ميراندا ويسجنه ويرفع عليه قضية عسكرية بتهمة الخيانة والاستسـلام امام اسبانيا ، يحتجـز مانويل ماريا كازاس السجن ويسلمه للأسبان ٠
	أول سبتمبر :	يصل بوليفار الى كاراكاس منفاه الأول ٠
	١٥ ديسمبر :	يصدر فى غرناطة الجديدة « بيان قرطاجنة » ٠
	٢٤ ديسمبر :	يبدأ بوليفار حملة مجدالينا باحتلال تينيريف ، ويطرد جميع الأسبان من المنطقة ٠

١٨١٣	٢٨ فبراير :	يتعارك فى كوكوتا •
	أول مارس :	يحتل سان انطونيو دل تاشيرا •
	١٢ مارس :	يحصل على رتبة بريجادر غرناطة الجديدة •
	١٤ مارس :	يقوم فى كوكوتا بالحملة الرائعة •
	٢٣ مايو :	يمنح فى ميريدا لقب المحرر •
	٦ أغسطس :	دخول مظفر بكاراكاس فى نهاية الحملة الرائعة •
	١٤ أكتوبر :	كونجرس كاراكاس يجتمع ويعلن بوليفار قائدا عاما ومحررا •
	٥ ديسمبر :	معركة آرور •
١٨١٤	٨ فبراير :	يصدر بوليفار أمرا باعدام أسرى لاجوايه •
	١٢ فبراير :	معركة فيكتوريا •
	٢٨ فبراير :	معركة سان ماتيو •
	٢٨ مايو :	معركة كارابولو الأولى •
	٧ يوليه :	يبدأ عشرون الف مواطن من أهالى كاراكاس وعلى رأسهم المحرر والهجرة نحو الشرق •
	٤ سبتمبر :	ريباس وبيار اللذان أبعدا بوليفار ومارينو يصدران أمرا بالقاء القبض عليهما •
	٧ سبتمبر :	يصدر بوليفار بيان كاروبانو ويرفض الاعتراف بأمر القبض عليه ويبحر فى صباح اليوم التالى الى قرطاجنة •
	٢٧ نوفمبر :	حكومة غرناطة الجديدة تعينه جنرالا عاما وتكلفه باستعادة دولة كوندينا ماركا • ويبدأ الحملة ويحصل على استسلام بوجوتا •
	١٥ ديسمبر :	يؤلف حكومته الأولى فى بوجوتا •
١٨١٥	١٠ مايو .	يحاول تحرير فنزويلا بدءا من قرطاجنة ، ولكنه يلقى معارضة سلطات المدينة ، ويقرر عندئذ الرحيل الى جمايكا ، منفاه الاختيارى •
	٦ سبتمبر :	يصدر رسالة جمايكا الشهيرة •

	٢٤ ديسمبر :	يبحر الى كايس بهـــايتى حيث يلتقى بصديقه لويس بريون ، بحـــار من كوراســاو • ويلتقى بالكسندر بتيون ، رئيس هايتى الذى يزوده بمدد لا مثيل له •
١٨١٦	٣١ مارس :	حملة كايس تخـــرج من هايتى ، ولويس بريون ضمنها •
	٢ يونية :	يصدر فى كارو مرسوما بالغاء الرق •
١٨١٧	٩ فبراير :	يتعانق بوليفار وبرموديز على جسر نهر نيفرتى ببرشلونة ويتصالحان •
	١١ ابريل :	معركة سان فليكس بقيـــادة بيار • تحـــرير انجوسترا والسـيطرة والاســتقرار النهـــائى للجمهورية (الجمهورية الثالثة) •
	٨ مايو :	الكـــاهن جـــوزيه كورتيس مادارياجا يدعــو الكونجرس الى الانعقاد فى كارياكو • يفشـــل هذا الكونجرس الصـــغير رغم أن قرارين من قراراته ما يزالان نافذى المفعول : النجوم السبعة للعلم الوطنى واعـــلان جزيرة مارجاريتا كدولة أسبرطة الجـديدة •
	١٢ مايو :	بيار يصبح قائدا عاما •
	١٩ يونية :	يكتب بوليفار لبيار خطاب مصالحة : جنرال ، اننى افضل ان احارب الأســـبان من ان أواجه مشاكل بين المواطنين •
	٤ يولية :	فى بحيرة كازاكويما ، يبقى بوليفار فى المـــاء حتى عنقه مدة طويلة مختبئا للافلات من كمين للملكيين وفيما هو كذلك يتنبأ للضباط المشدوهين بما سوف يعمل بعد اســـتيلائه على انجوسترا وحتى تحرير بيرو •
	١٦ أكتوبر :	اعدام الجنرال بيار فى انجوسترا • لويس بريون يرأس مجلس الحرب •
١٨١٨	٣٠ يناير :	يتحدث لأول مرة فى مزرعة كانا فيستولا ، فى جبال آبور مع بايز رئيس جيوش السهول •

	١٢ فبراير :	بوليفار يهزم موريللو فى كالابوزا •
	٢٧ يونية :	يؤسس بريد أورنيوك فى أنجوسترا •
١٨١٩	١٥ فبراير :	اجتماع كونجرس انجوسترا • يلقى فيه الخطاب المشهور الذى يحمل اسمه • ينتخب رئيسا لفنزويلا ، وبعد ذلك على الفور يبدأ حملة تحرير غرناطة الجديدة •
	٧ أغسطس :	معركة بوياكا •
	٢٧ ديسمبر :	بوليفار يؤسس جمهورية كولومبيا بأقاليمها الثلاثة : فنزويلا ، كونديناماركا وكيتو • ينتخبه المجلس رئيسا للجمهورية •
١٨٢٠	١١ يناير :	بوليفار فى سان جوان دى باياز فى آبورا •
	٥ مارس :	بوليفار فى بوجوتا •
	١٩ أبريل :	يحتفل فى سان كريستوبل بمرور عشر سنوات على بدء الثورة •
	٢٧ نوفمبر :	يلتقى ببابلو موريللو فى سانتا أنانترومبولو • فى اليوم السابق صدق بوليفار على الهدنة ومعاهدة تنظيم الحرب •
١٨٢١	٥ يناير :	بوليفار فى بوجوتا ، يعد حملة الجنوب التى سيعهد بها الى سوكريه •
	١٤ فبراير :	يهنىء رافائيل اوردانيتا لاعلانه استقلال ماراكيبو ويبدى خوفه من أن تعتبر أسبانيا ذلك سوء نية فيضر بذلك الهدنة •
	١٧ أبريل :	يصدر بيانا يعلن فيه شجب الهدنة والبدء «بحرب مقدسة» «سنقاتل لتجريد العدو من السلاح وليس لابادته» •
	١٨ أبريل :	بدء عداءات جديدة •
	٢٧ يونية :	بوليفار يحرز النصر فى معركة كارابوبو ، وهى ليست معركته الأخيرة ولكنه يؤكد فيها استقلال فنزويلا •

١٨٢٢ ٧ أبريل : معركة بومبونا ·

٢٤ مارس : معـركة بيشيشنا ·

١٦ يونية : عند دخوله المظفر فى كيتو ، بجوار سوكريه ؛ يتعرف على مانويلا ساينز ·

١١ يوليـة : بوليفار يدخل جوايا كيل ويضمها الى كولومبيـا بعد يومين ·

٢٦ ، ٢٧ يولية : لقـاء بوليفار وسان مارتن فى جواياكيل ·

١٣ أكتوبر : يكتب : « هذيان فوق شيمبوراسو بلوجا » ، على مقربة من كوينكا بالاكوادور ·

١٨٢٣ أول مارس : ريفا أجيلورا ، رئيس بيرو ، يطلب من المحـرر أربعة آلاف جندى ومساندة كولومبيـا لاحـراز الاستقلال · يرسل بوليفار أول دفعة من ثلاثة آلاف جندى فى ١٧ مارس ودفعة ثانية من ثلاثة آلاف جندى أيضا فى ١٢ أبريل ·

١٤ مايو : كونجرس بيرو يصــدر مرسوما يطلب فيه من المحرر انهـاء الحرب الأهلية ·

أول سبتمبر : يدخل بوليفار ليما ، ويخوله الكونجرس عـزل ريفا اجيلورو الذى انضم الى الأسبان ·

١٨٢٤ أول يناير : رحيل بوليفار الى باتيفيلكو مريضا ·

١٢ يناير : يصدر مرسوما باعدام جميع الذين يسرقون اكثر من عشرين بيزو من أموال الدولة ·

١٩ يناير : فى رسالة جميلة الى معلمه سـيمون رودريجز يكتب « أنت دربت قلبى على الحرية والعـدالة والجلالة والجمال » ·

١٠ فبراير : كونجـرس بيـرو يعلنه دكتـاتورا لكى ينقذ الجمهورية من انهيارها ·

٦ أغسطس : معـركة جونين ·

٥ ديسمبر : بوليفار يحـرر ليمـا ·

٧ ديسمبر : دعوة كونجرس بنما للاجتماع ٠

٩ ديسمبر : أنتصار سوكريه فى أياكوشو ، وبذلك تتحـرر أميركا الأسبانية كلها ٠

١٨٢٥ : تعترف انجلترا باستقلال الدول الجديدة فى أميركا ٠

١٢ فبراير : كونجرس بيرو يشكر المحرر ويمنحه ميدالية ويقيم له تمثالا وهو على صهوة جواده ويمنحه مليون بيزو مكافأة له ومليونا آخر لجنوده ٠ يرفض بوليفار المكافأة ولكنه يقبل المال لجنوده ٠

١٨ فبراير : كونجرس بيرو يرفض استقالته وتخليه عن سلطته غير المحدودة ٠

٦ اغسطس : تقرر جمعية منعقدة فى شوكيزاكا انشاء جمهورية بوليفيا ٠

٢٦ أكتوبر : بوليفار فى سيرو دى بوتوسف ٠

٢٥ ديسمبر : يصدر مرسوما فى شوكيزاكا بزرع مليون شجرة ٠

١٨٢٦ ٢٥ مايو : يخبر سوكريه ، من ليمـا ، أن بيرو اعترفت بجمهورية بوليفيا ويرسل اليه مشروع دستور بوليفى ٠

٢٢ يونية : اجتماع كونجرس بنمـا ٠

١٦ ديسمبر : بوليفـار فى ماراكيبو حيث يقـدم للفنزويليين اجتماع المؤتمر الكبير ٠

٣١ ديسمبر : يصل الى بويرتوكابللو للاجتماع ببايز ٠

١٨٢٧ أول يناير : يصدر مرسوما بالعفو عن المسئولين عن الحركة الانفصالية ويدعم بايز فى منصبه كرئيس أعلى ومن بويرتوكابوللو يكتب لبـايز : لا أستطيع تقسيم الجمهوريـة ولكننى أريد ذلك من أجل صالح فنزويلا وسيتقرر ذلك باجتماع عام اذا أرادت فنزويلا ذلك ٠

٤ يناير : في ناجا وانجوا بالقرب من فالنسيا ، يلتقى ببايز ويعرض عليه معاونته.، وكان قد أعلن قبل ذلك في كونجرس بوجوتا بأن له الحق في مقـاومة الظلم بالعدل والمغالاة في اسـتخدام القـوة بالعصيان وأزعج هذا البيـان سانتاندر الذى يغذى بذلك استياءه نحو المحرر •

١٢ يناير : يصـل الى كاراكاس مع بايز وسط الهتـافات الشـعبية •

٥ فبراير : يرسل من كاراكاس الى كونجرس بوجوتا استقالة جديدة من الرئاسة لأسباب مأساوية ويختتم : « وازاء هذه المشاعر فانني أستقيل مرة ، بل مليون مرة من رئاسة الجمهورية •• » •

١٦ يونية : كونجرس كولومبيا يرفض اسـتقالة بوليفـار ويطالبه بالقدوم الى بوجوتا لحلف اليمين •

٥ يولية : يرحل من كاراكاس الى بوجوتا ، ولن يرى مسقط رأسه بعـد ذلك •

١٠ سبتمبر : يصـل بوليفار الى بوجوتا ، وأمام معـارضة قوية يحلف اليمين كرئيس للجمهورية •

١١ سبتمبر : رسالة الى توماس دى هيـريس : دخلت أمس العاصمة وقد تقلدت الرئاسة الآن • وكان هذا أمرا ضروريا لتجنب اضرار عديدة مقابل صعوبات لا نهاية لهـا •

١٨٢٨ ١٠ ابريل : بوليفار في بوكارامانجا في الوقت الذى يقام فيه مؤتمر اوكانا الذى يتحـدد أثناءه أنصـار سانتاندر وأنصار بوليفار • يبدى هذا الأخيـر احتجاجا أمام المؤتمر للشكر الموجه الى الجنرال باديللا بسبب الاغتيالات التى وقعت في قرطاجنة •

٩ يونية : بوليفار يغادر بوكارامانجا للمضى الى فنـزويلا عارجا في طريقه الى أنوكو ، مزرعة المركيـز دى دل تورو •

١١ يونية : حل مؤتمر أوكانا •

٢٤ يونية : تتعارض مشروعات بوليفار فيعـــود الى بوجوتا حيث يقابل بالهتافات .

١٥ يولية : يشـــير بايز فى فالنســـيا الى بوليفار على انه العبقرى الفريد للقرن التاسع عشر . ذلك الـذى قدم منذ ثمـــانية عشر عاما التضـــحيات تلو التضحيات لاسعادكم وانجز ما يمكن مطالبته به من سويداء قلبه : « القيادة العليا التى تخلى عنها الف مرة والتى تجبـــره الحـــالة الراهنـــة للجمهورية على قبولها » .

٢٧ اغسطس : صدر مرسوم بتنظيم الدكتاتورية بسبب عداءات مؤتمر أوكانا يلغى بوليفار بموجبه منصب نائب الرئيس وبذلك يصبح سانتاندر خارج الحكومة، ويعرض عليه بوليفار سفارة كولومبيا بالولايات المتحدة ويقبل سانتاندر ولكنه يؤخر رحيله ، ومن المحتمل ان استبعاد سانتاندر من السلطة كـان له تأثير فى محاولة اغتيال ٢٥ سبتمبر .

٢١ سبتمبر : يسلم بايز ببوليفار قائدا أعلى ويحـلف اليمين أمام الأسقف رامون أجناسيو منديز فى الميـدان الكبير بكاراكاس حيث احتشد جمع غفير ... « وأقسم بأننى سأطيع وانفذ الأوامر التى سيوقع عليها كقوانين للجمهورية ، والسماء شـاهدة على قسـمى وستكافىء الاخـلاص الذى سانفذ به وعدى .... » .

٢٥ سبتمبر : محاولة اغتيال بوليفار فى بوجـــوتا . تنفذ مانويل ساينز . سانتاندر من بين المشـــبوهين . ويحكم عليه أوردانيتا ، أحـــد أعضاء المحلفين بالاعدام ويخفف بوليفار الحكم الى النفى .

١٩٢٩ أول يناير : بوليفار فى بوريفكاسـيون . الخـلافات مـــع بيرو التى احتلت جواياكيل عسكريا تحتم ضرورة وجوده فى الاكوادور .

٢١ يولية : كولومبيا تستعيد جواياكيل والشـــعب يستقبل المحرر استقبالا حافلا .

١٣ سبتمبر : بوليفار يكتب لأوليرى « نحن جميعا نعــرف أن اتحاد غرناطة الجديدة وفنزويلا مرتبط بسلطتى بالذات ، وهى سلطة سوف تختفى الآن أو فيما بعد كما تقتضى مشيئة العناية الالهية أو مشـيئة الرجــال ٠٠ » ٠

١٣ سبتمبر : خطاب الى بايز « أصدرت نشرة تدعو كل الأهالى وكل الهيئات للتعبير عن رأيهم بكل حزم وصراحة ويمكنك أن تتصرف الآن قانونيا لكى يقول الشعب ما يريد فقــد حانت الســاعة التى تعلن فيهــا فنزويلا رأيها دون أى اعتبار غير المصلحة العامة، فاذا ما اتخذت اجراءات جوهــرية لكى يقولوا ما تريدون أنتم حقا فسوف تكون الاصــلاحات كاملة وتتحقق روح الشعب » ٠

٢٠ أكتوبر : العودة الى كيتــو ٠

٢٩ أكتوبر : العودة الى بوجوتا ٠

٥ ديسمبر : فى بوبايان يكتب بوليفار لجوان جوزيه فلورس، سيخلفنى سوكريه بالطبــــع ٠ ومن المحتمل أن نمنحه جميعا كل دعمنا ، أما من ناحيتى فاننى سأدعمه بكل قلبى ، وكل روحى ٠

١٥ ديسمبر : يعلن لبايز أنه لن يقبل رئاسة الجمهورية مــرة اخرى ، واذا انتخب بايز رئيسا للجمهـــورية فانه يقسم له بشرفه انه سوف يعمل تحت امرته ويخدمه بكل سرور٠

١٨ ديسمبر : يستهجن بوضوع مشروع الملكية الكولومبية ٠

١٥ يناير : بوليفار فى بوجوتا من جديد ٠

٢٠ يناير : اجتماع كونجرس كولومبيا ٠ رسالة من بوليفار يقدم فيها استقالته من رئاسة الجمهورية

٢ يناير : يلتمس موافقـــة الكونجـــرس لكى يمضى الى فنزويلا ٠ يرفض الكونجرس ذلك ٠

أول مارس : يسلم السلطة لدومينجو كايسيدو ، رئيس الحكومة وينسحب الى فوشا ٠

٢٧ ابريل : فى رسالة الى الكونجرس يجدد قراره بعدم البقاء فى الرئاســة ٠

٤ مايو : ينتجب جواكين موسكيرا رئيسا لكولومبيا ٠

٨ مايو : يقوم بوليفار برحلته الأخيرة ٠

٤ يونية : اغتيال سوكريه فى بيروكوس ٠ يعلم بوليفــار بذلك فى أول يولية عند سفح جبل لابوبا ويحزن اشــد الحــزن ٠

٥ سبتمبر : يستولى أوردانيتا على الســلطة فى كولومبيــا بسبب اهمال المســئولين الواضــح فى بوجوتا وقرطاجنة وفى مدن أخــرى بغرناطة الجــديدة مظاهرات وهتافات لصالح المحرر لكى يعود الى السلطة من جديد ٠ وفى انتظار ذلك ينتــظره أوردانيتا

١٨ سبتمبر : عنــــدما يعلم بوليفار بالأحــــداث التى حملت أوردانيتا على رأس الحكومة يعــرض ، كمواطن عادى وكجندى الدفاع عن سلامة الجمهــــورية ويعلن أنه سيسير الى بوجوتا على رأس ألفى رجل لدعم الحكومة الجديدة ، ويرفض جــزئيا الطلب الذى يقدم اليه لاستعادة السلطة متذرعا بأنهم سيعتبرونه مغتصبا ، ولكنه يترك البـــاب مفتوحا فى حالة اذا ما وقعت انتخابات جديدة ٠٠٠ « ستغطينى الشرعية بظلها أو سيكون هناك رئيس جـــــديد » ٠ ويطلب من مواطنيه أخيرا تدعيمهم لحكومة أوردانيتا ٠

٢ اكتوبر : بوليفار فى ثورياكو ٠

١٥ اكتوبر : هو فى سوليداد ٠

٨ نوفمبر : هو فى بارانكيللا ٠

أول ديسمبر : يصل الى سانتا مارتا فى حالة انهيار ٠

٦ ديسمبر : يمضى الى ســـان بدرو اليجـــاندرو ، مزرعة الأسبانى جواكين دى مبير ٠

١٠ ديسمبر : يملى وصيته وبيانه الأخير ٠ وازاء اصرار الطبيب لكى يعترف ويتلقى الأسرار الأخيرة يقول : « ما معنى هذا ٠ هل حالتى سيئة لكى تحدثوننى عن الوصية والاعتراف ؟ ٠٠٠ كيف أخـرج من هذه المتاهة ؟ » ٠

١٧ ديسمبر : بوليفار يموت فى سان بدور اليجاندرو ، يحيط به قليل من الأصدقاء ٠

سيمون بوليفار

أو

الجنرال فى المتاهة

من الى ألفـارو موتيس

يبدو أن الشيطان يوجه

أمـــور حيـــاتى

من خطاب الى سانتـاندر

وجده جوزيه بالاسيوس ، اقدم خدمه ، يطفو ، عاريا ومفتوح العينين فوق ماء البانيو المعطر ، فحسبه قد غرق ٠ كان يعرف أن هذه احدى طرقه العديدة فى التامل ، ولـكن الذهول الذى كان مستغرقا فيه وهو ينساق مع التيار كان يبدو كأنه أشبه بذهول رجل لم يعد على قيد الحيـاة ، ولم يجرؤ على الاقتراب منه ، وناداه بصوت أصم ، محترما الامر الذى صدر اليه بعدم ايقاظه قبل الساعة الخامسة ، حتى يتسنى له الرحيل بمجرد بزوغ الفجر ٠ وأفاق الجنرال من السحر ، ورأى فى العتمة العينين الزرقاوين والصافيتين ، والشعر القصير المجعد ، السنجابى اللون والمهابة الجريئـة لخادمه الذى يقوم بخدمته كل الأيام ، ممسكا فى يده قدحا من منقوع الخشخاش والصمغ العربى ، واستند ، وهو واهن القوى على مقبض البانيو، وخرج من البانيو بحماس دولفينى لا يمكن توقعه من جسد ضعيف كجسده ، وقال :

ـ **فلنعجل بالرحيل ، فما من أحد هنا يحبنا ٠**

سمعه جوزيه بالاسيوس يقول ذلك مرارا عـديدة وفى مناسبات جد مختلفة بحيث انه اعتقـد مرة أخـرى أن قوله هذا غير صحيح ، على الرغم من أن الجياد كانت على استعداد فى الاصطبلات ، وان الوفد الرسمى بدأ يجتمع ٠ وساعده على تجفيف جسده بكل سرعة وألقى فوق عريه عباءة جبلية لأن رعشة يديه تسببت فى اصطفاق القدح بالصحن ٠ منذ بضعة شهور ، قبل ذلك ، وهو يرتدى سراويله المصنوعة من جلد الغزال والتى لم يلبسها بعد ، منذ ليالى ليما البابلية ، أكتشـف آنه كلما نقص وزنه قصرت قامتـه ٠ حتى عريه

كان مختلفا ، لأن جسده أصبح مصفرا ، وبدت رأسه ويداه كما لو أنها جفت بفعل تقلبات الجو • كان قد بلغ السادسة والاربعين من عمره في شهر يوليه الماضى ، ولكن خصلات شعره الكاريبى الخشن غدت بلون الرماد • تخلخلت عظامه بسبب شيخوخته المبكرة ، وأصبح كل شيء فيه تالفا الى حد أنه كان يبدو أنه لن يستطيع البقاء على قيد الحياة حتى يوليه القادم ، ومع ذلك فان حركاته التى تدل على الحزم بدت كأنها تصدر من رجل آخر لم يتعرض لنكبات الحياة • وكان يمشي دون توقف حول لا شيء • واحتسى المشروب فى خمس جرعات حارقة ألهبت لسانه ، وهو يبتعد عن آثار المياه التى تساقطت فوق الحصر البالية ، وبدا كأنه يشرب رحيق البعث• ولكنه لم ينطق بكلمة قبل أن تنتهى ساعة الكاتدرائية المجاورة من دقاتها ، معلنة الخامسة •

وقال الخادم : اليوم السبت ، الثامن من مايو ، يوم القديسة العذراء ، المانحة لكل النعم ، والمطر يهطل منذ الثالثة صباحا •

قال الجنرال وقد بدا صوته مختلجا بسبب أنفاسه الحادة من الأرق :

ـ منذ الساعة السابعة من صباح القرن السابع عشر لم أسمع الديكة •

قال جوزيه بالاسيوس : لا توجد هنا ديكة •

قال الجنرال : لا يوجد شيء • انها أرض خونة •

كانا فى سانتا بيوجوتا ، على ارتفاع ألفين وستمائة متر عن سطح البحر البعيد • ولم تكن الغرفة الكبيرة الصارمة الجدران ، والمعرضة للرياح القارسة التى تتسلل من النوافذ المخلعة مناسبة أبدا لصحة أى رجل• ووضع جوزيه بالاسيوس فوق رخام منضدة الزينة طبقا صغيرا به رغاوى صابون ، وعلبة مخملية حمراء تحتوى على أدوات الحلاقة ، وكلها من

المعدن المذهب ، ثم وضع الشمعدان وبه شمعة فوق منضدة صغيرة بجوار المرآة لكى تتيح للجنرال ما يكفى من ضوء ، وأدنى الدفاية لتدفئة قدميه ، ثم ناوله النظارة ذات الزجاج المربع والاطار الفضى الرقيق التى يحملها له دائما فى جيب صديرته • وثبتها الجنرال فوق عينيه وحلق ذقنه ، مستخدما الموسى ببراعة ، سواء بيده اليمنى أم بيده اليسرى ، لأنه كان أيمن أعسر بحكم مولده ، وبرباطة جأش مدهشة ، بعيدة عن تلك الرعشة التى منعته منذ لحظات من الامساك بالقدح • وفرغ من حلاقة ذقنه وهو يتحسس ، دون أن يكف عن اللف والدوران فى الغرفة ، لأنه كان يتجنب بقدر المستطاع النظر الى المرآة ، حتى لا تلتقى بها عيناه ، ثم انتزع شعيرات انفه واذنيه ودعك أسنانه الناصعة البياض بفرشاة من الحرير لها مقبض من الفضة يسط فوقها مسحوقا من الفحم ، وجرح نفسه • ولمع أظفار يديه وقدميه ، وخلع عباءته ، وصب على جسده قنينة كبيرة من ماء الكولونيا ، ودلك جسده بيديه حتى الاعياء ، فقد كان يحتفل فى ذلك اليوم بقداس النظافة اليومى ، بحماس أكثر من المعتاد ، محاولا أن يطهر جسده وروحه من عشرين سنة من الحروب غير المجدية ، ومن خيبات أمل فى تولى السلطة •

كانت آخر زيارة تلقاها بالأمس زيارة مانويلا اينس، المواطنة الـكتونية المتودكة التى تحبه والتى مع ذلك لن تتبعه حتى الموت • ستبقى كما هى دائما ، مهمتها اطلاع الجنرال على كل ما يدور أثناء غيابه ، لأنه ، منذ وقت طويل ، لم يعد يثق فى أحد غيرها • وهو يترك لها كذكرى بضعة مخلفات لا قيمة لها الا لأنها كانت ملكا له • وكذلك بعض كتبه الأثيرة لديه وصندوقين يضمان وثائقه الخاصة ، وكان قد قال لها بالأمس ، أثناء الوداع الأخير الوجيز والرسمى : « اننى أحبك كثيرا ، ولكننى سأحبك أكثر اذا ما تجملت بالحكمة أكثر من أى وقت مضى » • وفهمت قوله

هذا على أنه تكريم آخر بين كل التكريمات التى لقيتها منـه فى ثمانى سنوات من الحب المحتدم · وكانت هى الوحيدة ، من بين كل المقربين اليه ، التى تصدقه · وسيرحل هذه المرة دون عودة ، ولكنها كانت الوحيدة أيضا التى يراودها الامل فى أن يعود · لم يعتقد أى منهما أنهما سيلتقيان ثانية قبـل الرحيل · ومع ذلك فان صاحبة البيت أرادت أن تقدم لهما هدية اخيرة : وداع خاطف ، فأدخلت مانويلا ، متنكرة فى زى فارس ، من باب الاصطبلات ، ضاربة بذلك عرض الحائط بتعصب المجتمع المحلى المتدين · ولم يكن ذلك لأنهما عاشقان مستتران ، لآنهما كانا يتحـابان فى العلن ، ويتعرضـان لافتضاح أمرهما أمام الجميع ، ولكن لكى تحافظ على السمعة الطيبة للبيت · على آن الجنرال كان أكثر ورعا ، لآنه أصدر أمره الى جوزيه بالاسيوس بأن يترك باب الصالة المجـاورة مفتوحا ، وهى ممر اضطرارى للخدم ، وحيث الحراس الذين يقومون بالحراسة يلعبون الورق ، حتى بعد انتهاء الزيارة ·

قرأت له مانويلا أثناء ساعتين · كانت لا تزال شـابة قبل ذلك بوقت قصير ، حتى اللحظة التى بدأ فيها لحمها يتغلب عـلى سنها · وكانت تدخن غليـون بحارة ، وتتعطـر بماء القرنجيتى ، وهـو عطر خاص بالعسـكريين ، وترتدى زى الرجال ، وتتجول بين الجنود ، غير أنه كان مايزال بصوتها بحة مناسبة لدخمسة الحب · وكانت تقرأ على ضوء الشمعة الخافت ، وهى جالسة فوق مقعد مايزال يحمل شعار النائب القديم للملك · وكان يصغى اليها وهو مستلق عـلى ظهره فوق فراشه ، مرتديا الزى المـدنى الذى يرتديه وهـو فى البيت · وكان عنوان الكتاب الذى تقرؤه «عبر ومواعظ من الأخبار والشائعات التى دارت فى ليما سنة ١٨٢٦ من تأليف الكاتب نوح كالزاديلاس ، وكانت تقرؤه بحمـاس مسرحى مناسب تماما لأسلوب الكاتب ·

وخلال الساعة التالية لم يسمع فى البيت كله الا صوتها . ولكن بعد الوردية الأخيرة ، ارتفعت فجأة ضحكة جماعية من عــدد كبير من الرجال أثارت كلاب الحى كله ففتح عينيــه محيرا . وفى شىء من القلق ، فاطبقت الكتاب فوق ركبتيها ، واضعة ابهامها فوق الصفحة ، **وقالت :**

ـ انهم أصدقاؤك .

فقال : ليس لى أصــدقاء . واذا كان مايزال لى بعض منهم فانما لوقت قليل .

قالت : ومع ذلك فهم فى الخارج ، ويقومون بالحراسة حتى لا يقتلوك .

وهكذا علم الجنرال بما كانت المدينة تعرفه ، فلم تدبر مؤامرة واحدة ضده ، بل عدة مؤامرات ، وآخــر أنصــاره يسهرون فى البيت لمحاولة احباط تلك المؤامرات ، فقد احتل جماعة من الفرســان والرماة الردهة والممرات التى تحيط بالحديقة ، وكلهم من الفنزويليين ، وسوف يرافقونه حتى ميناء كارتاجينا ، حيث يجب أن يبحر الى أوروبا ، فى سفينة شراعية . وكان اثنان منهم قد بسطا حصيرة للنوم أمام الباب العمومى للغرفة ، فى حــين تأهب باقى الحراس لاســتئناف اللعب فى الصــالة المجاورة بمجــرد أن تفرغ مانــويلا من قراءتها ، لأن الوقت لم يعد يســمح بالتأكد من أى شىء بين هؤلاء الجنود المشبوهى الجنسية والذين لا يمكن الوثوق بهم . وأمر مانويلا باشارة من يده بأن تســتأنف القراءة دون أن تزعجه تلك الأنباء السيئة .

اعتبر دائما الموت كمجازفة مهينة لا مفر منها . قام بكل حروبه ، فى الخط الأول ، دون أن يصاب بجــرح واحــد . وكان يتنقل وسط نيران العدو بهدوء تام ، وغير معقول الى حــد أن ضباطه اكتفوا بالتفســير البسيط بمناعته ضــد الأخطار . وقد خرج ســليما من كل المحــاولات التى دبرت

ضده ، وفى كثير من تلك المحاولات ، لم ينج من الموت الا لأنه كان ينام فى مكان آخرغير فراشه • وكان يتنقل بدون حرس ، ويأكل ويشرب دون أن يتخذ أى احتياط من تلك الاحتياطات التى كانوا يقدمونها له أينما يذهب • ومانويلا وحدها كانت تعرف أن عدم اهتمامه لا يرجع الى فقد الاحساس ولا الى القدرية ، وانما الى يقينه بأنه سيموت فى فراشه ، فقيرا وعاريا ، بعيدا عن المواساة والعزاء بالامتنان العام •

كان التغيير الوحيد الذى يستحق الذكر هو الذى أجراه فى أرقه فى هذه الليلة المؤرقة ، وهو أن لا يستحم بالماء الساخن قبل أن يأوى الى فراشه ، وكان جوزيه بالاسيوس قد أعده له مبكرا فى تلك الليلة ، وأبقاه على درجة طيبة من الحرارة حتى يستطيع الجنرال الاستحمام عندما يريد • ولكنه رفض أن يستحم ، وتناول قرصين ملينين لامساكه الدائم ، وتأهب للنوم تهدهده همسات الشائعات الغزلية فى ليما • وفجأة ، وبدون أى سبب ظاهر ، أصيب بنوبة سعال هزت أرجاء البيت ، وتوقف الحراس الذين يلعبون فى الطرقة فجأة ، ودخل أحدهم ، وهو الأيرلندى بلفور هنتون ويلسون الغرفة لكى يرى ان كانت هناك حاجة اليه ، ورأى الجنرال راقدا على صدره بعرض الفراش ، يحاول أن يفرغ ما فى بطنه • وكانت مانويلا تمسك له رأسه فوق الطست ، وكان جوزيه ، وهو الوحيد المصرح له دخول الغرفة دون استئذان واقفا بجوار الفراش فى حالة تأهب حتى انتهت الأزمة • وأخذ الجنرال عندئذ نفسا وقد امتلأت عيناه بالدموع ، وأشار الى منضدة الزينة وقال :

ــ هذا بسبب زهور المقبرة •

كان يجد دائما سببا غير متوقع لمصائبه ، كعادته • ولما كانت مانويلا تعرفه أكثر من أى شخص آخر ، فقد أشارت الى جوزيه بالاسيوس بأن ينقل الزهرية بأزهار الصباح الذابلة • وعاد الجنرال فرقد فوق الفراش ، مطبق العينين ،

واستأنفت هى القراءة بنفس اللهجة السابقة . وعندما خيل اليها انه نام ، وضعت الكتاب على النضد بجوار الفراش ، وطبعت قبلة على جبينه الملتهب من الحمى ، وتمتمت لجوزيه بالاسيوس انها ستكون بدءا من السادسة صباحا فى ميدان « الأركان الأربعة » الذى يؤدى الى مدينة هوندا ، لكى تودعه الوداع الأخير ، ثم ألقت فوق كتفيها دثارا عسكريا ، ورفعته لكى تخفى أسفل وجهها ، وخرجت من الغرفة على أطراف قدميها . وعندئذ فتح الجنرال عينيه ، وقال لجوزيه بالاسيوس فى صوت خافت :

ـ قل لويلسون أن يرافقها حتى بيتها .

ونفذ الأمر رغم ارادة مانويلا ، فقد كانت تعتقد أنها فى خير صحبة مع نفسها عنها مع أحد الرماة . وتقدمها جوزيه بالاسيوس حتى الاصطبلات وفى يده شمعدان ، وهو يدور بالحديقة الداخلية المزدانة ببئر حجرية تبدأ فيها بواكير زهور الزنبق فى الازدهار . وتوقف المطر لحظة ، وأمسكت الرياح عن الصفير بين الأشجار ، ولكن لم تكن هناك فى السماء المثلجة نجمة واحدة . وردد الكولونل بدفورد ويلسون كلمة السر الليلية ، ليطمئن الحراس الذين يرقدون فوق الحصر ، فى الممر . وبينما كان جوزيه بالاسيوس يمر أمام نافذة الصالة الكبيرة رأى صاحب البيت يقدم القهوة الى جماعة من الأصدقاء : عسكريين ومدنيين يستعدون للسهر حتى ساعة الرحيل .

وعندما عاد الى الغرفة وجد الجنرال فى حالة من الهذيان ، وسمعه ينطق كلمات متقطعة تدور حول عبارة واحدة « لم يفهم أحد شيئا » . وكان جسده ملتهبا من الحمى ، وتصدر منه أرياح كريهة متتابعة ، وهو نفسه لن يعرف فى الصباح اذا كان قد تكلم وهو نائم ، أو راح يهذى وهو صاح . ولن يستطيع أن يتذكر ، وكان هذا ما يدعوه « نوبتى من الجنون » ، ولم تعد تقلق أحدا لأنه كان يعانى من ذلك منذ

أربع سنوات دون أن يجازف أى طبيب بتجربة تفسير علمي ·
وفى اليوم التالى ، رأوه يعـود الى الحيـاة من رماده ، سـليم العقل · ودثره جوزيه بالاسيوس بغطاء ، ووضع الشمعدان فوق رخام منضدة الزينة ، وخرج دون أن يغلق البـاب حتى يواصل السهر فى الغرفة المجاورة · كان يعرف أنه سيشفى فى وقت ما من الفجر ، ويغطس فى مياه البانيو الباردة ، فى محاولة لاستعادة قواه التالفة بسبب هول الكوابيس ·

وكان ذلك نهاية يـوم عاصف ، فقـد تحركت حاميـة مؤلفة من سبعمائة وتسـعة وثمانين من الفرسـان والرماة بحجة المطالبـة بمرتب ثلاثة شـهور متأخر · أما السـبب الحقيقى فقد كانت الغالبية منهم من فنزويلا ، واشـتركوا فى تحرير أربع دول ، ولكنهم كانـوا فى الأسـابيع الأخيرة ضحايا الكثير من السباب والقدح والكثير من الاستفزازات فى الشوارع ، بحيث انه كانت لديهم من الأسباب ما يجعلهم يخافون على أنفسهم ، بعد أن يغادر الجنرال البلدة · وسوى النزاع بتسديد نفقات السفر ، وألف بيزوس ذهبا بدلا من السبعين ألفا التى يطالب بها المتمردون · ثم انطلقـوا فى آخر الأصيل ، فى صفوف متراصة ، نحو مسقط رأسـهم ، يتبعهم حشد من الطاهيات بأولادهن وحيواناتهن الاليفة · ولم تستطع عاصفة من الطبول والنحاسـات العسـكرية أن تسـكت صيحات الشغب التى كانت تطلق الـكلاب وراءهم ، وتفجر الكثير من الصـواريخ لاعاقة تقـدمهم ، مع أنهم لم يفعلوا ذلك أبدا مع أى جيش معاد ، فقبل أحد عشر عاما من ذلك ، وبعد ثلاثة قرون من الاستعباد الاسبانى هرب نائب الملك الشرس المدعو جوان سامانو من تلك الشوارع بالذات ، متنكرا فى زى حاج ومعه حقائبه المملوءة بالتماثيل الذهبية والزمرد النفيس ، وصناديق زاخرة بالآثار الجميلة · وقد بكاه الكثيرون فى ذلك اليوم وهم فى شرفاتهم ، وألقوا اليه بالزهور ، وتمنوا له بحرا هادئا ورحلة سعيدة ·

واشترك الجنرال سرا فى تسوية النزاع دون ان يغادر البيت الذى استضيف فيه ، وهو بيت وزير الحرب والبحرية . وأرسل فى النهاية مع الفرق المتمردة الجنرال جوزيه لورنسيو سيلفا ، زوج ابنة أخته ، الذى يثق به ، كضمان على أنه لن تقع قلاقل جديدة ، حتى حدود فنزويلا · ولكنه سمع الطبول وصياح الناس المحتشدين فى الشارع ، ولم يفهم معناها · على أنه لم يعر كل ذلك أى اهتمام ، وانما راح يفحص مع سكرتيريه الرسائل المتأخرة ، وأملى خطابا الى المارشال الكبير دون أندريس دى سانتا كروز ، رئيس بوليفيا ، يقول له فيه انه سيتخلى عن السلطة ، ولكنه لم يؤكد له فيه ان كان سيمضى الى الخارج · وقال وهو يفرغ من املائه : «لن أكتب بعداليوم خطابا واحدا طوال حياتى » وفيما بعد ، وبينما كان ينضح بعرق حمى القيلولة ، تداخلت فى أحلامه صيحات صاخبة بعيدة ، فاستيقظ مرعوبا بسبب فرقعات متتابعة ، كان يمكن أن تكون صادرة من المتمردين أو من بعض الصواريخ · وعندما استفهم عن ذلك قيل له : «انه العيد ياسيدى الجنرال» دون أن يجرؤ أحد ولا حتى جوزيه بالاسيوس أن يقول له بأى عيد يحتفلون ·

ولكن عندما زارته مانديلا فى المساء ، عرف أن ذلك الصخب انما صدر من أنصار أعدائه السياسيين ، من الحزب الديماجوجى ، كما يدعوه · وكانوا يطوفون بالشوارع وهم يؤلبون ضده نقابات العمال بمساعدة القوى العاملة · وكان اليوم يوم جمعة ، وهو يوم سوق ، مما جعل الفوضى أكثر سهولة فى الميدان الكبير · وهطل مطر عاصف ، أكثر من المعتاد ، مصحوب ببرق ورعد ، فشتت المتمردين فى الليل ، ولكن الضرر كان قد استشرى ، واستولى طلبة كلية سان بارثولوميو على مكاتب قصر العدالة ، مطالبين بمحاكمة الجنرال علنا ، ومزقوا لوحة زيتية له بالحجم الطبيعى ، ورموها من النافذة · وقام الشعب الثمل من الخمر فنهب

حوانيت الشارع الملكيّ ، والحانات التي لم تغلق أبوابها في الوقت المناسب وأطلقوا الرصاص في الساحة الكبرى على جنرال من القش لم يكن هناك من يجهل من هو • اتهموه بانه المحرض الخفي للعصيان العسكري ، في محاولة اخيرة للاستيلاء على السلطة التي انتزعها منه المجلس بتصويت جماعي ، بعد اثنتي عشرة سنة من الممارسة المتواصلة • اتهموه بأنه يريد الرئاسة طوال حياته ، لكي يورث مكانه أميرا أوروبيا • اتهموه بأنه يتظاهر بالرحيل الى الخارج في حين أنه يرحل في الواقع الى حدود فنزويلا لكي يستولى على السلطة ، على رأس الفرق المتمردة • كانت الجدران مغطاة بمنشورات كلها هجاء وسباب مطبوعة ضده ، واختفى أشهر أعوانه في بيوت أعدتلهم حتى تهدأ النفوس، وانتهزت الصحافة المناصرة للجنرال فرانشيسكو دى بولاسانتان الفرصة وأيدت الاشاعة التي تقول ان مرضه غير أكيد ، وان رحيله انما هو حيلة سياسية لكي يتوسلوا اليه أن يبقى • وفي تلك الليلة ، وبينما كانت مانويلا سانيز تروى له تفاصيل يوم عاصف ، حاول جنود الرئيس المؤقت أن يمحوا من فوق جدران الأبرشية عبارة مكتوبة بالفحم تقول :

« انه لا يرحل ولا يموت » وتنهد الجنرال وقال :

– لا ريب أن الأمور سيئة جدا ، وأنا أسوأ منها لكي يحدث كل هذا على بعد مائة متر من هنا ، وجعلونى أعتقد انهم يحتفلون بعيد •

والواقع أن أصدق أصدقائه لم يؤمنوا برحيله عن البلد، ولا بتخليه عن السلطة ، فقد كانت المدينة صغيرة جدا ، وأهلها من الغباء بحيث لا يدركون العقبتين الكبيرتين اللتين أمام رحيله الفرضى، وأولاهما أنه لا يملك مايكفى من النقود لكى يمضى الى أى مكان ، وبرفقته كل هذه الحاشية الكبيرة ، وثانيتهما أنه بكونه رئيسا للجمهورية ، وبصفته هذه كان

لا يستطيع مغادرة البلد قبل مرور سنة بدون تصريح من الحكومة ، وهو تصريح لم يكن من الخبث لكي يلتمسه . والأمر الذى أصدره جهارا بإعداد متاعه لم يفسره جوزيه بالاسيوس كدليل قاطع ، لأنه كان قد بلغ به الأمر الى هدم بيت للتظاهر بالرحيل . كانت تلك دائما مناورة سياسية ذكية . وأحس مساعدوه بأن أعراض خيبة الأمل هذه السنة كانت واضحة جدا . ومع ذلك فلم تكن هذه أول مرة . وفى اليوم الذى لا يتوقعونه كانوا يرونه وقد استيقظ منتعش الذهن ، ويستعيد مجرى حياته وهو أشد قوة واحتداما عن ذى قبل . وكان جوزيه بالاسيوس الذى واكب هذه التغييرات غير المتوقعة يقول بطريقته الخاصة :

« ان ما يدور فى رأس سيدى لا يعرفه غير سيدى » .

كانت استقالاته المتتابعة مدموغة بالأغانى الشعبية ، منذ أول استقالة أعلنها بعبارة غامضة فى خطابه الذى ألقاه عند توليه الرئاسة : « أول يوم أحظى فيه بالسلام سيكون آخر يوم لى فى السلطة » وقدم استقالته مرارا وفي ظروف مختلفة بحيث لم يعد أحد يعرف أين الحقيقة . وأكثرها صخبا كانت منذ سنتين في ليلة الخامس والعشرين من سبتمبر ، عندما أفلت سليما ومعافى من محاولة اغتياله داخل غرفة نومه في مقر الرئاسة ، وقد وجدته لجنة الكونجرس التى زارته فى الفجر ، بعد أن قضى ست ساعات، بدون ثياب ، تحت كوبرى ، متدثرا بغطاء من الصوف ، وقدماه فى دست به ماء ساخن وهو يعانى من الحمى أكثر من معاناته من خيبة الأمل . وقال للجنة انه لن يكون هناك أى تحقيق ، وان أحدا لن يحاكم ، وان اجتماع الكونجرس المتوقع أول السنة سيعقد الآن فورا لانتخاب رئيس آخر للجمهورية ، واختتم حديثه قائلا :

ــ وبعد ذلك سأغادر كولومبيا الى الأبد ٠

ومع ذلك فقد جرى التحقيق ، وحوكم المذنبون بيد من حديد ، واعدم اربعة عشر منهم رميا بالرصاص ، في الميدان الكبير ٠ ولم يعقد اجتماع الكونجرس الذى كان مقررا اجتماعه في الثاني من يناير الا بعد ستة عشر شهرا ، ولم يتكلم احد عن الاستقالة ٠ ولكن لم يأت في تلك الفترة اى زائر أجنبي ، ولا أى مدعو عرضي ولا أى صديق عابر الا وكان يقول له : انني راحل الى حيث يحبونني ٠

لم تؤخذ الشائعات التي تدور حول علته القاتلة دليلا على رحيله ، فلم يشك أحد فيما يعاني من علل ٠ بل على العكس ، فأثناء عودته الأخيرة من حرب الجنوب ، اعتقد كل الذين رأوه يمر تحت البواكي المزدهرة أنه لم يعد الا لكي يموت ٠ لم يكن يمتطي جواده التاريخي « بالومو بلانكو » ، وانما كان يركب بغلة حقيرة كان مفرش سرجها حصيرة بالية ٠ ابيض شعره وانحفر جبينه بسحب شاردة ، وكم سترته المتسخة مفتوق ٠ كان المجد قد انسلخ من جسده ٠ وخلال السهرة الصامتة التي أقاموها له في تلك الليلة بالذات ، في مقر الحكومة ، بقي متقوقعا حول نفسه ، ولم يعرف أحدا أبدا اذا كان ذلك فسادا سياسيا أم مجرد سهو عندما حيا أحد وزرائه وهو يدعوه باسم وزير آخر ٠

لم تكف هيئته المنهارة على أن يصدق أحد أنه راحل حقا لأنه مرت ست سنوات وهو يقول انه يموت ، ويحتفظ مع ذلك بقدرته على القيادة ٠ أول اشاعة نشرها ضابط من البحرية البريطانية ، بعد أن رآه صدفة ، في صحراء باتيفيلكا ، شمال ليما ، في ذروة حرب تحرير الجنوب ، وجده طريحا فوق الأرض في كوخ حقير ليس به آية وسيلة من وسائل الراحة ، في مقر القيادة العامة ، متدثرا بمعطف عسكري ، وقد عقر خرقة حول رأسه ، لأنه لم يحتمل برد

العظام ، فى جحيم ظهر ذلك اليوم ، لا يقدر على طرد الدجاج الذى ينقر الأرض حوله • وبعد حديث عسير تخللته عصفات من الجنون ، صرف الزائر وهو يقول له فى لهجـة مأسـاوية تمزق القلوب :

ـ امض وارو للعـالم كيف رايتنى امـوت فوق هــذه الهضبه الماحله التى يكسوها روث الدجاج •

وقيل ان مرضه انما كان يرجع الى لفحة حر سببتها له شمس الصحراء الحارة ، ثم قيل بعد ذلك انه كان يحتضر فى جواياكيل ، وبعد ذلك فى كيتو ، من حمى معـوية مزعجـة تتسبب فى عدم الاهتمام بما يجرى فى العالم، وبهدوء مطلق فى الروح ، ولم يعرف أحد الاسس العلمية لهذه الشائعـات لانه كان يعترض دائما على علم الأطباء ، ويعـالج نفسـه طبقـا للمواصفات المذكـورة فى كتاب بعنوان « الطب فى خدمته » الذى وضعه دونستيير ، وهو كتاب فرنسى وجيز فى تشخيص الأمراض وعلاجها ، كان جوزيه بالاسيوس يحمله معه دائما كوحى لتفهم وعناية أى اضطراب فى الجسم أو فى العقل •

وعلى كل حال ، لم يكن هناك احتضار مثمر كاحتضاره ، فبينما كانوا يتصورونه يجود بروحه فى باتيفيلكا ، اجتاز مرة أخرى القمم الجبلية وأحرز انتصارا فى جونينى ، وأتم تحرير أمريكا الاسبانية كلها بانتصاره الأخير فى اياكوشو، وأنشأ جمهورية بوليفيا ، ووجد الوقت بعد ذلك ، فى ذروة الانتصار ، لأن يكون سعيدا فى ليما كما لم ولن يكونه بعد ذلك أبدا . بحيث ان الاعـلان المتـكرر عن مغادرته البلد والسلطة بسبب مرضه وبسبب المظاهرات الرسمية التى كان يبدو انها تؤكد ذلك ، لم تكن الا تكرارا معيبا لمأساة شوهدت كثيرا بحيث لم يعد يصدقها •

وبعد قليل من عودته ، وفى نهاية اجتماع حكومى عاصف ، أخذ المارشال جوزيه دى سوكريه من ذراعه ، وقال له : ابق معى • وقاده الى مكتبه الخاص الذى لا يستقبل فيه الا بعض المختارين ، وأرغمه تقريبا على الجلوس على مقعده الخاص وقال له :

ـ هذا المكان قد أصبح لك الآن أكثر مما هو لى •

كان المارشال اياكوشو العظيم ، صديقه العزيز جدا ، يعرف كل المعرفة حالة البلد • ولكن الجنرال قدم له تقريرا مفصلا قبل أن يصل الى هدفه ، ففى بضعة أيام سيجتمع الكونجرس لكى ينتخب رئيسا للجمهورية ، ولكى يضع دستورا جديدا ويحاول محاولة متأخرة انقاذ الحلم الذهبى باكتمال القارة ، فان جمهورية بيرو فى أيدى سلطة أرستقراطية رجعية كان يبدو أنه لا يمكن استعادتها •وكان الجنرال أندريس دى سانتاكروز يحكم بوليفيا بمفرده ، ويمضى بها فى طريق مستقل وخاص ، والفنزويلا ، تحت سيطرة أنطونيو بايز ، أعلنت استقلالها • وضم الجنرال جوان جوزيه فلوريس ، حاكم الجنوب العام ، جواياكيل وكيتو ، وجعل منهما جمهورية الاكوادور المستقلة • وجمهورية كولومبيا ، وهى أول نواة لوطن كبير وموحد أخضعت تحت حكم غرناطة الجديدة ، فما كاد ستة عشر مليونا من الأمريكيين يعرفون الحرية حتى وجدوا أنفسهم تحت رحمة الزعماء السياسيين ، واختتم الجنرال حديثه قائلا :

ـ والخلاصة أن كل ما بنيناه بأيدينا يدمره الآخرون بأقدامهم •

قال الجنرال سوكريه : هذه احدى سخريات القدر ، فكأننا بذرنا فى عمق سحيق مثالية الحرية الى حد آن تلك الشعب تحاول الاستقلال ، كل منها عن الآخر •

رد عليه الجنرال في حدة كبيرة :

ـ **لا نكرر نذالة العدو حتى ولو كانت حقيقية كهذه .**

اعتذر الجنرال سوكريه . كان ذكيا ، ومحبا للنظام ، وخجولا وموسوسا . وكانت في وجهه حلاوة لم تستطع ندبات الجدرى القديمة محوها . وقد قال عنه الجنرال الذى يحبه كل الحب انه يتظاهر بالتواضع دون أن يكون كذلك . كان قد تصرف تصرف الأبطال في بيشيشنا وتاموسلا وتاركى ، وقاد وهو لما يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره ، بعد معركة آياكوشو المجيدة التى حطمت آخر معاقل الاسبان في أميركا الجنوبية . ولكنهم كانوا يحبونه لكرمه في المعارك ، ولمواهبه السياسية أكثر من حبهم له لتلك المزايا ، تخلى عن كل مناصبه ، وراح يتجول ، دون أى وسام من أوسمته العسكرية ، مرتديا معطفا بسيطا من الجوخ ، أسود اللون يصل حتى آخر قدميه ، ويرفع ياقته دائما ليحتمى بها من برد الجبال المجاورة القارس والحاد كالخناجر . وبناء على رغباته ، كان التزامه الوحيد ، لكى يخدم الأمة ، هو اشتراكه في الكونجرس كنائب عن كيتو ، وكان في الخامسة والثلاثين ، ويتمتع بصحة جيدة ، وكان يحب الى حد الجنون دونا ماريانا كارسيليتى ، مركيزة سوند ، وهى مواطنة من كيتو ، جميلة ولعوب ، تكان تكون مراهقة ، تزوجها بتوكيل قبل ذلك بسنتين ، وأنجب منها طفلة صغيرة عمرها ستة شهور .

لم يتصور الجنرال أن هناك رجلا أكفأ منه لكى يخلفه في رئاسة الجمهورية . كان يعلم أنه لا تزال تنقصه خمس سنوات لكى يكون فى السن القانونية بسبب تحريم دستورى فرضه الجنرال رافائيل أوردانتيا لكى يقيم أمامه العقبات ، ومع ذلك فقد كان الجنرال يقوم باجراءات سرية ليعدل ذلك القرار ، وقال له :

ـ أقبل . سأظل قائدا عاما ، وسأدور حول الحكومة كما يدور الثور حول قطيع من البقر .

بدا أن قواه تخور ، ولكن تصميمه كان مقنعا . ومع ذلك فقد كان المارشال يعرف منذ وقت طويل أن المقعد الذى يجلس فوقه لن يكون مقعده أبدا ، فمنذ وقت قليل ، عندما عرض عليه لأول مرة امكانية أن يصبح رئيسا قال انه يحكم أمة نظامها ومستقبلها محفوفان بالخطر ، من يوم لآخر . كان من رأيه أن أول خطوة للتطهير هى منع العسكريين من السلطة ، وأراد أن يقترح على الكونجرس ألا يكون أى جنرال رئيسا خلال السنوات الأربع القادمة ، ولا شك أن ذلك لسد الطريق أمام أوردانيتا ، ولكن أشد المعارضين لهذا الاقتراح كانوا الجنرالات أنفسهم ، وقال سوكريه :

ـ « اننى متعب جدا بحيث لا يمكننى أن أتحدث من غير دليل ، ثم ان فخامتك مثلى تماما . انهم ليسوا هنا بحاجة الى رئيس ، وانما الى قامع للثورة » . سيحضر جلسات الكونجرس ، وسيقبل شرف رئاسته اذا عرض عليه ذلك ، ولكن لا شىء أكثر ، فقد علمته أربع عشرة سنة من الحروب أنه ليس هناك نصر أعظم من أن يظل المرء على قيد الحياة ، ورئاسة بوليفيا ، ذلك البلد المجهول والشاسع الذى أسسه وحكمه بيد حكيمة ، بينت له تقلبات السلطة ، وعلمه ذكاء قلبه عدم جدوى المجد ، وأردف يقول : « بحيث اننى أرفض يا صاحب الفخامة » . ففى الثالث عشر من مايو ، عيد سان أنطونيو ، يجب أن يكون فى كيتو ، بجوار زوجته وابنته حتى يحتفل معهما بذلك اليوم ، وبكل الأيام التى سيتيحها له المستقبل ، لأن قراره بأن يعيش من أجلهما ، ولا شىء الا لأجلهما ، فى بهجة الحب ، قد تقرر منذ عيد الميلاد الأخير . وقال :

ـ وهذا كل ما أنشده من الحياة .

كان الجنرال مكتئبا وقال : كنت أظن أن ما من شيء أصبح يثير دهشتي . وحدق في عينيه مليا وقال : أهذه كلمتك الأخيرة ؟

قال سوكريه : بل قبل الأخيرة ، فالأخيرة هي امتناني الأبدي لكرم فخامتك .

ضرب الجنرال فخذه بيده كما لو لكي يتخلص من حلم عضال وقال :

ـ حسنا . انك اتخذت بالنسبة لي القرار النهائي لحياتي .

وفي نفس تلك الليلة كتب استقالته تحت تأثير مثبط للهمة لمقيء وصفه له طبيب عابر في محاولة لتهدئة صفرائه . وفي العشرين من يناير ، افتتح المجلس بخطاب وداع مدح فيه رئيسه ، الجنرال سوكريه قائلا انه أكثر الجنرالات أهلية وجدارة . ولقي المديح هتافا عاليا من جميع أعضاء المجلس ، ولكن نائبا جالسا بجوار أوردانيتا همس في أذنه «معنى هذا أن هناك جنرالا أكثر أهلية وجدارة منك» وبقيت عبارة الجنرال وخبث النائب كمسمارين محميين في قلب الجنرال رافائيل أوردانيتا .

وكان ذلك صحيحا ، فرغم أن أوردانيتا لم يكن يملك المزايا العسكرية العديدة للجنرال سوكريه ، ولا قدرته الكبيرة في التأثير ، الا أنه لم يكن هناك أي سبب للتفكير في أنه أقل أهلية أو جدارة منه . وقد أشاد الجنرال نفسه بهدوئه ومثابرته ، وتأكد من اخلاصه ومحبته له ، وكان واحدا من قلائل الرجال في هذا العالم الذين يجرؤون على مواجهته بالحقائق التي يخشى سماعها . واذ أدرك الجنرال غلطته ، حاول تعديلها في بروفات المطبعة ، وبدلا من عبارة « انه

أكثر الجنرالات أهلية وجدارة ، صححها بيده بحيث أصبحت « واحد من أكثر الجنرالات أهلية وجدارة » . ومع ذلك فان التصحيح لم يخفف احساس أوردانيتا بالحقد .

فبعد بضعة أيام ، وأثناء اجتماع الجنرال ببعض الأصدقاء والنواب اتهمه أوردانيتا بأنه يتظاهر بالرحيل في حين يحاول بأن يعاد انتخابه سرا ، فقبل ثلاث سنوات ، استولى الجنرال جوزيه أنطونيو باين على السلطة بالقوة في اقليم فنزويلا في محاولة أولى لفصله عن كولومبيا . ومضى الجنرال عندئذ الى كاراكاس . وتصالح مع باين وتعانقا علنا وسط الأغاني والهتافات والموسيقى ، واصطنع له نظاما استثنائيا على مقاس أتاح له الحكم كما يتمنى ، وقال أوردانيتا : وبدات الكارثة هناك ، لأنه اذا كانت هذه المجاملة قد انتهت بتسميم العلاقات مع الغرناطيين ، فقد أعطتهم أيضا فيروس الانفصال ، وقال أوردانيتا مختتما : والآن فان أحسن خدمة يمكن للجنرال أن يقدمها للوطن هي أن يتخلى بلا أى اجراء آخر عن الحكم وأن يغادر البلاد . وأجاب الجنرال بنفس الحدة ، ولكن أوردانيتا كان رجلا نزيها لا يعرف اللف ولا الدوران ، وأحس الجميع بأنهم حضروا انهيار صداقة قديمة .

كرر الجنرال استقالته وعين دون دومينجو كايسيدو رئيسا مؤقتا ريثما يجتمع المجلس لانتخاب الرئيس الجديد . وفى الأول من مارس غادر قصر الرئاسة من باب الخدم حتى لا يلتقى بالمدعوين الذين يحتفلون بخليفته بكأس من الشمبانيا ، ورحل فى عربة معارة الى قصر فوشا ، وهو مكان استراحة مثالى على مقربة من المدينة وضعه الرئيس المؤقت تحت تصرفه . واليقين من أنه لم يعد غير مواطن عادى كغيره زاد وحده خطورة نكبات القيء ، وخلال حلم من أحلام اليقظة طلب من جوزيه بالاسيوس أن يأتيه بالأدوات الكتابية

اللازمة لكتابة « مذكراته » · وآتاه جوزيه بالاسيوس بالحبر وبكميـة كبيرة من الـورق تكفي لكتـابة أربعين سـنة من الذكـريات · وطلب الجنرال من فرنانـدو ، ابن أخيـه وسكرتيره أن يعاونه على ذلك ، بدءا من يوم الاثنين التـالى فى الساعة الرابعـة صباحا ، وهى أكثر سـاعاته المناسـبة للتفكير بعيدا عن الأحقاد والضغائن · وكما قال لابن أخيـه فى مناسبات عدة فانه يريد أن يبدأ مذكراته بأقدم ذكـرى لديه ، وهى حلم رآه فى مزرعة سـان ماتيو بفنزويلا ولمـا يتجاوز بعد الثالثة من عمره ، فقد رأى فى المنام بغلة سوداء لها أسنان ذهبية تدخل البيت ، وجالت فيه ابتداء من الصالون الكبير حتى ملحقات البيت ، وهى تأكل فى بطء كل ما تجده فى طريقها ، بينما أصحاب البيت يهجعون للقيلولة ، وأنها انتهت بأن أكلت الستائر والسجاد والمصابيح وأوانى الزهور والأطباق ومفارش غرفة الطعام ولوحات القديسين والدواليب والصناديق بكل ما فيهـا والحلل التى فى المطبخ الأبـواب والنوافذ بمفصـلاتها ومقابضها ، بدءا من الـرواق حتى الغرف والشيء الوحيد الذى لم تمسه وكان يعوم في الفضاء هو المرآة البيضاوية بمنضدة الزينة الخاصة بوالدته ·

ولكنه أحس بأنه على أتم ما يرام في بيت فوشا ، وكان الجو جميلا تحت السماء ذات السحب السريعة التحرك ، بحيث لم يعد يتحدث عن ذكرياته · وانتهز فرصة الفجر لكى يتمشى بمحاذاة ممرات السـهل المعطرة · وأحس الذين زاروه فى اليوم التالى أن صحته قد تحسنت ، ولا سـيما العسـكريون ، وهم اخلص أصدقائه الذين توسلوا اليه أن يحتفظ بالرئاسة بأى ثمن ولو اقتضى ذلك ثورة فى القشلاق · الا أنه ثبط عزيمتهم قائلا ان الاسـتيلاء عـلى السـلطة بالقـوة لا يليق بمجده · ولكن بدا أنه لم يتخل عن الأمل في تأييد المجلس له بقرار شرعى · وكان جـوزيه بالاسيوس يكرر : « لا يعلم ما يفكر فيه سيدى الا سيدى نفسه » ·

وداومت مانويلا اقامتها على بعد خطوات من قصر سان كارلوس، وهو مقر الرؤساء، مرهفة أذنيها لاشاعات الشارع. وكانت تمضي الى فوشا مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع أو اكثر، اذا كانت هناك ضرورة تستدعي ذلك، وهي محملة بحلوى اللوز والسكريات الساخنة التي يصنعونها في الأديرة، وقوالب الشيكولاتة بالقرفة التي يحب الجنرال تناولها في الساعة الرابعة . ولم تكن تأتيه بالجرائد الا فيما ندر، لأنه أصبح شديد الحساسية نحو النقد، بحيث ان أية ملاحظة تافهة كانت تخرجه عن طوره . ولكنها كانت تروى له بالتفصيل السياسة وخبث الصالونات، والأحوال والثرثرات لأنه كان يحب أن يستمع الى كل شيء حتى ولو كان ضده، لأنها كانت الشخص الوحيد المسموح له بأن يقول الحقيقة . وعندما لم يكن هناك ما يقال، كانا يراجعان المراسلات أو تقرأ له أو يلعبان الورق مع الحراس . ولكنهما كانا يتناولان الغداء دائما وحدهما .

تعارفا في كيتو قبل ذلك بثماني سنوات أثناء الاحتفال بالتحرير وكانت لاتزال زوجة الدكتور جيمس ثورب، وهو جنتلمان انجليزي تأصل في أرستقراطية ليما أثناء الردافة الملكية . كانت آخر امرأة أحبها حبا لم ينقطع بعد ان ماتت زوجته منذ سبعة وعشرين عاما . ولكنها كانت على الأخص كاتمة أسراره، حارسة أرشيفه وقارئته البليغة الأثر . ثم انها في عداد أعوانه برتبة كولونيل، وقد أوشكت في وقت بعيد أن تقضم احدى أذنيه بأسنانها أثناء نوبة غيرة . ولم تكن تبقى للنوم، بل كانت ترحل في وقت مبكر حتى لا يفاجئها الليل وهي في الطريق، خصوصا في ذلك الفصل الذي تغرب فيه الشمس بسرعة .

وعلى عكس ما حدث في ليما ، في قصر متجداليناء ، حيث كان لابد له من ان يختلق الحجج لكي يبعدها اثناء لهوه مع سيدات الطبقة العليا من المجتمع ، واخريات اقل منهن ، فقد ابدى في فوشا ما يدل على انه لا يستطيع ان يعيش من غيرها - وكان يمضي وقته في النظر الى الطريق الذي يجب أن تأتي منه ، ويضايق جوزيه بالاسيوس فيسأله عن الساعة في كل لحظة ، وطلب منه أن يغير المقعد من مكانه ، وأن يغذي النار في الموقد ، وأن يطفئها • ثم يشعلها من جديد وقد فرغ منه الصبر وتملكه الاستياء حتى يرى العربة تظهر من خلف التلال ، فتتألق الحياة فجأة • ولكنه كان يبدي قلقا مماثلا عندما تطول الزيارة أكثر من المتوقع • وكانا يستلقيان على الفراش في ساعة القيلولة دون أن يخلعا ثيابهما ودون أن يستسلما للنوم • وأقدما على الخطأ أكثر من مرة محاولين ممارسة الحب مرة أخيرة لأنه كان يرفض الاعتراف بأن جسده لم يعد قادرا على ارضاء روحه •

وفي ذلك الوقت تسبب أرقه المعاند في بعض الاضطرابات ، وكان ينام في أي وقت ، قبل أن يتم عبارة وهو يملي رسائله أو وهو في ذروة لعب الورق • وكان هو نفسه لا يعرف ان كان ذلك عصفات حلم أو اغماءات عابرة • ولكنه ما يكاد يأوي الى الفراش حتى يشعر بانبهار من الوضوح الصحو ، وما تأخذه نصف اغفاءة بغيضة حتى توقظه ريح السلام بين الأشجار ، وعندئذ لا يقاوم اغراء تأجيل املاء مذكراته الى صباح الغد لكي يقوم بجولة وحده تمتد أحيانا حتى ساعة الغداء •

كان يمشي دون حراسة ومن غير أن يرافقه الكلبان الوفيان اللذان يرافقانه أحيانا في ميدان القتال ، وبدون جياده الملحمية التي بيعت الفرقة النرسان لتغطية نفقات الرحلة • كان يمضي حتى النهر القريب وهو يطأ بقدميه بساط الأوراق الجافة ، في الطرقات التي لا نهاية لها ، تحميه

عباءته الصوفية من رياح السهل الباردة ، وحـذاؤه المبطن بالصوف وقبعته الحريرية الخضراء التي كان يلبسها فيما سبق لكي ينام ، ويجلس فترة طـويلة للتـأمل امام الكوبرى الصغير ذى الالواح غير المتماسكة ، في ظل اشجار الصفصاف غير المواسية مستغرقا فى تأمل تيارات الماء التي قارنها ذات يوم بقدر الرجال في مشابهة بليغة خاصـة بمدرس شـبابه دون سيمون رودريجز ، يتبعه أحد حراسه خفية حتى يعود وقد بلله الندى ، ويكاد يتنفس وهو يصعد الدرجات الامامية للبيت ، شاحبا ونشوان ، بعيني مجنون سعيد • وكان يحس بأنه على ما يرام أثناء تلك النزهات اللاهيـة بحيث يسـمعه الحراس المختفون يغني بين الأشجار آغانى عسكرية ، كما كان يحدث له أيام سنوات مجده الأسطورى وهزائمه الهوميرية • وكان الذين يعرفونه جيدا يتساءلون عن أسباب هذا المرح ، مادامت مانويلا بالذات تشك فى أن يعين مرة أخرى لرئاسة الجمهورية من قبل المجلس التشريعي الذى وصفه هو نفسـه بأنه مجلس رائع •

وفي يوم الانتخاب ، أثناء نزهته الصباحية ، رأى كلبة سلوقيا لا صاحب له يلهو بين الأسوار مع طيـور السـمان ، فصفر له بطريقة خاصة ، فتوقف الكلب على الفور ، وبحث عنه بأذنين منتبهتين ، واكتشفه بقبعته الحريرية وعبـاءته المتدلية حتى الأرض • وشمه الكلب بقدر ما استطاع ، فى حين كان الجنرال يداعب شعره بأطراف أصابعه ، ولكنه توقفه فجأة ، وحدق في عينيه بعينيه الذهبيتين ، ثم أطلق زمجرة ارتياب وهرب مرعوبا • وتبعه الجنرال عبر ممر مجهول ، وضل طريقه في ناحية من الشوارع الصغيرة الموحلة تعبق ساحاتها ببخار اللبن المحلوب للتو • وفجأة انطلقت صيحة :

ـ أيها السجق !

ولم يسعفه الوقت لكي يتفادى روث بقرة قذفوه بها من احدى الحظائر وارتطم بصدره ولوث وجهه • ولكن الصيحة

هى التى نبهته من ذهوله الذى كان مستغرقا فيه منذ ان غادر قصر الرئاسة · كان يعرف تلك الكنية التى اطلقها عليه الغرناطيون ، وهى نفس الكنيــة التى أطلقت عــلى متشرد مخبول ومشهور بزيه المضحك · دعاه نائب من أولئك الذين يدعونهم بالاحرار ، أثناء غيــابه عن الـكونجرس . بهــذه الكنية ، ونهض اثنان من أصدقائه فحسب للاحتجاج · ولكن لم يسبق لأحد أن دعاه بتلك الكنيــة مباشرة · وبدأ يمسح وجهه بطرف عباءته ، وقبل أن يفرغ من ذلك ، ظهر الحارس الذى يتبعه خفية ، من بين الأشجار ، شــاهرا سيفه ليعــاقب الاساءة ، ولكن الجنرال صعقه بنظرة غاضبة وقال له :

ـ وأنت ؟ ·· ماذا تفعل هنا بحق الشيطان ؟

وقف الحارس فى احترام وأجاب :

ـ اننى أنفذ الأمر يا صاحب الفخامة ·

اجابه فى حدة : أنا لست صاحب فخامتك ·

وجرده من منصبه ومن أوســمته بكل حقــد بحيث ان الضابط اعتبر نفسه سعيدا : لأن الجنرال لم يعد يملك من السلطة ما يسمح له بأن ينزل به عقابا أشد قسوة · وحتى جوزيه بالاسيوس الذى يعرفه كل المعــرفة لقى مشــقة فى استيعاب حنقه ·

كان يوما سيئا · أمضى الصباح فى اللف والدوران فى أرجاء البيت وهو يشعر بنفس القلق الذى يشــعر به وهــو ينتظر مانويلا · ولكن لم يجهل أحد هذه المرة أن الأمر ليس متعلقا بها وانما بأخبار المجلس · حاول أن يفهــم ما يدور فى الجلسة لحظة بلحظة · وعندما قال له جوزيه بالاسيوس ان الساعة العاشر قال له : لابد أن الاقتراح قد بدأ الآن ، رغم رغبة الديماجوجيين فى النهيق · ثم تساءل بعد لحظة

كبيرة من التفكير : « من يمكن أن يعرف فيم يفكر رجل كاوردانيتا » ، كان جوزيه بالاسيوس يعرف ان « الجنرال يعرف ذلك ، لان اوردانيتا لم يكف عن التصريح فى ارجاء المجلس عن اسباب حقده الشديد · وعندما مر جوزيه بالاسيوس بالقرب منه مرة أخرى سأله الجنرال كان الامر لا يعنيه : لمن تظن أن سوكريه سيصوت؟ وكان جوزيه بالاسيوس يعرف تماما ان سوكريه لن يستطيع الادلاء بصوته لانه رحل الى فنزويلا مع اسقف سانتا مارتا : جوزيه مارتا استيفاينز فى مهمة للتفاوض حول تفاصيل الانفصال · ولهذا لم يتردد فى ان يرد قائلا : « انت تعرف ذلك خيرا من اى شخص يا سيدى » · وابتسم الجنرال لأول مرة منذ عودته من نزهته البغيضة ·

ورغم شهيته الشاردة ، كان يجلس تقريبا دائما الى المائدة من الساعة الحادية عشرة لكى ياكل بيضة فاترة وكأسا من النبيذ أو لكي يقضم قطعة من الجبن ، ولكنه ، فى ذلك اليوم ، بقي واقفا فى الشرفة يراقب الطريق فى حين راح الآخرون يتناولون طعام الافطار ، وكان مستغرقا الى حد أن جوزيه بالاسيوس نفسه لم يجرؤ على ازعاجه · وبعد أن تجاوزت الساعة الثالثة وقف مرة واحدة وهو يسمع دبيب البغال ، ولم تكن عربة مانويلا قد ظهرت بعد من فوق التلال · وأسرع لاستقبالها ، وفتح الباب ليساعدها على الهبوط ، وعرف الخبر فى نفس اللحظة التى رأى فيها وجهها ، فقد تم انتخاب الدون جواكين موسكيرا ، الابن الأكبر لأسرة مشهورة ببوبايان ، بالاجماع رئيسا للجمهورية ·

لم يكن رد فعله غضبا ولا احباطا ، وانما دهشة لأنه هو نفسه كان قد اقترح على المجلس اسم دون جواكين موسكيرا وهو واثق ان هذا الأخير لن يقبل · غرق فى تأمل عميق ، ولم ينطق بكلمة واحدة حتى الأصيل · وسأل : « ولا صوت

واحد لى » ٠٠ ولا صـوت ٠٠ وقال له الوفد الرسمى الذى زاره فيما بعد والمكون من بعض النواب الاصدقاء أن انصاره قد اتفقوا على أن يكون التصويت بالاجماع حتى لا يبدو انه خسر معركة صاخبة ٠ وقد ساءه ذلك الى حـد انه بدا غير مقدر رقة هذه المناورة اللبقة ، وفكر على العكس بأنه كان جديرا بمجده لو أنهم قبلوا أول استقالة له قدمها لهـم ٠ وتنهد قائلا :

ـ الخلاصة أن الديماجوجيين فازوا مرة أخرى وكسبوا المعركة ٠

ومع ذلك ، وحتى اللحظة التى ودعه فيها الوفد على باب البيت حرص على الا ينم وجهه على الانفعال الشديد الذى يعانيه ما كادت العربات تختفى عن بصره حتى أصيب بنوبة من السعال جعلت البيت كله فى حالة تأهب حتى المســاء ٠ وكان أحد أعضاء الوفد قد قال ان الكونجرس حرص بقراره هذا على انقاذ الجمهورية ٠ وتظاهر بأنه لم يسمعه ٠ ولـكن فى تلك الليلة بالذات ، وبينما كانت مانويلا ترغمـه عـلى تناول كاس من المرق قال لها : «لم ينقذ أى مجلس الجمهورية أبدا » وقبل أن ينام جمع حراسه وقال لهم بصراحته المعهودة التى كان يستخدمها فى استقالاته المشبوهة :

ـ سأغادر البلد ابتداء من الغد ٠

ولكنه لم يغادر البلد فى اليوم التالى ، وانما بعد أربعة أيام ٠ وبينما كان يسترد رباطة جأشـه أملى بيـان وداع لم يظهر فيه جراح قلبه ، ثم عاد الى المدينة لكى يبدأ فى اعداد الرحلة واصطحبه الجنرال بدرو الكانتارا هيران ، وزيـر الحربية والبحرية فى الحكومة الى بيته بشــارع انسينزا ، لا لكى يستضيفه ، وانما لكى يحميه من أخطار الموت التى كانت تزداد خطورة ٠

وقبل أن يرحل الى سانتا فى باع فى المزاد القليل من الممتلكات التى تبقت له ليحسن من حالته العادية • وفيما عدا الجياد ، تخلص من آنية المائدة الفضية التى ترجع الى عهد بوتسوف المجيد ، وقدرها بيت المال بقيمتها الفعليه دون النظر الى جمال صنعها أو مزاياها التاريخية بألفين وخمسمائة بيزوس • وكان جملة ما حصل عليه قبل رحيله سبعة عشر ألفا وستمائة بيزوس ، وأمر بالدفع بمبلغ ثمانية آلاف بيزوس من خزينة كارتاجنة العامة ، ومعاش مدى الحياة منحه له المجلس وأكثر من ستمائة بيزوس ذهبا موضوعة فى عدة حقائب • وكان كل ذلك بقايا مثيرة للحزن من ثروة خاصة كانت تعتبر يوم مولده من أكثر ثروات أمريكا المزدهرة •

وفى الأمتعة التى أعدها جوزيه بالاسيوس دون اسراع فى صبيحة يوم الرحيل نفسه بينما كان الجنرال ينتهى من ارتداء ثيابه لم يكن غير غيارين داخليين مستعملين ، وقميصين لكل الأيام ، وسترته الحربية بصفيها من الأزرار التى يقال أنها صنعت من ذهب أتاوالبا ، وطاقية النوم الحريرية وقبعة حمراء أتاه بها الجنرال سوكريه من بوليفيا • ولم يكن يملك غير شبشبه البيتى والجزمة الملمعة التى يلبسها • وفى الحقائب الخاصة بجوزيه بالاسيوس شنطة الأدوية وكتابا « العقد الاجتماعى » لروسو و « الفن العسكرى » للجنرال الايطالى رايموندو مونتيكوكولى ، وهما حليتان مكتبيتان كانا ملكا لنابوليون بونابرت أهداهما اليه سير روبيرت ويلسون ، أبو أحد حراسه ، أما الباقى فكان من القلة بحيث احتواه جراب عسكرى ، وعندما رأى الجراب وهو يهم بدخول القاعة التى ينتظره فيها الوفد الرسمى قال :

(★) آخر ملوك الانكا فى بيرو ، قتله الاسبان بعد ان اسروه رغم انه دفع لهم ملء غرفة كبيرة من الذهب والفضة •

ـ ما كنا نظن أبدا يا عزيزى جوزيه أن كل مجدنا سيضمه حذاء .

ومع ذلك فقد كانت البغال السبعة محملة بصناديق أخرى تضم الأوسمة وأطقم المائدة الذهبية ، وعديدا من الأشياء الأخرى القيمة شيئا ما : عشر حقائب من المستندات الخاصة ، وكتابين سبق أن قرأهما وخمس حقائب على الأقل من الملابس وصناديق كثيرة تحتوى على العديد من الاشياء الجيدة وغير الجيدة لم يجد أحد الصبر لكى يجردها . ومع ذلك فما كان كل ذلك ليذكر بالنسبة للأمتعة التى دخل بها ليما قبل ذلك بثلاث سنوات متقلدا السلطة الثلاثية لرئيس بوليفيا وكولومبيا و دكتاتور بيرو . قطار من الدواب يحمل اثنتين وسبعين حقيبة وأكثر من أربعمائة صندوق مملوءة بعديد من الأشياء التى لا يمكن حصر قيمتها . وفى تلك المناسبة ترك فى كيتو أكثر من ستمائة كتاب لم يحاول استعادتها على الاطلاق .

كانت الساعة قد بلغت السادسة تقريبا . كان الرذاذ الذى نادرا ما يهطل قد توقف ، ولكن الجو كان لايزال مكفهرا وباردا . وبدأت تتصاعد من البيت الذى يحتله الجيش رائحة القشلاق العفنة . ونهض الفرسان والرماة ، كرجل واحد ، عندما رأوا الجنرال يقترب فى آخر الرواق . كان صامتا ، يحيط به حرسه ، أخضر فى جلال الفجر . بعباءته الملقاة فوق كتفه وقبعته العريضة الحواف التى تكشف ظلال وجهه . كان يضع على فمه منديلا مبللا بماء الكولونيا لكى يحتمى طبقا لوسواس قديم من تقلبات الجو المفاجئة . ولم يكن يضع أية علامة تدل على مكانته ، ولم يبق له أى دليل عن سلطته الكبيرة السابقة ، ولكن هالة السلطة السحرية جعلته يبدو مختلفا وسط حاشيته الصاخبة من الضباط ، وتوجه نحو صالة الاستقبال وهو يمشى فى خطى بطيئة فى الرواق المفروش بالحصر والممتد بالحديقة الداخلية ، غير مكترث

بالجنود الذين يحيونه عند مروره • وقبل أن يدخل الصالون دس منديلا فى كم جاكتته ، كما كان يفعل رجال الدين فيما سبق ، وناول أحد مرافقيه القبعة التى كان يلبسها •

وعلاوة على الذين يسهرون فى البيت لم ينقطع المدنيون والعسكريون عن التوافد منذ الفجر• كانوا يحتسون القهوة ، فى جماعات صغيرة متفرقة وثيابهم الداكنة وأصواتهم الصماء تضفى على الجو صرامة كئيبة • وارتفع فجأة صوت حاد لأحد الدبلوماسيين وغطى على همهماتهم قائلا :

ـ لكأننا فى مأتم •

وما كاد يفرغ من عبارته حتى شم ، وراء ظهره ماء الكولونيا الذى تشبعت به الصالة ، وتحول عندئذ وهو ممسك بفنجان القهوة الذى يتصاعد منه البخار بين ابهامه وسبابته • ولكن لا ، فرغم أن آخر رحلة للجنرال فى أوروبا تعود الى أربع وعشرين سنة ، عندما كان لا يزال شابا يافعا ، فان الحنين لأوروبا كان أكثر حدة من الأحقاد والضغائن بحيث ان الدبلوماسى كان أول شخص يوجه الجنرال اليه الحديث ويقول له فى رقة متناهية :

ـ أرجو ألا يكون هناك ضباب كثير فى هذا الخريف فى هايدبارك •

تردد الدبلوماسى لحظة لأنه سمع فى هذه الأيام الأخيرة ان الجنرال راحل الى ثلاثة أماكن مختلفة لم تكن لندن من بينها ، ولكنه تمالك على الفور وقال :

ـ سنحاول أن يكون لدينا شمس نهارا وليلا من أجل فخامتكم •

لم يكن الرئيس الجـديد موجـودا بينهم ، لأن المجلس انتخبه فى غيابه ، وكان لابد له من شـهر لـكى يعـود من بوبايان • تواجد بدلا منه ونيابة عنه النائب المنتخب ، وهو الجنرال دومينكو كايسيدو ، ويقال عنه ان أية وظيفة فى خدمة الامبراطورية محدودة جدا بالنسبةله لأن له هيئة ووقار الملك • وحياه الجنرال باحترام كبير وقال له بلهجة ساخرة :

ـ هل تعرف أنه ليس معى تصريح بمغادرة البلاد •

قوبلت عبـارته بقهقهة عامة رغـم أن الجميع كانـوا يعرفون انها ليست مزحة • ووعده الجنرال كايسيدو بأنه سيرسل اليه جواز سفر قانونيا فى البريد التالى الى مدينـة هوندا •

كان الوفد الرسمى مكونا من أسقف المدينة ومن الاعيان والموظفين المرموقين ، وكان المدنيون يلبسـون معـاطف من الصوف ، والعسكريون جزما خاصـة بركوب الخيـل لانهم كانوا يستعدون لمرافقة المنفى الكبير طوال فراسخ كثيرة • وطبع الجنرال قبلة على خاتم الأسقف ، وقبل أيدى السيدات، وشد على أيدى الرجال بدون اندفاق •• سـيد مطلق لهـذا الحفل المؤثر ،وغريب تماما عن طبع هذه المدينـة الغامض الذى قال عنها فى مناسبات عديدة « هذه ليست مسرحى » ، وحيا الجميع وهو يمر بكل واحـد منهم ويوجه اليه عبـارة حفظها من « موجز فى الأدب والكياسة » ولكنه لم يحدق فى عين أى منهم • وكان صوته رنانا به لذعات حمى ، ولهجته كاريبية ، لم تفلح كل السـنوات التى قضـاها فى الترحال والحروب فى ترويضها ، بل بدا أنها قد ازدادت أمام هجنـة الانديزيين •

وعندما فرغ من تحيتهم ، تلقى من نائب الرئيس رسالة موقعا عليها من عدد من الغرناطيين المرموقين، يعبرون فيها

عن امتنانهم وامتنان البلاد لسنوات خدمته الطويلة . وتظاهر بأنه يقرؤها خلال صمت المجلس كضريبة اضافية للشكليات المحليـة لأنه ما كان يستطيع قراءة حتى خط أكبر بدون استخدام نظارته . وعندما تظاهر بأنه انتهى وجه الى الوفد كلمات وجيزة من الشكر كانت ملائمة الى حـد أن أحدا لم يستطع أن يقول انه لم يقرأها . وأخيرا ، ردد البصر فى الصالون وقال دون أن يخفى بعض القلق :

ـ ألم يحضر أوردانيتا .

أخبره نائب الرئيس أن الجنرال رافائيل أوردانيتا رحل وراء الفرق المتمردة لكى يساعد الجنرال جـوزيه لورنسـيو سيلفا ، وارتفع صوت آخر يقول :

ـ وسوكريه ، هو الآخر ، لم يحضر .

لم يستطع أن يمر مر الكرام على سوء نية هذه المعلومة التى لم يلتمسها ، وومضت عيناه الخابيتان والمتهربتان حتى تلك اللحظة بوميض محموم ، ورد دون أن يعرف لمن يوجه الحديث :

ـ نحن لم نطلع مارشال اياكوشو الكبير عن موعد رحيلنا حتى لا نزعجه .

وبدا أنه كان يجهل أن المارشال سوكريه قد عاد منـذ يومين من فنزويلا حيث فشلت مهمته لأنهم منعوه من دخـول بلدته بالذات ، ولم يخبره أحد بأن الجنرال راحل ، ربما لأنه لم يخطر لأحد ألا يكون أول من يعـرف ذلك . وقد عـرف جوزيه بالاسيوس ذلك فى لحظة غير سـوية ، ثم نسـيه فى صخب الساعات الأخيرة ، ولم يستبعد بالطبع الفكرة الخبيثة بأن المارشال سوكريه لم يتملكه الاستياء لعدم اطلاعه .

واعد طعام شهي ولذيذ على الطريقة الكريوليه • وفي غرفه الطعام المجاورة : فطائر من دقيق الذرة ، ومحشي الآرز مع لحم الخنزير ، وبيض مخفوق وتشكيلة جميلة من انواع الخبز فوق مفارش من الدانتـلا ، وأطبـاق من الشـيكولاته السـاخنة كالصـمغ المعطر • وقد أخر اصحاب البيت تقديم الطعام لعل الجنرال يقبل أن يتصدر المائدة رغم أنهم يعرفون أنه لا يتناول في الصباح شيئا آخر غير شراب الخشـخاش المسكر والممزوج بالصمغ العربي • ومهما يكن فقد دعتـه صاحبة البيت لكي يجلس على المقعـد المحجوز له في آخـر المـائدة ، ولكنـه رفض هـذا الشرف وقال يخاطب الجميع بابتسامة مهذبة :

ـ سيكون طريقي طويلا بالهناء والعافيه •

واعتدل لكي يودع نائب الرئيس ، وأجابه هـذا الأخير بأن عانقـه بقسوة أتاحت للجميع التحقق من هزال الجنرال وضعفه ، وإلى أي حد كان مضطربا وحائرا ساعة الوداع ثم صافح من جديد يد كل من المدعوين ، وطبع قبلة مرة أخرى على أيدي السيدات • واقترح عليه البعض أن ينتظر حتى يصفو الجو رغم أن الجميع كانوا يعرفون ، مثله تماما ، إن الجو لن يصفو قبل نهاية القرن ، ومع ذلك فان رغبتـه في الرحيل بأسرع ما يمكن كانت واضحة بحيث ان الرغبة في تأخيره كانت تبدو كأنها وقاحة • وقاده صاحب البيت حتى الاسطبلات ، تحت رذاذ المطر غير المنظور بالحديقة ، وحاول أن يساعده بأن أمسكه من ذراعه بأطراف أصابعه ، كمـا لو كان من زجاج • وأدهشه نشاط التـوتر الذي يسري تحت بشرته ، كتيار خفي ليس له أية علاقة بضعف جسده • وكان ينتظره مندوبون من الحكومة ومن الدبلوماسيين ومن القوى العسكرية ، وهم يغوصون في الوحل حتى كواحلهم ، وثيابهم مبتلة من المطر لكي يرافقوه في اليوم الأول من رحيله • ومع ذلك فلم يكن أحد يعرف بالتأكيد من منهم يرافقه بدافـع

الصداقة ، ومن منهم بدافع حمايته ، ومن يريد أن يتأكد انه راحل حقا هذه المرة ٠

كانت البغلة التى احتجزوها له أحسن واحدة فى قطيع من الدواب أهداه تاجر أسباني للحكومة نظير الغاء محاكمته كلص للمواشي ٠ وكان الجنرال قد وضع احدى قدميه فى الركاب الذى قدمه له السائس عندما ناداه وزير الحرب والبحرية قائلا : « يا صاحب الفخامة » فتجمد مكانه واحدى قدميه في الركاب فى حين كان يمسك السرج بيديه الاثنتين ٠ قال له الوزير :

ـ ابق وقم بتضحية أخيرة لانقاذ الوطن ٠

أجابه : كلا يا هيران ٠ لم يعد لى وطن أضحى فى سبيله ٠

تلك كانت النهاية ، فقد كان الجنرال سيمون جوزيه آنطونيودى لا سنتيسيما ترينيداد بوليفار بالاسيوس يرحل الى الأبد ٠ انتزع من سيطرة اسبانيا امبراطورية اكبر من قارة آوروبا بخمس مرات ، وأدار حربا طوال عشرين سنة لكى يحررها ويوحدها ، وحكمها فى حزم حتى الاسبوع السابق ٠ ولكنه في ساعة الرحيل لم يحمل معه ، حتى العزاء بأن هناك من يصدقه ٠ والوحيد الذى كان من الوضوح لكى يعرف انه راحل حقا وأين يذهب هو الدبلوماسى الانجليزى الذى آرسل تقريرا رسميا لحكومته يقول فيه : « ان الوقت المتبقى له سيكفيه بالكاد لكى يبلغ قبره » ٠

كان اليوم الأول أشد الأيام قسوة وصعوبة ، وقد كان من الممكن أن تكون كذلك لرجل أقل منه علة ، لأن مزاجه كان قد عكره العداء الكامن الذى أحس به في شوارع سانتا فى صباح يوم الرحيل • وكان النهار قد بدأ يطلع بالكاد تحت الرذاذ ، ولم يلتق فى طريقه الا ببعض الأبقار الضالة ، ولكن كان يكمن فى الجو بعض أعدائه • ورغم احتياط الحكومة التى أصدرت أمرها بمرافقته عبر الشوارع الأقل ازدحاما ، فان الجنرال استطاع أن يرى بعض عبارات السباب منقوشة على جدران الأديرة •

وكان جوزيه بالاسيوس يتقدم بجواده بجواره ، مرتديا، كما يفعل دائما ، وحتى وسط أشد المعارك احتداما زيه الرسمى ، وشبك فى ربطة عنقه الحريرية دبوسا من الياقوت الأصفر ، وقفازه الجلدى وصديره الديباج ، حيث تتشابك به سلسلتا ساعتى الجيب المتجانستين ، وطاقم دابته من فضة بوتوسوف ومهمازيه الذهبيين ، وكل ذلك سبب كان يجعل أكثر قرى الانديز تخلط بينه وبين الرئيس • ومع ذلك فان العناية الكبيرة التى كان يلبى بها أقل رغبات سيده ، تجعل هذا الخطأ غير مقبول • كان يعرفه ويحبه بحيث تألم من أعماقه من هذا الوداع المتهرب من المدينة التى كان من عادتها أن تتحول الى عيد وطنى لمجرد الاعلان عن وصوله ، فعندما عاد منذ أقل من ثلاث سنوات من حروب الجنوب تغطيه هالة الأمجاد التى لم يحصل عليها أبدا أى أمريكى ، ميتا أو على قيد الحياة • استقبل استقبالا طبيعيا سجله التاريخ ، ثم ان الناس فى ذلك الوقت كانوا يتعلقون فى لجام جواده ويوقفونه فى الشارع لكى يعرضوا عليه شكاواهم من الخدمات

العامة أو من الضرائب ولكي يلتمسوا بعض المزايا ، او لمجرد الغرض من الاقتراب من بهاء عظمته · وكان يولى شكاواهم نفس الاهتمام الذى يوليه الى اخطر شئون الجمهوريه ، وكان يعرف المشاكل المنزلية لكل واحد منهم ، أو أحواله الخاصة او حالته الصحية ، وكل من يتكلم معه كان يشعر بأنه شاركه لحظة ، مباهج السلطة :

لم يكن بالنسبة لأى أحد نفس الشخص ، وكذلك لم تكن المدينة هي تلك المدينة الصامتة التي يغادرها الى الأبد بحرص المستبعد · لم يشعر في أى مكان أنه غريب كما شعر بذلك في تلك الشوارع القارسة البرد ببيوتها المتجانسة وأسطحها السمراء وحدائقها الخاصة العابقة بروائح الزهور ، حيث كانت تنمو ، من يوم لآخر ، طائفة ريفية أساليبها المتصنعة ولغتها القشتالية تعمل على اخفاء الأمور أكثر من اظهارها · ومهما يكن ، ورغم أن ذلك قد بدا له احدى دعابات التخيل . فقد كانت هى نفس المدينة ذات السحب والرياح الباردة التى اختارها حتى قبل أن يعرفها لكي يبنى فيها مجده ، والتى أحبها أكثر من أية مدينة أخرى ، وتمثلها كمركز وسبب لحياته ، وكعاصمة لنصف الدنيا ·

وفي ساعة تسديد الحسابات ، بدا أنه أول من فوجيء بزوال خطوته · وكانت الحكومة قد أقامت حراسا خفيين ، حتى في الأماكن الأقل خطرا ، فلم تظهر أمامه عصابات الأوباش الغاضبة التى أعدمت بالأمس تمثالا يمثله · ولكن أثناء طوال الرحلة سمعت صرخة واحدة «أيها السجق» والانسان الوحيد الذى رثا له كانت امرأة من نساء الشوارع قالت له وهو يمر بها : ليحفظك الله أيها الشبح ·

وبدا أن أحدا لم يسمعها ، وغرق المارشال فى أفكار كئيبة . واستمر يتقدم ، غريبا عن العالم ، حتى غادر السهل المتألق · وفى « الأركان الأربعة » حيث يمتد الطريق المبلط

كانت مانويلا ساينز تنتظر وحدها ، فوق صهوة جوادها ، مرور الوفد ، وأرسلت له من بعيد ، بيدها وداعا آخيرا فأجابها بنفس الحركة وتابع سيره · ولم يكن مقدرا أن يرى كل منهما الآخر بعد ذلك ·

وانقطع الرذاذ بعد ذلك بقليل ، وغدت السماء بلون ازرق ساطع ، وبقى بركانان يكسوهما الثلوج هامدين فى الافق بقية اليوم · ولكن هذه المرة لم ينم وجهه عن حبه للطبيعة . ولم يهتم بالقرى التي يجتازونها على مهل ، ولا على اشارات الوداع التي يوجهونها اليه أثناء مروره ، دون أن يعرفهم · ومع ذلك فان الأمر الذى بدا غريبا جدا لمرافقيه هو أنه لم يلق حتى ولا نظرة حنو واحدة للجياد الرائعة فى المراعى العديدة بالسهل ، وهى التى طالما قال انها هى الصورة التى يحبها آكثر من أى شىء آخر فى الدنيا ·

وفى قرية فاكاتاتيفا التي مروا بها فى اول مرة ، صرف الجنرال فرقته المتطوعة ، واستأنف الرحلة مع حاشيته ، وكانت مكونة من خمسة رجال غير جوزيه بالاسيوس ، وهم الجنرال جوزيه ماريا كارينو الذى بترت ذراعه اليمنى على أثر جرح أثناء الحرب ، وحارسه الايرلندى الكولونل بلفورد هنتون ويلسون ، ابن سير روبيرت ويلسون ، الجنرال المحنك الذى اشترك فى كل الحروب الأوروبية تقريبا ، وفرنانبدو ، حارسه وسكرتيره والحامل لرتبة ملازم ، ابن أخيه الأكبر الذى لقى حتفه غرقا فى سفينته أثناء قيام الجمهورية الأولى . والكابتن أندريه ايبارا ، قريبه وحارسه الذى بترت ذراعه بضربة سيف قبل ذلك بسنتين فى هجوم الخامس والعشرين من سبتمبر ، وآخيرا الكولونل جوزيه دى لاكروز باريدس الذى أثبت جدارته فى معارك الاستقلال العديدة · أما حرس الشرف فكان مكونا من مائة فارس ورام من أفضل الجنود الفنزويليين ·

وكان جوزيه بالاسيوس يعنى عناية خاصة بكلبين أخذوهما غنيمة أثناء حرب « أعالى بيرو » • وكانا جميلين وشجاعين قاما بالحراسة الليلية على قصر الرئاسة فى سانتا فى حتى الليلة التى قتل فيها رفيقان لهما طعنا بالخناجر ، وأثناء الرحلات اللا متناهية ، من ليما الى كيتو ، ومن كيتو الى سانتا في ومن سانتا فى الى كاراكاس ، وفى طريق العودة الى كيتو والى جوايا كيل قام الكلبان بحراسة الحمولة وهما يسيران بجوار قطار البهائم • وأثناء الرحلة الأخيرة من سانتا فى الى قرطاجنة قاما بنفس الحراسة على الرغم من أن الحمولة كانت تلك المرة أقل أهمية فضلا عن أن الجنود كانوا يتولون حراستها •

استيقظ الجنرال فى فاكاتاتيفا مقطبا ، ولكن مزاجه أخذ فى الاعتدال كلما تحسن الجو ، وازداد الضوء صفاء وهم يهبطون السهل ، عبر تلال متعرجة • واستولى القلق على حاشيته بسبب حالته البدنية ، وطلبت منه أن يستريح أكثر من مرة ، ولكنه فضل متابعة السير حتى الأراضى الدافئة من غير أن يتناول افطاره • وكان من عادته أن يقول ان دبيب جواده يدعوه الى التفكير • وقضى رحيله أياما وليالى وهو يستبدل الجواد أكثر من مرة حتى لا يرهقه • كانت ركبتاه ملتويتين • وكان يمشى كأولئك الذين ينامون بمهاميزهم • وتكون حول شرجه خشونة أشبه بجلد الموسى مما حدا الجميع على أن يكنوه « بذى الاست الحديدى » • كان قد قطع على صهوة جواده منذ أن بدأت حروب الاستقلال ثمانية عشر ألف فرسخ ، أى أكثر من الطواف حول الأرض مرتين • ولم يكذب أحد أبدا الاسطورة التى تقول انه كان ينام وهو فوق صهوة جواده •

وبعد الظهر ، وعندما بدءوا يحسون بالبخار الدافىء الذى يتصاعد من الوديان ، منحوا أنفسهم وقفة للاسترخاء فى رواق ارسالية • ووزعت عليهم الأم الرئيسة بنفسها هى

وجماعة من المترهبات بعض الحلوى الطازجة ، شراب الذرة الموشك على التخمير • وحين رأت الرئيسة الجنود يتصببون عرقا ، ويرقدون دون آى نظام أو عنـاية ، خطـر لهـا أن الكولونل ويلسون هو الضابط الذى يعلوهم فى الرتب ، ولعل ذلك لأنه كان أشقر ووسيما ، ويلبس زيا مزركشـا ، فلم تهتم الا به باحترام أنثوى تسبب فى تقولات خبيثة •

انتهز جوزيه بالاسيوس هذا الغموض ونصح سيده أن يستريح قليلا فى ظل أشجار الدير ، ودثره بغطاء من الصوف لكى يعرق ويتخلص من الحمى • وبقى الجنرال دون طعـام ودون نوم ، يستمع الى أغنيـات الحب التى تشـدو بهـا المترهبات • تصاحبهن راهبة عجوز بالعزف على القيثارة • وأخيرا ، قامت احـداهن فى الرواق وفى يدها قبعـة تجمع الصدقات للارسالية ، وقالت لها عازفة القيثارة : لا تطلبى شيئا من المريض ، ولكن المترهبة لم تصغ اليها ، وقال لهـا الجنرال دون أن ينظر اليها ، وعلى شفتيه ابتسامة مريرة : أنا الذى كان يجب أن يطلب الصـدقة يا بنيتى • وناولهـا ويلسون قطعة من النقود من ماله الخاص باسراف تسبب فى دعابة ودية من رئيسه اذ قال : هـل ترى كم يكلف المجـد يا كولونل ؟ وأبدى ويلسون دهشته فيما بعد ، لأن ما من أحد من الارسالية أو ممن التقى بهم فى الطريق لم يعرف أشـهر رجل فى الجمهوريات الجديدة • وكان هذا دون شك درسـا لهذا الأخيرة فقد قال : أنا لم أعد أنا •

أمضوا الليلة الثانية فى مصنع للدخان تحول الى فندق للمسافرين ، بجوار قرية جواديياس ، حيث كانوا ينتظرونه لظاهرة تعويض لم يشأ الجنرال تكبدها • وكان البيت فسيحا وقاتما ، والجواد يثير قلقا غريبا بسبب الخضرة المتوحشـة والنهر ذى المياه السوداء والصاخبة التى تنحدر نحو مزرعة الموز بالأراضى الساخنة فى دوى مدمر ، وكان الجنرال يعرف

المكان . وقد قال في أول مرة مر به : اذا كان ولابد من ان انصب كمينا خبيثا لأحد، فسوف أختار هذا المكان• وقد تجنب المرور به في مناسبات كثيرة لأنه كان يذكره بأرض بريكوس، وهي مكان كئيب على طريق كيتو ، بحيث ان أجرأ المسافرين كانوا يفضلون اجتنابه • وقد عسكر ذات يوم على بعد فرسخين منه رغم رأى الجميع لأنه لم يكن يظن أنه يستطيع تحمل مثل هـذه الكآبة • ولـكن المكان بدا له هذه المرة ، رغم التعب والحمى أكثر احتمالا من مأدبة العزاء التى ينتظـره فيهـا أصدقاؤه المنحوسون بجواديباس •

حين رآه صاحب الفندق يصل بهذه الحالة المثيرة للشفقه، عرض عليه أن يستدعى هنديا من نجع مجاور يعالج المرضى بمجرد أن يشم قميصا له مبللا بعرقه ، مهما كانت المسافة ، وحتى اذا لم يكن قد رآه أبدا • واستهزأ الجنرال بسذاجته ومنع أيا من رجاله من الاتصـال بذلك الهنـدى ، صـانع المعجزات ، فهو اذا كان لا يؤمن بالأطباء الذين يعتقد أنهم يتاجرون بآلام الغير ، فانه لا يمكن أن يأمل عـلى الأقل أن يسلم مصيره الى روحانى هندى • وأخيرا ، ولكى يؤيد فوق ذلك ، ازدراءه للعلوم الطبيـة رفض الغـرفة المريحـة التى أعدوها له ، والمناسبة لحالتـه الصـحية ، وأمر أن يعلقـوا أرجوحته فى الرواق الكبير المكشوف الذى يشرف على الوادى حيث سيقضى الليل معرضا لقسوة الندى •

لم يتناول طوال اليوم غير الشراب الساخن الذى يتناوله فى الصباح ، ولم يجلس الى المائدة الا لمجاملة ضباطه ورغم أنه يمتثل خيرا من أى أحد لقسوة الحياة فى الريف ، ورغم أنه يكاد يكون متقشفا من ناحية الطعام والشراب. فقد كان يحب ويعرف فنون القبو والمطبخ كأوروبى مرفه . وتعلم من الفرنسيين ، بدءا من رحلته الأولى ، عادة التحدث عن الطعام وهو يأكل ، فانه فى تلك الليلة شرب نصف كأس من النبيذ

الأحمر ، وذاق بدافع الفضول يخنى الصيد حتى يتحقق مما اذا كان الضباط يقولون ، هم وصاحب الفندق ، الحقيقة وهم يؤكدون ان اللحم المتفسفر له طعم الياسمين • ولم ينطلق بغير عبارتين طوال العشاء ، ولم ينطقهما بأكثر حماسا عن العبارات القلائل التى نطقها أثناء الرحيل ، ولكن قدر الجميع جهده لكى يخفف بملعقة صغيرة من النيات الطيبة خلا مصائبه العامة وسوء صحته ، ولم يتكلم عن السياسة أو يذكر أى شيء من أحداث يوم السبت ، كرجل لا يستطيع بعد سنوات من المهانة أن يتحمل حكة الحقد •

وقبل أن يفرغوا من الطعام استأذن لمغادرة المائدة ، وارتدى قميص النوم وطاقيته ، وتهالك فى أرجوحته وهو يرتجف من الحمى • كانت الليلة باردة ، وبدأ قمر كبير برتقالى اللون يرتفع بين التلال ، ولكنه لم يشعر بميل الى رؤيته • وعلى بعد خطوات من الرواق ، راح جنود حراسته يغنون أغانى شعبية معاصرة • وكانوا بناء على آمر قديم منه ينامون دائما على مقربة من غرفته كجحافل يوليوس قيصر ، حتى يستطيع أن يعرف أفكارهم وحالاتهم الذهنية من أحاديثهم الليلية ، وقد قادته جولات أرقه مرارا كثيرة حتى مضاجع الجنود ، ورأى أكثر من مرة النهار يطلع وهو يشاركهم غناءهم المطرى أحيانا والساخر أحيانا أخرى وهم يرتجلونها فى حماسهم • ولكنه لم يستطع تلك الليلة تحمل الغناء ، وأصدر أمره بأن يكفوا عن ذلك • وانضم اصطفاق النهر الأبدى بالصخور الى هذيانه ، وصاح :

ــ رباه ! **لو يستطيعون على الأقل ايقافه لحظة !**

ولكن لا • لم يعد يستطيع ايقاف جريان الأنهار • وأراد جوزيه بالاسيوس أن يهدئه بأن يتناول أحد الأقراص المسكنة التى يحملانها معهما فى حقيبة الأودية ، ولكنه رفض ذلك ، وكانت هذه أول مرة يسمع فيها الجنرال يقول : اننى تخليت

عن السلطة بسبب دواء مقييء أسيء وصفه ، ولست مستعدا أن أتخلى عن الحياة أيضا • وكان قد قال هـذا الكلام قبـل ذلك بسنوات عندما عالجه طبيب من حمى أصـابته بشراب زرنيخي أوشك أن يقتله بنوبة من الاسـهال ، ومنـذ ذلك الوقت كانت الأدوية الوحيدة التي يتناولها دون تردد قاصرة على الأقراص الملينة مرات كثيرة كل أسبوع ليعالج نفسه من الامساك العضال ، وغسيل معـدته بالسنا فى أشـد حالاته حدة •

وبعد منتصف الليل بقليل ، تمدد جوزيه بالاسيوس على الأرض الحجرية وقد هده التعب ، ونام ، وعندما استيقظ لم يكن الجنرال في أرجوحته ، وقد ترك على الأرض قميص نومه المبتل بالعرق • ولم يكن هـذا بغريب ، فقـد كان من عادته ان يغادر الفراش ويتمشى عاريا في الفجر لكى يغذى أرقه ، عندما لا يكون فى البيت أحد ، ولكنه فى تلك الليلة كان هناك الكثير من الأسباب التى تحثه على الخوف على حياته لأنه أمضى يوما سيئا • والجو البارد والرطب لم يكن ليسمح له بالتجول كما يشاء • وأخذ جوزيه بالاسيوس غطاء وأسرع يبحث عنه فى البيت المضاء بوميض القمر الأخضر ، ووجده راقدا على مقعد حجرى فى الرواق، كجثة هامدة فوق ضريح • وألقى الجنرال اليه نظرة واضحة لم يعد فيها أى أثر للحمى وقال :

ـ هذه مرة أخرى كليلة سان جوان دى بايارا ، ولـكن بدون رينا ماريانيريزا للأسف •

كان جوزيه بالاسيوس يعرف هذه الذكرى جيدا ، فقد كانت تتعلق باحدى ليالى يناير سنة ١٨٢٠ فى مكان ضـائع في فنزويلا ، وسـط سهول أبورا العاليـة ، حيث وصـلها الجنرال مع ألفى رجل من الجنود ، وكان قد سبق أن حرر من النير الاسبانى ثمانى عشرة ولاية ، بدءا من الأراضى القديمة

التى كانت تعرف باسم دائرة فنزويلا ورئاسة كيتو ، وأسس جمهورية كولومبيا وأقام نفسه رئيسا عليها وقائدا عاما لجيوشها • وكان آخر طموحاته أن يحقق الحلم الخيالى بانشاء أكبر أمة فى العالم : بلد واحد حر ومتحد من المكسيك حتى رأس هورن •

ومهما يكن فان حالته فى تلك الليلة لم تكن مناسبة للأحلام ، فقد تفشى وباء فجائى صعق البهائم وهى فى سيرها ، وترك فى السهل كمية نتنة من الخيول الميتة امتد طولها حتى أربعة عشر فرسخا ، ووهنت عزيمة العديد من الضباط ووجدوا عزاءهم فى التمرد ، وبلغ الأمر بالبعض منهم بالسخرية من تهديد الجنرال باعدام المذنبين رميا بالرصاص • وبدأ ألفان من الجنود ، يرتدون الأسمال ، وحفاة الأقدام وعزل من السلاح ويعانون من الجوع ولا يملكون أغطية يحتمون بها من برد السهول وقد أرهقتهم الحروب وأغلبهم مرضى ، بدءوا يهربون بالجماعات • واذ رأى الجنرال نفسه لا يملك حلا منطقيا ، عرض تقديم مكافاة قدرها عشرة بيزوس للدوريات التى تلقى القبض وتسلم أحد زملائهم الهاربين ، وأن يعدم هذا الأخير رميا بالرصاص دون التحقق فى أسبابه •

وكانت الحياة قد آتاحت ما يكفى من الأسباب لكى يعرف أن أية هزيمة لن تكون الأخيرة ، فمنذ ما يقرب من سنتين وهو ضائع ، هو وجيشه فى غابات أورنيوك ، اضطر أن يأمر بأكل الخيول اشفاقا من أن يلتهم الجنود بعضهم بعضا • وفى ذلك الوقت ، طبقا لشهادة ضابط من الفرقة البريطانية ، كانت له سحنة غريبة لأحد رجال العصابات ، فقدكان يضع فوق رأسه خوذة جندى روسى ، ويلبس حذاء من القماش مما يلبسه البغالون، وسترة زرقاء ، بزخارف حمراء وأزرار ذهبية ويرفع رمحا فى طرفه راية قرصان سوداء

مرسوم عليها رأس ميت ، وساقاه معقودتان فوق شعار بالحروف الحمراء « الحرية أو الموت » ٠

وكانت ثيابه ليلة سان جرمان دى بايارا أقل رثاثة ، ولكن موقفه لم يكن بأفضل أبدا ٠ كان بالذات الصورة للحالة التى عليها فرقته والمأساة لجيش التحرير كله ، الذى خرج مرارا عديدة عظيما من آسوأ الهزائم ، ومع ذلك فقد كان على وشك أن ينوء تحت ثقل العديد من الانتصارات ٠ وعلى العكس فان الجنرال الاسبانى بابلو موريللو كان مايزال يسيطر على قطاعات كبيرة من غرب فنزويلا ، وضاعف قواته فى الجبال مستخدما كل الوسائل لاخضاع الوطنيين واعادة النظام الاستعمارى ٠

وأمام هذا الوضع الدنيوى كان الجنرال يجتر أرقه وهو يمشى عاريا تماما فى الغرف الشاغرة بالبيت العتيق بالمزرعة ، وقد جمل سنا القمر وجهه ٠ وكانت غالبية الخيول التى ماتت بالأمس قد أحرقت بعيدا عن البيت ، ولكن رائحة العفن كانت لا تزال تفوح بالجو بحيث لم تكن تطاق ٠ وانقطع الجنود عن الغناء منذ أيام الاسبوع الماضى المميتة ، ولم يشعر هو نفسه بأنه قادر على أن يمنع الحراس من النوم من فرط الجوع ٠ وفجأة ، فى آخر أحد الأروقة المطلة على السهول الواسعة الزرقاء رأى رينا ماريا لويزا جالسة على الدرج ٠ كانت خلاسية حسناء ذات وجه جميل وفى زهرة العمر ، وتدخن سيجارا طويلا ، وتتدثر حتى قدميها بوشاح مطرز بالزهور ، وتملكها الخوف حين رأته وواجهته وهى تعقد سبابتها وقالت :

ــ أمبعوث أنت من الله أم من الشيطان ؟ ٠٠٠ ماذا تريد ؟

أجاب : أريدك أنت ٠

ابتسمت، وسوف يتذكر ومضة أسنانها فى ضوء القمر ٠ وضمها اليه بكل قواه مانعا اياها من اتيان أيه حركة . وراح يمطرها بقبلاته الرقيقة فوق جبينها وعينيها وعنقها حتى تمكن من ترويضها ٠ وعندئذ خلع عنها وشاحها . وما كاد يفعل حتى انبهرت انفاسه ، فقد كانت هى الاخرى عاريه ، لان جدتها التى تنام معها فى نفس الغرفة كانت تخفى عنها ثيابها حتى لا تنهض وتخرج لكى تدخن وهى لا تدرى انها تهرب فى الفجر متدثرة بالوشاح ٠ وحملها الجنرال بين ذراعيه حتى أرجوحته دون أن يكف عن قبلاته الناجعة ٠ ومنحت نفسها له ، لا عن رغبة ولا عن حب وانما عن خوف ٠ كانت عذراء ، وما أن استعادت سيطرتها على قلبها حتى قالت :

ـ أنا أمة يا سيدى ٠

قال : لم تعودى كذلك ٠ لقد حررك الحب ٠

وفى الصباح اشتراها من صاحب العزبة بمائة بيزوس دفعها من ماله الخاص ، وحررها دون آية شروط ، ولم يقاوم قبل رحيله من رغبته فى توريطها آمام الجميع ٠ كان فى الساحة الأخيرة للبيت ، ومعه جماعة من الضباط يمتطون دواب الحمولات ، وهى الوحيدة التى نجت من الوباء ، فى حين اجتمع فيلق آخر بقيادة اللواء جوزيه أنطونيو بايز ، أقبل بالأمس لوداعه ٠

استاذن الجنرال فى الانصراف بالقاء خطبة وجيزة خفف فيها من الناحية المأساوية للموقف، وهم بالرحيل عندما لمح رينا ماريا لويزا فى وضعها الجديد كامرأة حرة يرعاها الجميع ٠ كانت جميلة ومتألقة تحت سماء السهل ٠ وكانت قد اغتسلت وارتدت ثيابا بيضاء ، والجونلة مزدانة بدانتلا

منشاة والقميص مشدود فوق صدرها على طريقة الجوارى ، وسالها فى رفق :

ـ **هل تاتين معنا أم تبقين •**

أجابته بضحكة ساحرة : بل سأبقى يا سيدى •

قوبل ردها بقهقهة جماعية • وعندئذ قام صاحب البيت ، وهو اسبانى منضو منذ اللحظة الاولى لقضية الاستقلال ، وصديق قديم للجنرال ، بالقاء الكيس الصغير الذى يحتوى على المائة بيزوس اليه وهو يتلوى من الضحك ، فتلقفه الجنرال فى حين قال له الرجل :

ـ **احتفظ بها من أجل القضية يا صاحب الفخامه ، ومهما يكن فان الجميلة قد أصبحت حرة •**

انفجر الجنرال جوزيه أنطونيو بايز ، الذى تنسجم ملامحه البطولية مع قميصه المرقع بشتى الألوان ضاحكا فى صوت مرتفع وقال :

ـ **أرأيت يا جنرال ••• هذا هو ما يجنيه المحررون •**

وافقه الجنرال ، وودع الجميع باشارة دائرية من يده ، وودع أخيرا رينا ماريا لويزا وداع الخاسر الطيب ، ولم يعرف بعد ذلك شيئا عنها أبدا • وتظل الذكريات باقية فى ذهن جوزيه بالاسيوس ، فلم تمر سنة كاملة حتى قال له الجنرال انه رأى بعين الخيال أنه يعيش تلك الليلة من جديد ولكن من غير ظهور رينا ماريا لويزا الفاتنة • وكانت تلك الليلة ليلة هزيمة •

وفى الساعة الخامسة ، عندما أتاه جوزيه بالاسيوس بأول قدح من شرابه المعتاد ، وجده نائما مفتوح العينين • وحاول الجنرال أن ينهض فى حماس كبير بحيث أوشك أن يقع على ظهره ، وأصابته نوبة من سعال حاد • و بقى جالسا

فى أرجوحته وهو يدفن رأسه بين يديه أثناء سعاله حتى انتهت النوبة . وعندئذ بدأ يحتسى الشراب الذى يتصاعد منه الدخان . وتحسنت حالته بدءا من الجرعة الأولى وقال :

ـ حلمت طول الليل بكاساندر .

كان هذا هو الاسم الذى يطلقه سرا على الجنرال الغرناطى فرانسيسكو دى بول سانتاندر ، صديقه الحميم فيما سبق . واكبر معارضيه فى كل الأوقات ، وقائد اركانه منذ بداية الحرب ، ورئيس كولومبيا أثناء الحروب الضارية لتحرير كيتو وبيرو وانشاء بوليفيا . وقد كان فعالا وشجاعا من الناحية التاريخية أكثر منه موهبة واستعدادا ، ولكن كان به ميل الى القسوة شيئا ما . غير أن مزاياه وثقافته الأكاديمية هما اللتان حققتا مجده . كان دون مراء الرجل الثانى فى الاستقلال ، والرجل الأول فى وضع التشريعات القانونية للجمهورية التى نفخ فيها للأبد روحه المدققة والمحافظة .

وفى احدى المرات العديدة التى فكر فيها فى الاستقالة قال لسانتاندر انه سيتخلى له عن الرئاسة بكل هدوء . « لأننى أتركها لك أنت ، فما أنت الا أنا ، بل لعلك أفضل منى » . ولم يول أى رجل آخر ، سواء بالعقل أو بقوة الأمور مثل الثقة التى أولاه بها ، وكرمه بأن منحه لقب « رجل القوانين » . ومع ذلك فان الذى استحق كل ذلك كان منفيا فى باريس منذ سنتين بسبب اشتراكه فى مؤامرة لاغتياله ، وهى مؤامرة لم تتأكد قط .

جرت الأمور هكذا . ففى الاربعاء الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٢٨ ، وفى نحو نصف الليل اقتحم اثنا عشر مدنيا وستة وعشرون عسكريا بوابة قصر الرئاسة فى سانتا فى ، وذبحوا اثنين من كلاب الحراسة الضارية ، وجرحوا كثيرا من الحراس ، وأصابوا الكابتن أندريس ايبارا بجرح خطير فى ذراعه وقتلوا برصاصة الكولونيل

الاسكتلندى ويليام فرجسون ، عضو الفرقة البريطانيـة ، وملازم الرئيس الذى قال عنه الجنرال انه شجاع كقيصر . وصـعدوا الى غرفة الرئيس وهم يهتفون بحيـاة الحـرية ويصيحون بالموت للطاغية .

وقد برر المتآمرون محاولة الاغتيال بسـبب السـلطات الواسعة المتسمة بالروح الدكتاتورية الواضحة التى اضطلع بها الجنرال قبل ذلك بثـلاثة شـهور لـكى يعيق انتصـار السانتاندريين فى معاهدة أوكانا ، فقد ألغيت صـلاحيات نائب رئيس الجمهورية التى مارسها سانتاندر طوال سـبع سنوات . واطلع سانتاندر صديقا له على ذلك بأن قال له : « يسرنى أننى دفنت تحت أنقاض دستور سنة ١٨٢١ وكان فى السادسة والثـلاثين من عمره عنـدئذ . وقد عين وزيرا مفوضا فى واشنطن ، ولكنه أجل انتقاله الى واشنطن ثلاث مرات ، ربما على أمل أن تنجح المؤامرة .

وكان الجنرال ومانويلا ساينز قد احتفـلا بالكاد بليلة مصالحة وأمضيا نهاية الأسبوع فى قرية سواشا ، على بعـد فرسخين ونصف ، وعادا يوم الاثنين فى عربتين منفصلتين بعد مشادة غرامية أكثر احتداما من المشادات الأخرى ، لأنه كان يصم أذنيه عن التحذيرات من مؤامرة اغتيال يتـكلم عنها الجميع ، وهو وحده لا يصدقها . وقاومت حتى الساعة التاسعة مساء ، وهى فى بيتها ، الرسـائل الملحة التى كان يبعث بها اليها من قصر سان كارلوس، على الرصيف المقابل. وبعد ثلاث رسائل كل منها أكثر الحاحا عن الأخـرى لبست خفا واقيا من المطر فوق حذائها ، وغطت رأسـها بوشـاح واجتازت الشارع الذى أغرقه المطر . ووجدته يعـوم عـلى ظهره فى مياه البانيو المعطرة بمعاونة جوزيه بالاسيوس . واذا كانت لم تظنه ميتا فذلك لأنها كثيرا ما رأته يفكر وهو فى هذه الحالة من الرضا . وعرفها من وقع خطوتها وكلمها دون أن يفتح عينيه :

ـ سوف يكون هناك تمرد •

ولم تستطع سخريته اخفاء حفيظته •

قالت : لك تهانئي ، بل قد يكون هناك عشر مؤامرات لأنك تسمع جيدا التحذيرات •

أجابها : انني لا أومن الا بالتفاؤلات •

كان يجين لنفسه هـذه اللعبة لأن رئيس أركانه الذى أطلع المتآمرين على كلمة السر الليلية حتى يستطيعوا خداع حرس الليل ، كان قد أقسم له بشرفه عـلى أن المـؤامرة قد فشلت • وخرج من البانيو والقلب مسرور وقال : لا تبال • يبدو أن هؤلاء الجبناء خوافون •

وكانا قد بدءا فوق الفراش مداعبـات الحب وهـو عار تماما وهى نصف عارية عندما سمعا الصيحات الأولى وطلقات الرصاص الأولى ودوى المدافع على ثكنـة الجنـود الملكية • وساعدته مانويلا على ارتداء ثيابه بكل سرعة ، وناولته الخف الواقى من المطر الذى كانت قد لبسته لأن الجنرال كان قد أعطى حذاءه للتلميع ، وعاونته على الهرب من الشرفة ومعه سيف ومسدس ، ولكن دون أية حماية من المطر الذى ينهمر • وما أن وجد نفسه فى الشـارع حتى شـهر سيفه عـلى شبح يتقدم وهو يصيح : من القادم ؟ كان رئيس خدمه ، وكان عائدا الى البيت منهارا لأنه علم أنهم قتلوا الجنرال ، وقرر أن يشاركه مصيره حتى النهاية ، واختفى معه داخل دغل ، تحت كوبرى كارمن ، على سواحل سان أوجسـتان ، الى أن انتهت الجنود الملكية من احباط الفتنة •

واستقبلت مانويلا بدهائها وشجاعتها اللتين استخدمتهما فى مثل هـذه المواقف التاريخيـة المهـاجمين الذين اقتحموا الباب وسـألوها عن الرئيس ، وأجابتهم بأنه كان فى قاعة

المجلس . وسألوها لماذا نافذة الشرفة مفتوحة فى هذه الليلة من الشتاء ، فأجابت بأنها فتحتها لكى تعرف سبب الضجة التى سمعتها فى الشارع . وسألوها لماذا الفراش دافىء فأجابت بأنها استلقت عليه وهى بملابسها فى انتظار الجنرال . وبينما كانت تكتسب الوقت هكذا بأجوبتها القصيرة كانت تدخن سيجارا عاديا وهى تنفث أنفاسا كثيفة من الدخان ، لكى تغطى على رائحة الكولونيا التى لا تزال تعبق بالغرفة .

قضت محكمة رأسها الجنرال رافائيل اوردانيتا بان الجنرال سانتاندر هو المحرض السرى للمؤامرة ، وحكمت عليه بالموت . واعترف أعداؤه بأنه يستحق هذا الحكم كل الاستحقاق ، ليس بسبب ذنبه فى محاولة الاغتيال وانما لوقاحته لأنه كان أول من ظهر فى الميدان الكبير لكى يحتفل بنجاة الرئيس ويعانقه . وكان هذا الأخير يمتطى جوادا تحت المطر ، بدون قميص وسترته ممزقة ومبتلة ، وسط هتافات جنوده والجمهور الصغير الذى أسرع ، جماعات من النجوع للمطالبة باعدام القتلة . وكتب الجنرال الى سوكريه يقول : « سوف نجازى كل المتآمرين . سانتاندر هو المذنب الرئيسى ولكنه الأكثر حظا لأن كرمى سيحميه» . والواقع أنه استخدم اختصاصاته وخفف حكم الموت الى النفى بباريس . وعلى العكس رموا بالرصاص بدون أدلة كافية الأميرال جوزيه برودنشيو باديلا ، وكان موجودا فى سجن سانتا فى لاشتراكه فى عصيان فاشل فى قرطاجنه .

لم يكن جوزيه بالاسيوس يعرف ، عندما يحلم سيده بالجنرال سانتاندر متى تكون أحلامه حقيقة ومتى تكون خيالية ، فقد روى له ذات يوم ، فى جواياكيل أنه حلم بكتاب مفتوح فوق بطنه المستديرة ، ولكنه بدلا من أن يقرأ كان ينتزع الصفحة اثر الصفحة ويأكلها ويتلذذ بمضغها كما تفعل الماعز . وحلم مرة أخرى فى كوكوتا بأنه رآه مغطى بالصراصير من أخمص قدميه حتى قمة رأسه ، واستيقظ

مرة أخرى فى بيت ريفى بمونسيرات بسانتا فى مرغوبا لأنه حلم بأنه كان يتناول الافطار مع الجنرال سانتاندر ، وان هذا الأخير انتزع عينيه من محجريهما ووضعهما على المائدة لأنهما تعوقانه عن الآكل بحيث انه فى الفجر ، بالقرب من جوادياس عنـدما قال له الجنرال بأنه حلـم مـرة أخـرى بسانتاندر لم يسأله جوزيه بالاسيوس حتى عن موضـوع الحلم وانما حاول أن يواسيه بأن يذكره الحقيقة قائلا :

ـ ان البحر كله بيننا وبينه •

أوقفه على الفور بنظرة متألقة وقال : كلا ، اننى واثق ان هذا الغبى جواكين موسكيرا سيدعه يعود •

أزعجته هذه الفكرة منذ عودته الى البلد عندما فكر فى أن التخلى عن السلطة مسألة شرف وقال لجوزيه بالاسيوس : اننى أفضل النفى أو الموت على عار ترك مجدى بين أيدى كلبه سان بارثولوميه • ومع ذلك فان الترياق كان يحمـل فيه سمه بالذات لأنه كلما اقترب من القرار النهـائى زاد يقينه بأنهم سيستدعون الجنرال سانتاندر من منفاه ، فهو أكبر الضباط رتبة وشـهرة فى هـذا الوكر من الخاملين ، وقال :

ـ انه وغد حقا •

اختفت الحمى تماما ، وأحس بأنه عـلى ما يرام بحيث طلب ريشة وورقا من جوزيه بالاسيوس ، ثم وضع نظارته على عينيه وكتب بيده بالذات رسالة من ستة سـطور لمانويلا ساينز ، وهو تصرف كان لابد أن يبدو غريبا لرجل معتاد على مثل هذه التصرفات كجوزيه بالاسـيوس ، ثم انهـا تصرفات لا يمكن استيعابها الا كفأل أو ايحاء فجائى لا يطاق ، لأنه كان يتعارض مع تصميمه الذى اتخذه يوم الجمعة المـاضى بأن لا يكتب بعد خطابا واحدا طوال حياته ، كما أنه كان

يناقض عادته في ايقاظ سكرتيره في أية ساعة لارسال البريد المتأخر أو لاملاء تصريح او لتنسيق الافكار المختلفة التي واتته أثناء تأملاته الليلية • ولابد أن ذلك كان يبدو غريبا كذلك لأن الرسالة لم تكن من الضرورة العاجلة ، ولم تضف شيئا الى نصيحة زودها بها لحظة الوداع ، أي عبارة بالأحرى غامضة : « توخي الحذر فيما تفعلين والا فانك بضياعك تضيعيننا معا » ، كتبها بكل سرعة ، كما لو انه لم يكن يفكر فيها ، وفي النهاية استأنف اهتزازه في الأرجوحة وهو مستغرق في أفكاره والرسالة في يده • وتنهد فجأة وقال :

ـ ان السلطة الكبيرة تكمن في قوة الحب التي لا تقهر • من قال هذا ؟

أجابه جوزيه بالاسيوس : لا أحد •

لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة . ورفض أن يتعلم متذرعا بحجة بسيطة وهي أنه ليست هناك أية حكمة اكبر من حكمة الحمير • ولكنه ، في المقابل ، كان قمينا بان يتذكر أية عبارة يسمعها صدفة واتفاقا ، وهو كم يتذكر تلك العبارة ، وقال الجنرال :

ـ أنا الذي أقول ذلك اذن • ولكننا سنزعم أن الذي قالها هو الجنرال سوكريه •

لم يكن هناك من يتلاءم مع هذه الأزمات التي يتعرض لها الجنرال أكثر من فرناندو ، فقد كان أكثر سكرتيريه خدمة وصبرا رغم أنه لم يكن أكثرهم تألقا • وكان يواجه برباطة جأش محنة جور أوقات العمل أو سخط أرق الجنرال، فقد كان يوقظه في أي وقت لكي يقرأ له كتابا لا أهمية له . أو لكي يملي عليه ملحوظات ارتجالية وعاجلة لا يلبث أن يلقى بها في سلة المهملات في صباح اليوم التالي • ولم ينجب

الجنرال أولادا من ليالى حبـه الـكثيرة (رغم أنه كان يملك الدليل عـلى أنه ليس عقيما) ، وعنـدما مات أخوه تكفـل بفرناندو ، وأرسله بخطابات توصية الى الأكاديمية العسكرية بجورج تاون ، حيث عبر له الجنرال لافاييت عن مشـاعر الاعجاب والاحترام التى يكنها نحو عمه . وأقام بعد ذلك فى كلية جيفرسون بشارلوتفيـل ، وفى جامعـة فيرجينيا ، وهو لم يكن الخلف الذى تمناه الجنرال كثيرا لأن الدراسات الأكاديميـة كانت تثير ملله ، وكان يسـتبدلها ، مسرورا ، بالحيـاة فى الهـواء الطلق ، وبالفنـون المتعلقة بفـلاحة البساتين . واستدعاه الجنرال الى سانتا فى بعد أن انتهى من دراسته ، واكتشف فيه على الفور مزاياه السكرتارية ، من ناحية ، بسبب خطه الجميل وتمكنه من اللغة الانجليزية ، قراءة وكتابة ، ومن ناحية أخرى ، لأنه الوحيد الذى يستطيع ابتكار أساليب الراوى الذى يشد الاهتمام ، وأنه عندما كان يقرأ بصوت عال ، يرتجل عند المناسبة أحداثا جريئة لـكى يجمل بها الفقرات المملة . وكغيره ، زالت حظـوته عنـد الجنرال ذات مرة ، عنـدما نسب الى شـيشرون عبـارة لديموستين ، ذكرها عمه بعد ذلك فى احدى خطبه . وكان الجنرال ، بكونه رئيسا للجمهـورية أشـد قسـوة معـه عن الآخرين ، ولكنه سامحه قبل نهاية العقاب .

أصبح الجنرال مرة أخرى لا يقهر ، ودخل من الشارع الرئيسى مكشوف الصدر وعلى رأسه وشاح غجرى لكى يجفف به عرقه ، يحيى الحشود بقبعته وسـط الهتـافات وطلقات الصواريخ ورنين أجراس الكنيسة التى تغطى على الموسيقى ، وهو ممتط بغلة تسير خببا فى مرح حزم الموكب من كل ادعاء احتفالى . كان البيت الوحيد الذى ظلت نوافذه مغلقة هـو كلية الراهبات ، وفى نفس ذلك الأصيل سرت اشاعة بأنهم منعوا الطلبة من الاشتراك فى الاحتفال بالاستقبال . ولكنه نصح الذين رددوا هذا الأمر ألا يصدقوا اشاعات الذين .

كان جوزيه بالاسيوس قد أعطى بالأمس القميص الذى تبلل بعرق الجنرال للغسيل • وقد عهد به مراسلته الى الجنود الذين هبطوا فى الفجر لكي يغسلوه في النهر • ولكن عند الأصيل لم يستطع أحد العثور عليه • وفى أثناء الرحلة الى جواديا س ، وفيما بعد ، أثناء الاحتفال تمكن جوزيه بالاسيوس من التأكد من أن صاحب الفندق أخذ القميص القذر لكي يظهر الهندى صاحب المعجزات مقدرته ، بحيث انه عندما عاد الجنرال أخبره جوزيه بخدعة صاحب الفندق موضحا له أنه لم يعد لديه غير قميص واحد وهو الذى يرتديه • وتقبل الجنرال الأمر باستسلام فلسفى وقال :

ـ ان الخرافات أشد تعنتا من الحب •

وقال جوزيه بالاسيوس : من الغريب ان الحمى قد زالت عنك منذ الأمس ، وقد يكون هذا الطبيب ساحرا حقا •

لم يسعف النطق الجنرال على الفور ، وغرق فى تفكير عميق وهو يتأجج فى أرجوحته على ايقاع أفكاره ، ثم قال : « صحيح انى لم أعد أشعر بصداع ، وليس فى فمى مرارة ، ولا أشعر بأننى سأقع من فوق برج » ولكنه ربت على ركبته فى النهاية ، ونهض فى شيء من التصحيح وقال :

ـ كفاك بلبلة لرأسى •

أتى خادمان بقدر كبير به ماء ساخن مملوء بأوراق معطرة ، وأعد جوزيه بالاسيوس حمام الليل ، معتقدا أن الجنرال سيأوى الى الفراش مبكرا بسبب تعب النهار • ولكن الماء برد بينما كان يملى خطابا لجابرييل كاماشو ، زوج ابنة أخته فالنثينا بالاسيوس ووكيله المعتمد فى كاراكاس المكلف ببيع مناجم نحاس فى آروا ورثها عن أجداده ، ولم يبد عليه أن لديه أية فكرة واضحة عن مستقبل تلك المناجم لأنه قال فى أحد سطور تلك الرسالة انه ذاهب الى كيراساو فى حين أن

كومانشو يهتم بتلك العملية كل الاهتمام ، وطلب منه في سطر آخر أن يكتب اليه في لندن طرف سير روبيرت ويلسون وأن يرسل صورة من خطابه الى مستر مكسويل هيسلوب في جامايكا حتى يتأكد من انه سيتلقي احدى الرسالتين اذا ما فقدت الأخرى •

كانت مناجم أروا بالنسبة للكثيرين ، وعلى الاخص بالنسبة لسكرتيريه تيها لنوبات الحمى فقد أولاها القليل من الاهتمام بحيث انها بقيت طوال سنوات في أيدى بعض المستغلين النفعيين، وتذكرها في اخر أيامه عندما بدأ يفتقر الى النقود ، ولكنه لم يتمكن من بيعها لشركة انجليزية لان مستندات الملكية لم تكن واضحة • وكان ذلك بداية قضية معقدة وخرافية امتدت حتى بعد موته بسنتين • وفى وسط الحروب والمعارك السياسية والأحقاد الشخصية لم يكن هناك من يسيء الظن به عندما يسمعه يقول « قضيتى » ، اذ لم تكن هناك غير قضية آروا •

والرسالة التى أملاها فى جواديا‌س لجابرييل كوماشو أوحت لابن أخيه أنهما لن يرحلا الى أوروبا طالما لا تحسم هذه القضية ، وقد علق فرناندو على ذلك فيما بعد وهو يلعب الورق مع الضباط وقال الكولونيل ويلسون عندئذ :

ــ اذن فلن نرحل أبدا • لقد بلغ الأمر بأبى الى حد أنه راح يتساءل اذا كان هذا النحاس موجودا حقا •

قال الكابتن اندريس ايبارا :

ــ اذا كان هناك من لم يره فلا يعنى هذا ان المناجم لا وجود لها •

قال الجنرال كارينو : بل هى موجودة ، فى مقاطعة فنزويلا •

وقال ويلسون محنقا : أما أنا فانني أتساءل اذا كانت فنزويلا موجودة حقا •

لم يكن باستطاعته أن يخفي استياءه ، فقد بلغ به الأمر الى حد الاعتقاد بأن الجنرال لا يحبه ، وانه لا يبقيه في حاشيته الا اكراما لأبيه الذى لن يفيه حقه من الشكر أبدا لدفاعه عن تحرير أميركا من البرلمان الانجليزى • وقد عرف من تطفل ملازم فرنسى أن الجنرال قد قال : « ان ويلسون بحاجة الى آن يقضي بعض الوقت فى مدرسة الصعوبات ، بل في مدرسة المحن والبؤس » ولم يستطع الكولونيل ويلسون التحقق من صحة ذلك ، ولكنه اعتبر على كل حال ان معركة واحدة من معاركه كانت من الكفاية لكى يشعر انه تخرج من تلك المدارس الثلاث • كان عمره ستة وثلاثين عاما ، ومرت ثماني سنوات منذ أن أرسله أبوه لخدمة الجنرال ، بعد أن أنهى دراسته في وستمنستر وفى ساند هارست • كان ملازم الجنرال فى معركة جونين ، وهو الذى حمل من شوكيزاكا مسودة الدستور البوليفى على ظهر بغلة عبر طريق ساحلى يمتد طوال ثلاثمائة وستين فرنسخا • وقال له الجنرال عندئذ انه يجب أن يكون فى لاباز بعد واحد وعشرين يوما على الأكثر • وأدى ويلسون التحية العسكرية على أثر ذلك وقال : «سأكون هناك بعد عشرين يوما يا صاحب الفخامة» • ووصل الى لاباز بعد تسعة عشر يوما •

صمم أن يعود الى أوروبا مع الجنرال • ولكن كان كل يوم يزيد اعتقاده بأن هذا الأخير سيجد دائما سببا مختلفا لكى يؤجل رحيله • وحقيقة أنه تحدث مرة أخرى عن مناجم أروا التى لم تعد مبررا لأى شىء منذ سنتين ، كانت بالنسبة لويلسون دليلا محبطا •

كان جوزيه بالاسيوس قد سخن الماء بعد املاء الخطاب • ولكن الجنرال لم يستحم ، وراح يدور فى الغرفة وهو ينشد

بصوت سمعه كل من فى البيت قصائد من وضعه كان جوزيه بالاسيوس يعرفها وحده . ثم أخذ يذرع الرواق عدة مرات. حيث يلعب ضباطه الورق . وكان هو الآخر قد لعب معهم فيما سبق . وتوقف لحظة لكى ينظر الى اللعب من فوق كتف كل منهم ويستنتج نتائجه الشخصية عن سير اللعب ثم تابع جولاته وهو يقول :

ـ لا أدرى كيف تضيعون الوقت فى لعبة مملة كهذه .

ومع ذلك ، وبعد ذهاب وعودة بضع مرات ، لم يستطع مقاومة الاغراء ، وطلب من الملازم ايبارا أن يتخلى عن مكانه . كان بطبعه العدوانى وخسارته فى اللعب لا يتمتع بصبر اللاعبين . ولكنه كان ذكيا وسريعا ويعرف كيف يتنازل الى مستوى مرؤوسيه . ولعب ستة أدوار مع الجنرال كارينو كشريك له ، وخسرها كلها . وألقى الورق فوق المنضدة وقال :

ـ هذه لعبة ثانية . لنر الآن من الذى يجرؤ على أن يشاركنى لعبة « التريسيللا » ؟

وتحدوه ، وربح ثلاثة أدوار متتالية ، وتملكه المرح وحاول أن يستهزىء بطريقة الكولونيل ويلسون فى اللعب . وتقبل ويلسون الأمر ، ولكنه انتهز حماس الجنرال وغلبه . ولم يعد يخسر بعد ذلك . وتوتر الجنرال وامتقعت شفتاه وتصلبتا ، وغارت عيناه ، وارتسمت فيهما ضراوتهما السابقة ولم ينطق بكلمة ، ولكن منعه سعال شديدة من التركيز ، وأوقف اللعب بعد منتصف الليل قائلا :

ـ لقد ضايقتنى الريح طوال الليل .

نقلوا المنضدة الى مكان بعيد عن تيارات الهواء ، ولكنه استمر يخسر ، وطلب أن يسكتوا الزمارين الذين تسمع

أصواتهم وهم يحتفلون عن كثب · ولكن المزامير ظلت تسمع وهي تنطى على أصوات الصراصير ، وغير مكانه ، وطلب وسادة فوق مقعده لكي يعلو كثيرا ويحس بالراحة · واحتسى قدحا من التليو الساخن خفف من سعاله بعض الشيء · ولعب عدة أدوار وهو يمشي من أول الرواق الى آخره ، ولكنه ظل يخسر · وراح ويلسون يحدجه بعينيه الصافيتين الضاريتين، بيد أن الجنرال لم يستطع مواجهته بعينيه قال :

ـ هذا الورق معلم ·

قال ويلسون : ولكنه ورقك يا سيدى الجنرال ·

كانت مجموعة الورق من مجموعاته بالفعل ، ولكنه فحصها مع ذلك ورقة ورقة ، وطلب تغييرها في النهاية · ولم يترك له ويلسون الوقت لكي يأخذ نفسه · وكفت الصراصير عن صرصرتها ، وخيم صمت طويل لا يشوشه الا نسمة رطبة حملت الى الرواق روائح الوادى الحادة · ثم ارتفع صياح ديك ثلاث مرات ، وقال ايبارا : هذا الديك مجنون فالساعة لم تتجاوز الثانية بعد · وقال الجنرال بصوت آمر دون أن تفارق عيناه الورق : ليبق كل مكانه بحق الله ·

لم يتنفس أحد · وكان الجنرال كارينو يتابع اللعب بقلق أكثر منه اهتماما ، وتذكر أطول ليلة مرت به في حياته منذ سنتين ، بينما كانوا ينتظرون في بوكارانجا نتائج مؤتمر لوكانا ، فقد بدءوا يلعبون الورق في الساعة التاسعة مساء وفرغوا منه في الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ، لان شركاء الجنرال كانوا قد اتفقوا على أن يتركوه يكسب ثلاث مباريات متتابعة · وخشي الجنرال كارنو من تجربة اضطرارية أخرى فأشار الى الكولونل ويلسون لكي يخسر · ولكن الكولونل ويلسون لم يذعن ، وفيما بعد ، عندما طلب هذا الأخير استراحة لخمس دقائق ، تبعه الى الشرفة ، ووجده يصب جام غضبه على أزهار الجيرانيوم ، فقال له :

ـ كولونل ويلسون ، انتباه ٠

أجابه ويلسون دون أن يلتفت اليه :

ـ انتظر حتى أفرغ ٠

وفرغ دون أن يفقد هدوءه ، ثم تحول وهو يزرر بنطلونه ، فقال له الكولونل كارينو : لابد أن تخسر بالاعتبار الى صديق سيىء الحظ ٠

قال ويلسون فى شىء من السخرية : اننى أرفض أن ألحق أى أحد بمثل هذا العار ٠

قال كارينو : هذا أمر ٠

وقف ويلسون وهو على أتم الأهبة والاستعداد ، ونظر اليه ، بدءا من قمة رأسه فى ازدراء ، ثم عاد الى المنضدة ، وبدأ يخسر ٠ وأدرك الجنرال الحقيقة وقال :

ـ وليس من الضرورى يا عزيزى ويلسون أن تخسر بهذا السوء ٠ ومهما يكن من أمر فان من العدل أن نمضى الى النوم ٠

وانصرف بعد أن شد على يد كل منهم بقوة كما كان يفعل عندما يغادر المنضدة ليدل على أن اللعب لم يغير مشاعره ، وعاد الى غرفته ٠ وكان جوزيه بالاسيوس قد رقد على الأرض ، ولكنه أسرع بالنهوض عندما رآه يدخل ٠ ونضا الجنرال ثيابه عنه بكل سرعة وبدأ يتأرجح وهو عار تماما فى أرجوحته ، ثائر الأعصاب ٠ وكلما فكر أصبحت أنفاسه أكثر صخبا وخشونة ، وعندما غطس فى البانيو كان يرتعش بشدة ولكنه لم يكن يرتعش هذه المرة من الحمى أو من البرد وانما من الغيظ ، وقال :

ـ ان ويلسون وغد ٠

وأمضى ليلة من آسوأ لياليه ٠ وخالف جوزيه بالاسيوس اوامره ، وأطلع الضباط لكي يستدعوا طبيبا اذا اقتضى الأمر ، ودثره بغطاء لكي يعرق فيه حمته ٠ وبلل الكثير من الأغطية فى فترات مؤقتة من السكون ، كان ينتقل منها على الفور الى نوبات من الهلوسة ، ويصيح اكثر من مرة : «أسكت هذه المزامير بحق الله » ولكن لم يستطع أحد أن ينجده عندئذ لأن المزامير كانت قد سكتت منذ منتصف الليل ووجد ، فيما بعد ، مذنبا لآلامه وتعبه بأن قال :

ـ كنت فى صحة جيدة قبل أن يثيروا أعصابى بهذا الهندى المجنون بالقمصان ٠

قطعوا المرحلة الاخيرة حتى هوندا على ساحل مخيف فى جو جليدى لا يمكن آن تتحمله الا عزيمة قوية كعزيمته ، بعد ليلة من الاحتضار ٠ وبدءا من الفراسخ الاولى ترك مكانه العادى لكي يسير بجوار الكولونل ويلسون ٠ وفسر هذا الأخير هذه الحركة على أنها دعوة لكي ينسى اهانات مائدة اللعب ، وقدم له ذراعه لمساعدته ٠ وهبطا المنحدر وهما على هذه الحال : الكولونل ويلسون متأثرا مراعاة له ، فى حين كان الجنرال يتنفس بكل صعوبة ولكنه متمالك لقواه فوق مطيته ٠ وعندما اجتازا الممر الأكثر انحدارا ، قال يسأل بصوت بدا كأنه خارج من القبر :

ـ كيف حال لندن ؟

نظر الكولونل ويلسون الى الشمس وهى تكاد تكون فى كبد السماء وقال :

ـ فى حال سيئة أيها الجنرال ٠

لم تبد الدهشة على هذا الأخير ، وانما عاد يسأل بنفس اللهجة :

ـ ولماذا ؟

أجاب ويلسون : لأن الساعة هناك الآن السادسة مساء وهى أسوأ ساعة فى لندن ، ثم لأن مطـرا قذرا وعنيفا يهطل لأن فصل الربيع عندنا فظيع ٠

قال الجنرال : لا تقل لى انك تغلبت على الحنين ٠

قال ويلسون : بل عـلى العكس ٠ ان الحنين هو الذى تغلب على لم أعد أبذل نحوه أية مقاومة ٠

ـ أتريد اذن أن تعود أم لا ؟

أجاب ويلسون : لا أدرى يا سيدى الجنرال ، فأنا تحت رحمة قدر ليس بقدرى ٠

حدق الجنرال فى عينيه مباشرة وقال : أنا الذى كان يجب أن يقول هذا ٠

وعندما تكلم من جديد تغير صوته ومزاجه وقال :

ـ لا تنزعج ٠ سنمضى الى أوروبا مهما يحدث حتى ولو لكى لا نحرم أباك من السرور برؤيتك ٠

ثم أردف بعد تفكير قصير :

ـ واسمح لى أن أقول لك شـيئا يا عزيزى ويلسـون ٠ يمكن أن يقولوا عنك أى شىء فيما عدا انك وغد ٠

تراجع الكولونل ويلسون مرة أخـرى ، معتـادا عـلى عقوباته اللبقة ، خصوصا بعد لعبة ورق صاخبة أو معـركة ظافرة ٠ واستمر يتقدم ببطء واليد المحمومة لأكثر المرضى الأمريكيين مجدا ممسكة بساعده بقوة فى حين بدأ الهـواء يسخن ، واضطرا أن يطردا الطيور الكئيبة التى تحلق فوق رأسيهما كما يطردا الذباب ٠

وفى أشد المنحدرات وعورة التقيا بزمرة من الهنـود يقودون جماعة من المسافرين الأوروبيين فوق مقاعد معلقة

فى ظهورهم • وفجاة ، قبل أن ينتهي المنحدر ، مر فارس مسرعا في جنون ، في نفس اتجاههم • كان يلبس قلنسوة تغطي وجهه تقريبا • والفوضى التى بدت فى تعجله كانت من الغرابة بحيث ان بغلة الكابتن ايبارا أوشكت أن تهوى من حالق الى الهوة • وتمكن الجنرال من أن يصيح به « توخ الحذر بحق الله » • وظل يتابعه ببصره حتى اختفى فى اول منحنى ، ولم يفارقه بعينيه كلما ظهر فى المنحنيات حتى بلغ الساحل •

وفى الساعة الثانية من بعد الظهر اجتازوا قمة التل الأخير • وتفتح الأفق على سهل مضىء تقبع فى نهايته ، فى الخدر ، مدينة هوندا الشهيرة بجسرها الحجرى فوق النهر الكبير الموحل ، وبأسوارها الخربة وبرج كنيستها الذى اطاح زلزال بقمته • وتأمل الجنرال الوادى الملتهب ، ولكن أساريره لم تنم عن أى انفعال فيما عدا عندما رأى الفارس ذا القلنسوة الحمراء يجتاز فى نفس هذه اللحظة الجسر مسرعا بجواده ، وعندئذ عاد وحى الحلم الى ذهنه فقال :

ــ يا اله الفقراء • ان التفسير الوحيد لمثل هذه العجلة هو أنه يحمل رسالة الى كاساندر تقول اننا رحلنا •

عـلى الـرغم من التوصية بعـدم تنظيم مظاهرات عامة بمناسبة وصوله ، فقد اتجهت كوكبة نشطة من الفرسـان نحو الميناء لاستقباله • وجمع بوزادا جوتييريز ، المحـافظ فرقة الموسيقى ، وكمية من البارود تكفى لاطلاق صـواريخ لمدة ثلاثة أيام ، ولكن المطر أفسـد الاحتفـال قبـل أن تبلغ الحاشية الشوارع التجارية ، وكان سـيلاً عارما هطل قبـل الأوان بعنف مدمر قلع بلاط الشـوارع وأغـرق الأحيـاء الفقيرة • ومع ذلك فقد بقيت الحرارة عنيفة هى الأخرى ، وفى فوضى المصافحات ، ردد بعضهم الحماقة الخالدة بأن قال : « الجـو حار جـدا بحيث يبيض الدجاج البيض برشت » • تجددت هذه الكارثة العادية دون تغيير ثلاثة أيام متتابعة ، وأثناء القيلولة هبطت سحابة من الجبال ، واستقرت فوق المدينة ، وانبثقت فى طوفان فجائى ، ثم تألقت الشمس فى السماء الصافية بنفس قسوتها السابقة ، فى حين راح عمال النظافة ينظفون الشوارع من الأنقاض التى خلفها الفيضان، وبدأت سحابة الغد تتشكون فوق الجبـال ، وراحت الرياح تعصف بكل قوة فى كل مكان •

تحمل الجنرال ، بمشقة كبيرة ، وهو واهن القـوى ، الاستقبال الرسمى الذى قوبل به • وكان الهـواء شـديد الحرارة فى دار الحكومة ، ولكنه تخلص من الموقف بأن ألقى خطبة وجيزة فى صـوت فاتر دون أن ينهض من مقعـده • والقت طفلة فى العاشرة من عمرها ، ترتدى ثوبا بدائرة من الأورجندى وله كمان أشبه بأجنحة الملائكة ، خطبة عن ظهر قلب تمجد بها الجنرال • وكانت متسرعة بحيث أوشكت أن تختنق • ولكنهـا أخطأت ، وعادت تبـدأ من فقرة سـيئة ،

وارتبكت ، وراحت تحدق فيه بعينين مرعوبتين دون أن تدرى ماذا تفعل · وابتسم الجنرال لها متواطئا ، وهمس فى صوت خافت :

ووميض سـيفه
هو الانعكاس الحاد لمجده

لم يكن الجنرال يضيع أبدا أية فرصة لاقامة مآدب كبيرة وفخمة ، أثناء السنوات الأولى من حكمه · وكان يحث مدعويه على الأكل والشرب حتى الثمالة · ومن هذا الماضى السعيد لم يبق له غير طقم من الشوك والسكاكين والملاعق محفور عليها الحروف الأولى من اسمه ، كان جوزيه بالاسيوس يحملها للولائم · وفى حفلة الاستقبال بهوندا ، رضى الجنرال أن يتصدر المائدة ، ولكنه لم يشرب غير كأس من النبيذ ، وتذوق بالكاد حساء السلحفاه الذى قدموه تكريما له . وقد ترك له مذاقا مريرا فى فمه ·

وانسحب مبكرا ، ومضى الى المكان الذى أعده له الكولونل بوزادا جويتيريز فى بيته بالذات ، ولكن عندما عرف أنهم ينتظرون وصول ساعى البريد من سانتا فى صباح الغد تبخر القليل من النوم المتبقى له · وراح يفكر فى مصائبه ، وهو فريسة للقلق بعد الأيام الثلاثة التى قضاها فى راحة واستجمام· وطفق يزعج جوزيه بالاسيوس باسئلته الملحة · كان يريد أن يعرف ماذا حدث منذ أن رحل · وكيف أصبحت المدينة بحكومة غير حكومته ، وكيف غدت الحياة بدونه · وذات يوم قال فى حزن : ان أمريكا ، نصف الكرة الأرضية قد أصبحت مجنونة ·· وقد كان لديه فى تلك الليلة الأولى التى قضاها فى هوندا أكثر من سبب لكى يعتقد ذلك ·

لم يطبق عينا ، تعذبه لسعات الناموس ، لانه رفض ان يرقد تحت ناموسية ، كان يمشي تارة جيئة وذهابا وهو يحدث نفسه في الغرفة ، وتارة يتارجح بشدة في ارجوحته ، وتارة أخرى يلتف بالغطاء ويستسلم للحمى وهو يهذى في صوت مسموع ، في مستنقع من العرق • وعني جوزيه بالاسيوس به ، مجيبا على أسئلته ، يخبره في كل لحظة عن الوقت بالساعة والدقيقة دون أن يحتاج الى النظر في ساعتي الجيب اللتين يحتفظ بهما في جيب صديره • وراح يهز الارجوحة عندما لم يعد الجنرال يجد القوة لكي يفعل ذلك • ويطرد الناموس بخرقة حتى استطاع أن ينيمه اكثر من ساعة • ولكنه استيقظ مذعورا قبيل الفجر وهو يسمع صوت دواب ورجال في الحديقة ، وخرج بقميص النوم لكي يستقبل ساعي البريد •

كان يوجد في نفس القافلة الشاب أوجستين دى ايتوربيد ملازمه المكسيكي ، وكان قد تأخر في سانتا في ، في آخر لحظة ، عن القدوم • وكان معه رسالة من المارشال سوكريه ، يبدى فيها أسفه العميق لأنه لم يتمكن من الحضور في الوقت المناسب لكي يودعه • وكان هناك ، في البريد أيضا ، رسالة كتبها الرئيس كايسيدو قبل ذلك بيومين • ودخل الحاكم بوزاد جوتييريز الغرفة بعد قليل ، فطلب منه الجنرال أن يقرأ له الرسالتين لأن النور كان لا يزال ضعيفا بالنسبة لعينيه •

قالت الأخبار ان الجو كان جميلا في سانتا في يوم الأحد الماضي ، واختلفت أسر عديدة الى المراعي والحدائق ومعهم سلات ملأى بخنازير صغيرة مشوية ولحم بقرى مشوى هو الآخر ، وطواجن أرز ، وبطاطس بالجبن المذابة • وتناولوا الطعام فوق العشب ، تحت شمس ساطعة لم يروا مثلها منذ أوقات الضجيج ، وقد بددت معجزة مايو تلك انفعال يوم السبت ، وعاد طلبة كلية سان بارثولوميو الى مرحهم في

الشوارع ، وقاموا بتمثيل بعض المشاهد الرمزية . ولكنهم لم يجدوا لها أى صدى عند المتجمهرين ، واذ لم يعرفوا عندئذ ماذا يفعلون تشتتوا قبل هبوط الليل . واستبدلوا . فى يوم الأحد ، بنادقهم بقيثارات ، وراحوا يعزفون بين الناس الذين يتشمسون ، فى الحدائق ، ثم ، ودون أى توقع ، عاد المطر يهطل فى الساعة الخامسة ، وأنهى الحفلة .

قطع بوزادا جوتييريز قراءته وقال للجنرال :

ـ لم يعد هناك فى العالم ما يمكن أن يلوث مجدك ، ولهم ان يقولوا ما يشاءون ، فستبقى فخامتك أعظم الكولومبيين ، حتى فى أرجاء الأرض قاطبة .

قال الجنرال : لا أشك فى ذلك ، اذا كان لابد أن اذهب لكى تعود الشمس وتشرق .

كان الشيء الوحيد الذى أثار سخطه فى الرسالة هو ان رئيس الجمهورية بنفسه اخطأ بأن وصف أنصار سانتاندر بأنهم ليبراليون ، كما لو أن هذه الصفة أصبحت رسمية وقال : لا أدرى كيف أجاز الديماجوجيون أن يصفوا أنفسهم بأنهم ليبراليون . انهم سرقوا الكلمة ، لا أكثر ولا أقل . كما يسرقون كل ما يقع تحت أيديهم . ووثب من أرجوحته ، واستمر ينم عما فى قلبه أمام الحاكم ، وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا بخطواته العسكرية الواسعة . وقال أخيرا :

ـ الحقيقة أنه ليس هنا الا الحزب الذى معى والحزب الذى ضدى ، وأنت تعرف ذلك خيرا من أى شخص آخر . ورغم أنهم لا يصدقون ذلك فليس هناك من هو أكثر منى ليبرالية .

وحمل مبعوث خاص للحاكم بعد قليل رسالة تقول ان مانويل ساينز لم تستطع أن تكتب اليه لأن المشرفين على

البريد لديهم تعليمات تعسفية بعدم قبـول رسـائلها . وقد أوفدت مانويلا بنفسها الرسول وبعثت في نفس اليوم الى نائب الرئيس رسالة تحتج فيها على ذلك الحظر ، وهى اول رسالة من سلسلة من التحـديات المشتركة كان لابد لها أن تنتهى بنفيها ونسيانها . ومع ذلك ، وعـلى ما كان يتـوقع بوزادا جوتييريز ، الذى يعرف عن كثب عثرات هذا الحب المعذب فان الجنرال ابتسم ازاء هذا الخبر وقال :

ــ هذه المصادمات هى جزء من طبيعة مجنونتى الرقيقة .

لم يخف جـوريه بالاسيوس استياءه ازاء قلة الاعتبـار الذى رتبت به أيام هوندا الثلاثة . فأكثر الدعوات دهشـة كانت نزهة حتى مناجم الفضة بسانتا آنا ، على بعـد سـتة فراسخ من المدينة . ولكن دهشـته ازدادت ازاء موافقـة الجنرال ، وازدادت أكثر عندما هبط داخل المنجم ، ولكن كان هناك ما هو أسوأ . ففى أثناء العودة ، ورغم حمى مرتفعة ، ورغم ان رأسه أوشكت على الانفجار بسبب صداع ، سـبح فى بقعة مائية بنهر هادىء . كانت الأيام بعيدة ، تلك التى كان يراهن فيها عن قدرته فى اجتياز سيل ويده مقيدة ويسبق أسرع السباحين . ومهما يكن فقد سبح نصف ساعة دون أى تعب . ولكن أولئك الذين رأوا جسـده الهزيل وسـاقيه الكسيحتين لم يفهموا كيف يستطيع البقاء حيا هكذا بهـذا الجسم الضامر .

قدمت البلدية ، فى الليلة الأخيرة ، تكريما له ، حفلة راقصة اعتذر عن عدم استطاعته حضورها بسبب تعبه من الرحلة . وانفـرد فى غرفتـه ، وأملى عـلى فرناندو عـلى الجنرال دومينجو كايسيدو ، واستمع الى قـراءة صـفحات كثيرة من مغـامرات ليما الغراميـة ، وكان هـو البطـل الوحيد تلك المغامرات ، ثم أخذ حماما دافئا ، وبقى ساكنـا فى أرجوحته ، يستمع الى صخب موسيقى الحفلة الراقصـة

التى اقيمت تكريما له • وحسبه جوزيه بالاسيوس نائما ، ولكنه لم يلبث أن سمعه يقول :

ـ هل تتذكر هذه الرقصة ؟

وراح يصفر ببضع نغمات ليحيي الموسيقى في ذاكرة خادمه ، ولكن هذا الآخر لم يعرفها فقال : هذه موسيقى الفالس التى عزفوها اكثر من مرة ليلة ان بلغنا ليما عند قدومنا من شوكيزاكا • ولم يتذكرها جوزيه بالاسيوس ولكنه لم يستطع أن ينسى أبدا ليلة المجد فى الثامن من فبراير سنة ١٨٢٦ ، فقد قدمت ليما لهم فى ذلك الصباح حفلة ملكية ألقى الجنرال خلالها عبارة راح يرددها باستمرار عند كل نخب يشربونه : لم يعد هناك ، حتى امتداد بيرو الشاسع « ولا اسبانى واحد » وقد ختم فى ذلك اليوم استقلال القارة الكبيرة التى انتوى أن يبدلها ، طبقا لأقواله بالذات الى دولة من أكثر الدول الأكثر اتساعا أو الأكثر استغرابا أو الأكثر قوة تواجدت على الأرض حتى اليوم • وارتبطت انفعالات العيد فى ذاكرته بالفالس الذى أعاده عدة مرات أكثر مما يجب حتى لا تكون هناك سيدة واحدة في ليما لم ترقص معه • وقد حذا ضباطه حذوه وهم يرتدون أزهى الثياب التى لم ير أحد مثلها فى المدينة ، بقدر ما سمحت لهم قواهم لأنهم كانوا جميعا راقصين بارعين ، وستبقى تلك الذكرى ماثلة في قلوب زميلاتهم الى وقت طويل أكثر من بقاء ذكرى الحروب المجيدة •

وافتتحوا العيد فى الليلة الأخيرة فى هوندا برقصة النصر ، وانتظر فى أرجوحته أن يعيدوها • ولكن ، عندما لم يحدث ذلك نهض فجأة ، وارتدى ثياب الركوب التى لبسها فى الذهاب الى مناجم سانتا آنا ، وحضر الحفلة ، دون أن يعلن أحدا بذلك • ورقص ثلاث ساعات تقريبا ، وهو يكرر الرقصة كل مرة يغير فيها الراقصة ، محاولا ، ربما اعادة

أمجاد الماضى برماد حنينه ، فقد كانت سنوات الحلم ، حيث كان الجميع يقرون بالتعب والارهاق، فى حين كان هو وحده يستمر فى الرقص حتى الفجر مع آخر امرأة فى الصالون • كانت تلك السنون خلفه دائما ، لأن الرقص كان بالنسبة له نقطة مسيطرة عليه الى حد انه كان يرقص بمفرده اذا لم يجد من تزامله ، او يرقص وحده على أنغام الموسيقى التى يدندن بها بين اسنانه ، ويعبر عن سروره العظيم وهو يرقص فوق مائدة صالة الطعام • فى تلك الليلة الأخيرة بهوندا وهنت قواه الى حد انه كان لابد له أن يستريح أثناء الاستراحات وهو يستنشق آبخرة منديل مبلل بماء الكولونيا، ولكنه رقص بكل حمية ورباطة جأش لا تبدو الا من الشباب ، وأنهى ، دون أن يقصد ، الشـائعات التى تقـول انه مصاب بمرض خبيث •

وعندما عاد الى البيت ، قبيل الليل ، أبلغوه أن امرأة تنتظره فى الصالون ، كانت أنيقة ومتكبرة ، يفوح منهـا شذا ربيعي ، وترتدى ثوبا من المخمل ، طـويل الـكمين ، وحذاء لركوب الخيل من أرقى أنواع الجلد ، وقبعة أنيقـة بخمار من الحرير •• وحياها الجنرال بانحناءة مهذبة ، وقد أحس بالحيرة بالنسبة للساعة ولطريقة الزيارة ، وبدون أن تنطق بكلمة رفعت عند عينيها حلية تتدلى من عنقها فى آخر سلسلة ، عرفها وقال مشدوها :

ــ ميراندا لندساى ؟

قالت : هى آنا ، رغم أننى لم أعد نفس المرأة •

جدد فيه صوتها الرزين والدافىء والأشبه بأنغام الكمان والذى تشوشه بالكاد لكنة خفيفة من اللغة الانجليزية ذكريات لا مثيـل لها • وبحـركة من يده صرف الحارس الذى يقـوم بالحراسة أمام الباب ، وجلس أمامها تقريبا ، قريبـا جـدا بحيث تلامست ركبتاهما تقريبا ، وأخذ يديها •

كانا قد تعارفا قبل ذلك بخمس عشرة سنة فى كنجستون، حيث كان يقضى مدة نفيه الثانية ، فى غداء متوقع فى بيت تاجر انجليزى يدعى ماكسويل هيسلوب ، وكانت الابنة الوحيدة لبسير لندن هيسلوب ، وهو دبلوماسى انجليزى اعتزل فى مصنع للسكر فى جمايكا لكى يكتب مذكرات فى ستة أجزاء لن يقرأها أحد أبدا • ورغم جمالها الباهر ، وقلب المنفى الشاب البسيط ، أحس هذا الأخير بأنه غارق جدا فى أحلامه ، وأنه مرتبط بامرأة أخرى بحيث لا يمكن لأحد أن يثير اهتمامه •

وسوف تتذكره دائما كرجل شاحب وأشبه بالهيكل • كان يبدو أنه أكبر بكثير من سنيه الاثنتين والثلاثين، بسالفيه الخشنين هما وشاربه ، وشعره الطويل حتى الكتفين • كان يرتدى ثيابه على الطريقة الانجليزية ، كغيره من الشبان المولدين الارستقراطيين ، برباط عنق أبيض وسترة سميكة جدا نظر للمناخ ، ويضع فى عروة جاكتته زهرة جردينيا ، كما يفعل الرومانسيون ، وقد حسبته احدى العاهرات المستهترات وهو بزيه ذاك ، فى سنة ١٨١٠ لوطيا يونانيا ينتمى الى ماخور بلندن •

كان اكثر ما تتذكره ميراندا لندساى ، سواء اكان خيرا أم شرا ، هو نظرته المتوهمة ، وحديثه الذى لا ينضب والمرهق وصوته المتشنج • وأغرب شىء هو انه كان يبقى عينيه منخفضتين ، ويسترعى انتباه المدعوين دون أن ينظر اليهم مواجهة • وكان يتكلم بايقاع وأسلوب أهالى جذر الكناريا ، ولهجة أهالى مدريد المثقفين • وكان يخلطها فى ذلك اليوم بانجليزية ابتدائية ، ولكنها مفهومة ، تكريما لاثنين من المدعوين لا يفهمان القشتالية •

ولم يبد أثناء الغداء الاهتمام بأى شىء فيما عدا أوهامه، وتكلم بلا انقطاع بأسلوب بليغ وخطابى ، مطلقا عبارات

تنبؤية لا تزال تفتقر الى ملاحتها . ظهر أغلبها بعد ذلك بأيام في جريدة كنجستون . وخلدها التاريخ كرسالة من جاميكا قال فيها : « لم يسقنا الاسبان الى العبودية . إنما عدم وحدتنا بالذات هي التى عادت بنا **فسافتنا من جديد** » . وتحدث عن عظمة أميركا ومواردها ومواهبها فقال أكثر من مرة : « نحن نوع صغير من البشر » . وعندما عادت ميراندا سألها أبوها كيف رأت هذا المتآمر الذى طالما أثار العملاء الاسبان في الجزيرة . وردت عليه بعبارة واحدة وهى :

ـ « **انه يشعر أنه بونابرت** » .

وبعد بضعة أيام ، تلقى رسالة غريبة تتضمن تعليمات دقيقة ، لكى ينضم اليها في الساعة التاسعة من مساء السبت التالى ، وحده ، وراجلا ، فى مكان غير مأهول . كان هذا التحدى يضع حياته ومصير أميركا فى خطر لأنه كان الملاذ الوحيد لتمرد لم يلبث أن سحق . فبعد خمس سنوات من الاستقلال غير المستقر لم تستطع أراضى ردافة غرناطة الجديدة ، ولا مقاطعة فنزويلا العامة مقاومة الحملات الضارية للجنرال باولو موريللو الملقب « بمخمد الفتن » واستولت اسبانيا عليهما من جديد . وقد استبعدت القيادة العليا للوطنيين بفضل القاعدة البسيطة بشنق جميع الذين يعرفون القراءة .

كان هو ، من جيل المولدين البيض المثقفين الذين زرعوا بذرة الاستقلال من المكسيك حتى ريو دى لابلاتا أكثرهم اقتناعا ، وتصلبا ، وبصيرة ، وخير من يوفق بين العبقريتين السياسية والبدهية فى الحرب . كان قد اكترى بيتا من غرفتين يعيش فيه مع مساعديه العسكريين ، واثنين من العبيد الشبان القدماء بقيا فى خدمته بعد عتقهما وجوزيه بالاسيوس ، أن يفر على قدميه لكى يمضى الى موعد مريب ، ليلى ، ودون حراسة ، كان أكثر من مجازفة لا طائل منها

وخبل تاريخي ، ومع ذلك ، ورغم حبه لحياته وقضيته لم يكن هناك ما يشد اهتمامه أكثر من لغز امرأة جميلة .

كانت ميراندا تنتظره فوق صهوة جوادها في المكان المتوقع ، وحدها هي الأخرى . وأركبته خلفها ومضت به في طريق خفي . وكان الجو ينذر بالمطر ، ودوى فوق البحر برق ورعد بعيدان ، وعرقلت بعض الكلاب قوائم الجواد وهي تنبح في الظلام ، ولكنها أبعدتهم وهي تهمس بكلمات رقيقة باللغة الانجليزية . ومرا بالقرب من مصنع السكر ، حيث يعكف سير لندن ليندساى على كتابة مذكراته التي لن يتذكرها أحد غيره . واجتازا مخاضة حجرية لنهر ، وولجا غابة من الصنوبر في الناحية الأخرى ، في آخرها صومعة مهجورة . وهبطا عن الجواد ، وقادته من يده خلال المصلى المظلم حتى غرفة الأمتعة المقدسة التي يكاد يبدد ظلامها مشعل بالحائط ، وليس بها من الأثاث غير جذعي شجرة منحوتين بضربات فأس . وعندئذ فقط رأى كل منهما وجه الآخر . لم يكن يرتدى غير القميص ، ويربط شعره خلف رأسه بشريط كذيل الحصان ، ووجدته ميراندا أكثر فتوة وجاذبية عما كان أثناء الغداء .

لم يقم بأية مبادرة ، لأن طريقته في الاغواء لا تخضع لأية قاعدة ، فكل حالة ، وعلى الأخص الخطوة الأولى ، تختلف . وقد قال : « في تمهيدات الحب لا يمكن اصلاح أي خطأ » وكان لابد له هذه المرة من أن يعترف بأن كل العقبات قد ذللت مسبقا ، لأنها هي التي كانت قد اتخذت القرار .

ولكنه أخطأ ، فقد كانت ميراندا ، فضلا عن جمالها ، تملك وقارا من الصعب تجنبه ، ومر بعض الوقت قبل أن يفهم أنه يجب ، هذه المرة أيضا أن يأخذ المبادرة . وكانت قد دعته الى الجلوس . وجلسا كما يجب أن يجلسا بعد خمسة

عشر عاما فى هوندا . كل منهما أمام الآخر ، فوق الجذعين المنحوتين . وقريبين جدا بحيث تلامست ركبتاهما تقريبا . وأمسك بيديها وجذبها نحوه ، وحاول أن يقبلها . وتركته يقترب حتى أحست بحرارة أنفاسه ، ثم أقصت وجهها وهى تقول :

ـ كل شىء فى وقته .

ووضعت نفس العبارة نهاية للمحاولات المتكررة التى قام بها بعد ذلك . وفى نحو منتصف الليل ، عندما بدأ المطر يتسرب من كوات السطح كانا ما يزالان جالسين ، أحدهما أمام الآخر ، ممسكى الأيدى بينما كان يستظهر احدى قصائده التى نظمها فى الأيام الأخيرة . كانت قصيدة ثمانية موزونة ومنتظمة القوافى ، تمتزج فيها المجاملات الغرامية وأمجاد الحرب . وتأثرت ، وذكرت ثلاثة أسماء محاولة أن تعرف اسم المؤلف ، ولكنه قال :

ـ انها من وضع أحد العسكريين .

سألته : أعسكرى من عساكر الحرب أم من عساكر الصالونات ؟ .

قال : من الاثنين ، وهو أعظم العسكريين الذين وجدوا حتى الآن .

وتذكرت ما قالته لأبيها، بعد الغداء ، فى بيت هيسلوب، فقالت :

ـ لا يمكن أن تكون احدى قصائد بونابرت .

قال الجنرال : تقريبا . ولكن الفارق الأدبى كبير جدا بحيث ان مؤلف هذه القصيدة لم يسمح بأن يتوجوه .

وبمرور السنين ، وكلما جاءتها أخباره ، كانت تتساءل بدهشة متزايدة اذا كان قد وعى اذا كانت تلك المزحة تجسيدا لمصيره . ولكنها ، في تلك الليلة ، لم تشك في ذلك حتى وهى تحاول ان تنجز وحدها المستحيل تقريبا بأن تبقيه دون ان تجرح شعوره ، ودون أن تستسلم لهجماته التى غدت أكثر الحاحا كلما اقترب الفجر . سمحت له ببعض القبلات المفاجئة ولكن لا أكثر من ذلك ، وهى تقول له :

ـ كل شيء في وقته .

قال : انني سأرحل الى الابد في الساعة الثالثة من بعد ظهر الغد على الباخرة هايتي .

ردت على خبثه قائلة : بادىء ذى بدء ، لن ترحل الباخرة قبل يوم الجمعة ، والاكثر من ذلك انك طلبت من مدام تورنر أن تعد فطيرة من أجل العشاء الذى ستتناوله الليلة مع المرأة التى تكرهنى كل الكراهية .

كانت المرأة التى تكرهها كل الكراهية تدعى جوليا كوبير ، وهى من أهالى الدومينيك ، جميلة وثرية ، منفية هى الأخرى في جامايكا . وقد قيل أكثر من مرة انه قضى أكثر من ليلة عندها وكانا سيحتفلان الليلة بعيد ميلاده . وحدهما .

وقال :

ـ انت تعرفين عنى أكثر مما يعرفه جواسيسى .

ـ ولماذا لا يخطر لك بالأحرى انني من جواسيسك ؟ .

ولم يفهم هذه العبارة الا في الساعة السادسة صباحا . عندما عاد الى بيته ووجد صديقه فليكس أميستوى ميتا وغارقا في دمه في أرجوحته هو بالذات حيث كان يجب أن ينام لولا ذلك الموعد الغرامى الزائف . غلب النوم فليكس أميستوى بينما كان ينتظر عودة صديقه ليبلغه رسالة عاجلة ،

وقتله أحد الخادمين المحررين ، بتحريض من الاسبان وطعنه احدى عشرة طعنة ، معتقدا انه سيده • وكانت ميراندا على علم بمؤامرة الاغتيال ولم تجد آمن من هذه اللحظة لاحباطها • وحاول أن يشكرها شخصيا ولكنها لم ترد على رسائله • قبل أن يرحل الى بورت اوبرنس فوق سفينة قراصنة أرسل اليها مع جوزيه بالاسبوس الحلية النفيسة التى ورثها عن أمه مع رسالة من سطر واحد تقول :

« **مقرر لى ان القى مصيرا مسرحيا** » •

لم تنس ميراندا ابدا ، ولم تفهم تلك العبارة المستغلقة للجندى الشاب الذى عاد خلال السنوات التالية الى بلده بفضل مساعدة رئيس جمهورية هايتى الحرة ، الجنرال الكسندر بريون ، واجتاز الانديز بفرقة من الجنود الحفاة من اهالى السهول ، وهزم الجيوش الملكية على جسر بوياكا ، وحرر للمرة الثانية والى الأبد غرناطة الجديدة ثم فنزويلا مسقط رأسه ، واخيرا أراضى الجنوب الوعرة حتى حدود الامبراطورية البرازيلية ، وتتبعت أخباره ، خصوصا بفضل قصص المسافرين الذين لا يكلون أبدا من رواية أعماله الباهرة • واذ تحررت المستعمرات الاسبانية القديمة تزوجت ميراندا مهندسا لم يلبث أن غير مهنته واستقر فى غرناطة الجديدة لكى يزرع قصب السكر الذى أتى به من جمايكا • وقد كانت هناك عندما علمت أن صديقها القديم ، الذى كان منفيا فى كنجستون • على بعد ثلاثة فراسخ من بيتها ، لكنها وصلت الى المناجم بعد أن شرع الجنرال فى المسير الى هوندا ، واضطرت الى أن تنطلق فوق صهوة جوادها نصف النهار لكى تلحق به •

وما كانت لتعرفه فى الشارع ، بدون سالفيه وشاربه الفتى وبشعره القليل الذى ابيض وبمظهره المهمل بحيث خيل اليها أنها تخاطب ميتا • وكان قد خطر لها أن ترفع

حجابها لكى تتحدث اليه ، ولكنها خشيت أن يتعرف عليها أحد فى الشارع ، ثم ان الخوف من أن يرى هو الأخر أضرار الزمن على وجهها منعها من ذلك • وما أن فرغت من الاجراءات الشكلية حتى مضت الى الهدف رأسا فقالت :

ـ أتيت أسألك معروفا •

أجاب : كلى لك •

ـ والد أبنائى الخمسة يقضى عقوبة طويلة لأنه قتل رجلا •

ـ فى معركة شريفة ؟

قالت : فى مبارزة صريحة •

وأردفت تقول على الفور : بسبب الغيرة •

قال : لا أساس لها من الصحة طبعا •

أجابته : بل لها أساس •

ولكن كل شىء الآن أصبح طى الماضى ، وكذلك بالنسبة له . والشىء الوحيد الذى تطلبه منه عن محبة هو أن يستخدم نفوذه لوضع حد لحبس زوجها • ولم يسعه الا أن يقول الحقيقة :

ـ اننى مريض ولا حظوة لى كما ترين • ولكن ليس هناك فى العالم ما يمنعنى من أن أرضيك •

واستدعى الكابتن أيبارا لكى يدون مذكرة بالموضوع . ووعد بأن يبذل كل ما فى مقدوره رغم تجرده من حقوقه لاعفاء زوجها من عقوبته • وفى نفس الليلة تبادل بعض الآراء مع الجنرال بوزادا جوتييريز ، تحت كل التحفظات . ودون أن يترك آثارا مكتوبة ، ولكن بقى كل شىء معلقا

لأنه كان لابد من انتظار طبيعة الحكومة الجديدة . ورافق ميراندا حتى باب البيت حيث تنتظرها فرقة حراسة من ستة من العبيد المحررين وودعها وهو يطبع قبلة على يدها فقالت :

ـ لقد كانت ليلة كلها سعادة .

ـ هذه الليلة أم الأخرى ؟

اجابت : الاثنتان .

وامتطت جوادا غير الذى جاءت به ، نشطا ومسرجا كجواد نائب الملك ، وانطلقت مسرعة من غير أن تلتفت لكى تنظر اليه . وانتظر آمام الباب حتى غابت عن عينيه ، ولكنه كان مايزال يراها فى مخيلته عندما آيقظه جوزيه بالاسيوس مبكرا فى الصباح لكى يبدأ الرحلة عبر البحر .

كان قد منح امتيازا خاصا للكومودور جيان ب . البيرس قبل ذلك بسبع سنوات لافتتاح الملاحة بالبخار ، وأبحر هو نفسه فى طريقه الى أوكانا على احدى هذه البواخر بين بارانكا نيوفا وبويرتوريال ، وتم الاتفاق على أن هذه طريقة عملية ومأمونة للسفر . ومع ذلك ، فان الكومودور البيرس اعتبر ان المسألة لن تكون لها قيمة اذا لم تتمتع وتستند الى امتياز قاصر عليه وحده . ومنحه الجنرال سانتاندر هذا الامتياز دون أى قيد عندما اضطلع بأعباء الرئيس . ولكن بعد ذلك بسنتين، بعد أن ولاه المجلس القومى جميع السلطات، ألغى ذلك الامتياز باحدى عباراته التنبؤية قائلا : اذا تركنا الاحتكار للألمانيين فسوف ينتهى بنا الأمر الى منحه للولايات المتحدة . وبعد ذلك جعل الملاحة حرة فى جميع البلاد ، بحيث انه عندما أراد الحصول على باخرة فى حالة ما اذا اتخذ قراره بالرحيل واجهته مماطلات وتسويفات كانت أشبه بالانتقام، واضطر الى آن يقنع عند رحيله بزورق يسير بالمجداف .

اكتظ الميناء بالناس منذ الخامسة صباحا ، ما بين راجل وراكب جواد ، جمعهم المحافظ على عجل من النجوع المجاورة لتصنع وداعات كالوداعات السابقة . وراحت تطوف حـول الميناء زوارق محملة بنساء مرحات كن يغرين جنود العرس بصيحات ماجنة ، وكانوا يردون عليهن بعبـارات بذيئـة . ووصل الجنرال في الساعة السادسة يرافقه الوفد الرسمي . كان قد أقبل راجلا من بيت المحافظ ، في خطى بطيئة ، وهو يضع فوق فمه منديلا مبللا بماء الكولونيا .

كان اليـوم يبدو مضببا ، وقد فتحت محـلات شـارع التجارة أبوابها منذ الصـباح ، وعرضت بعضـها بضـائعها تقريبا في مهب الرياح ، بين أنقاض البيـوت التي مازالت خربة بسبب زلزال وقع منذ عشرين سنة . وكان الجنرال يرد بمنديله على الذين يحيونه من النوافذ ، ولكنهم كانوا أقل المودعين لأن الآخرين كانوا ينظرون اليه في صمت وهو يمر ، مشدوهين من سحنته السيئة . كان يرتدي قميصا ويحتذي بجزمته الوحيدة ، ويضع على رأسه قبعة من القش الأبيض . ووقف الكاهن على مقعد ، في ساحة الكنيسة وهم بأن يلقي خطبة ولكن الجنرال كارينو منعه ، واقترب الجنرال منـه وشد على يده .

وما أن بلغ ناصية الشارع حتى أدرك من نظرة واحدة أنه لن يستطيع ارتقاء المنحدر ، ولكنه بدأ يصـعده وهـو ممسك بذراع الجنرال كارينو حتى اتضح له أنه لن يستطيع ذلك بعد . وحاولوا اقناعه عندئذ بالجلوس فوق مقعد أحضره بوزادا جوتييريز لكي يحملوه عند الحاجة ولكنه قال مرعوبا :

ـ كلا يا جنرال .. أرجوك . جنبني هذه الاهانة .

وصل الى القمة بفضـل قوة ارادته أكثر منهـا بقـوة جسده ، وكان من الشجاعة كذلك بأن هبط حتى الميناء دون

مساعدة • وهناك ، ودع كل شخص من الوفد بعبارة مجاملة • وكان يتكلف الابتسام لكي لا يلاحظوا أنه ، في ذلك اليـوم الخامس عشر من مايو المزهر لا يقوم برحلة العودة الى العدم • قدم ميدالية من الذهب محفور صورته عليها هدية للجنرال بوزادا جوتييريز ، وشـكره عـلى كرمه بصـوت مرتفع لكي يسمعه الجميع ، وعانقه بتأثر حقيقي • ثم ظهر في مؤخرة الزورق ، ملوحا بقبعته في حـركة وداع دون أن ينظـر الى أحد بين الحشد الذي يقـول له وداعا ، بدءا من الشـاطيء ، ودون أن يرى فوضى الزوارق في البحر ، ولا الأطفال الذين يسبحون حولها كالسردين • واستمر يهز قبعته نحـو مكان واحد في غير اهتمام ، حتى لم يعد يرى غير قمة برج الكنيسة المتهـدم ، وعنـدئذ انزلق تحت سقيفة الزورق ، وجلس في الارجوحة ومدد ساقيه حتى يستطيع جوزيه بالاسـيوس أن يخلع له جزمته ، وقال : سوف نرى الآن اذا كانوا سيصدقون أننا راحلون أم لا •

كان الأسطول مكونا من ثمانية زوارق مختلفة الأحجام ، ومن زورق خاص له هو وحاشيته ومن موجه السكان وثمانية من المجدفين يحركونه برافعات سميكة من الخشب • وبخلاف الزوارق العادية التي تتوسطها غرفة من سعف النخل لوضـع الحمولة ، كان بذلك الزورق سقيفة من الجوخ يمكن تثبيت ارجوحة تحت ظلها ، وكانت مكسـوة من الداخـل بنسـيج هندي ، ومفروشة بالحصر ، وقد شقت فيها أربع نوافذ لزيادة التهوية والنور ، ووضعوا له فيها منضدة صغيرة للكتابة أو للعب الورق ، ورفا للكتب ، وجرة للماء بها مرشح حجري ، واختير المسئول عن الأسطول من بين أفضل الملاحين ، ويدعى كازيلو سـانتوس ، وكان فيما سـبق قائد كتيبـة من رماة الحرس وله صوت مدو ويضع عصابة قرصـان عـلى عينـه اليسرى ، وله دراية كبيرة بالقيادة •

وكان مايو اول الشهور المناسبة لسمن الكومودور البيرس • ولكن الشهور المناسبة لم تكن افضل الشهور بالنسبة للزوارق ، فالحرارة القاتلة والعواصف الشديدة والتيارات الغادرة ، وتهديد الوحوش والحيوانات المؤذيه اثناء الليل ، كان كل ذلك يبدو انه يتآمر ضد راحة المسافرين ، وكانت نتانة قطع اللحم والسمك المدخن المعلقة خطا في التسقيفة الأمامية لزورق الرئيس ، عذابا اضافيا لكل شخص معتل الصحة • وامر الجنرال بنقلها بمجرد أن وقع بصره عليها • وعندما أدرك الربان سانتوس أن الجنرال لن يستطيع تحمل رائحة الطعام أمر بنقله الى آخر الأسطول ، في زوق التموين الذي يحمل الدجاج والخنازير الحية • ومع ذلك ، ومن اول يوم للرحلة ، وبعد أن تناول بشهية كبيرة طبقين متتاليين من عصيدةالذرة صرح بأنه لن يأكل شيئا آخر طوال بقيةالرحلة • وقال : يبدو أن هـذا من صنع الطاهيـة الكيتونية فرناندا سبتيما •

وكان هذا حقا فانالطاهية فرناندا باريجا التي يدعوها فرناندا سبتيما كانت موجودة معهـم دون أن يعلم • كانت هندية هادئة وبدينة ، ذلقة اللسان ، موهبتها الكبيرة لم تكن في تتبيلها الطعام وانما في غريزتها لارضاء شهية الجنرال • وكان قد قرر أن تبقى في سانتا في مع مانويلا ساينز التي ألحقتها بخدمتها ، ولكن الجنرال كارينو استدعاها دون ابطاء من جواداياس بعد أن أخبره جوزيه بالاسيوس ، مذعورا ، بأن الجنرال لم يتناول ولا وجبة كاملة منـذ عشـية الرحيـل ، ووصلت الى هوندا في الصباح المبكر وأخفـوها في زورق الطيور ، في انتظار فرصة مواتية • ولكنهـا ظهرت قبـل المتوقع بسبب سرور الجنرال بتناوله عصيدة الذرة ، وهـو طبقه المفضل منذ أن أخذت صحته في التدهور •

كان يمكن لأول يوم من الابحـار أن يكون الأخير ، ففي الساعة الثانية من بعد الظهر هبط الليل فجأة ، وراحت المياه

تزيد ، واهتزت الارض تحت دوى الرعد ووميض البرق •
وبدا المجدفون عاجزين عن منع الزوارق من ان تتحطم بالصخور • وراقب الجنرال ، من تحت السقيفة محاوله الانقاذ التى يديرها الربان سانتوس وهو يطلق الصراخ والزعيق ، وبدا كأن مقدرته البحرية لا تكفي للسيطرة على مثل هذه العوارض الجوية ، وراقبه في بادىء الأمر بفضول، وأدرك أن الربان أصدر أمرا خاطئا ، وعندئذ انساق لغريزته ، وشق طريقه تحت الرياح والمطر وهو على شفا الهلاك وأصدر أمرا مخالفا لأمر الربان بأن صاح :

ـ ليس من هذه الناحية ••• بل الى اليمين •• الى اليمين بحق الله •

أطاع المجدفون الصوت المبحوح والذى كان لا يزال مفعما بسلطة لا تقهر ، وأخذ القيادة دون أن يفطن الى ذلك حتى ابتعد الخطر • وأسرع جوزيه بالاسيوس فألقى فوق كتفيه غطاء • وساعده ويلسون وايبارا على الوقوف مكانه • أما الربان سانتوس فقد ابتعد ، مدركا بأنه أخطأ مرة أخرى بين اليسار واليمين ، وانتظر فى خزى جندى أن يبحث الجنرال عنه ، ووجده • وقال له :

ـ سامحني أيها الربان •

ولكن الجنرال لم يبق في سلام مع نفسه ، ففى نفس الليلة ، وحول النيران التي أشعلوها فوق الشاطىء الذى هبطوا اليه لقضاء ليلتهم الأولى ، روى قصص انقاذات بحرية لا يمكن نسيانها وقال كيف أن أخاه جوان فيسنت ، والد فرناندو ، مات غرقا عندما غرقت سفينته وهو عائد من واشنطن ، حيث اشترى شحنة أسلحة وذخيرة من أجل أول امبراطورية ، وقال انه كان على وشك أن يلقى نفس المصير عند اجتيازهم نهر آروكا أثناء فيضانه لأن جواده مات بين

ساقيه ، واشتبكت جزمته في الركاب وسحبته في دوامه من الماء حتى تمدن دليله من قطعه • وروى حيف انه وهو في طريق انجو ستورا ، بعد استقلال غرناطة الجديدة بقليل ، راى فاربا ينقلب في السيل الجارف بنهر أورينوك، وضابطا مجهولا يسبح نحو الشاطىء • وقيل له انه الجنرال سوكريه فرد ساخطا : ليس هناك أى جنرال باسم سوكريه ، ولكنه كان أنطونيو جوسيه دى سوكريه في الواقع ، وكان قد رقى قبل ذلك بقليـــل الى رتبة جنرال في جيش التحـــرير ، وقد ارتبط معه بعد ذلك بصداقة وثيقة •

قال الجنرال كارينو : سمعت عن هذا اللقاء ، ولكننى لم أعلم بتفاصيل الغرق •

ـ ربما تكون قد خلطت بينه وبين غرق سوكريه الاول عندما هرب من قرطاجنة وطارده موريللو ، وبقى فى المــاء أربعا وعشرين ساعة تقريبا •

وأردف يقول بعد ذلك ، كيفما اتفق :

ـ أود لو يفهم الربان ســانتوس بطريقــة ما وقاحتى معه بعد ظهر اليوم •

وفى الصباح الباكر ، وهم نيام ، اهتزت الغابة كلهــا على صوت أغنية لا يمكن أن يصــدر الا من رجــل بالذات • وارتجف الجنرال فى أرجوحته ، وتمتم جوزيه بالاسيوس فى الظلام : انه ايتوربيد • وما كاد ينطق بهاتين الكلمتين حتى قطع الأغنية صوت ضار وآمر •

كان أجوســـتين دى ايتوربيـــد ، الابن الأكبر لجنرال مكسيكى فى حرب الاستقلال نادى بنفسه امبراطورا ، ولكنه لم يفلح فى البقاء أكثر من سنة ، وأحس الجنرال نحوه بعودة مختلفة منذ اللحظة التى رآه فيها لأول مرة وهو واقف وقفة

الانتباه ، يرتجف ولا يستطيع التغلب على رعشة يديه لانه وجد نفسه واقفا امام معبود طفولته ، وكان عمره عندئذ سبعة وعشرين عاما • ولم يكن عمره قد تجاوز السابعة عشرة عندما أعدم أبوه رميا بالرصاص في قرية مغبرة وملتهبة من الريف المكسيكي ، بعد ساعات من عودته من المنفى وهو لا يعلم أنه حوكم غيابيا وحكم عليه بالموت للخيانة العظمى •

ثلاثة اشياء اثرت في الجنرال منذ الايام الاولى : اولها كان مع اوجستين الساعة الذهبية ذات الأحجار الكريمة التي ارسلها له ابوه وهو واقف أمام جدار الاعدام وكان يحملها معلقة في عنقه حتى يعرف الجميع انها تكرمه كثيرا ، والثاني هو السذاجة التي روى بها ان اباه كان يرتدي ثيابا تنم على أنه فقير حتى لا يعرفه حرس الميناء ، وان أمره افتضح بسبب الأناقة التي امتطى بها الجواد والثالث هو طريقته في الغناء •

كانت الحكومة المكسيكية قد وضعت كل العراقيل حتى لا ينضم الى جيش كولومبيا ، معتقدة أن تجهيزه العسكري جزء من مؤامرة ملكية يسانده فيها الجنرال لتتويجه امبراطورا على المكسيك بحجة الحق المزعوم كولي العهد • وقد جازف الجنرال بوقوع أزمة دبلوماسية خطيرة ، أولا لأنه قبل الشاب أوجستين بألقابه العسكرية ، وثانيا لأنه عينه ملازما له • وكان أوجستين جديرا بهذه الثقة ، رغم أنه لم يعرف الهدوء يوما واحدا ، وسمحت له عادته الوحيدة في الغناء على مواصلة الحياة في الشك والتردد ، بحيث انه عندما أسكته بعضهم في غابة مجدالينا ، غادر الجنرال أرجوحته ، متدثرا بغطاء ، واجتاز المعسكر المضاد بنيران الحراسة ، ومضى وانضم اليه ، ووجده جالسا على الشاطىء ، يتأمل النهر ، وقال له : استمر في الغناء يا كابتن •

وجلس بجواره ، وعندما كان يعزف بعض كلمات الأغنية كان يرددها معه بصوته الواهن • لم يسمع في حياته أبدا

من يغنى بمثل هذا الحب ، ولم يتذكر أحدا بمثل حزنه مثل كل تلك السعادة حوله • كان انتوربيد قد كون مع فرناندو واندريس ، زميلى الدراسات القديمة بمدرسة جورتاون ، ثلاثيا أشاع نسمة شبابية فى حاشية الجنرال التى انهكتها صرامة الثكنات •

استمر أوجستين والجنرال يغنيان حتى أهاجا هدوء حيوانات الغابة وتسببا فى تشتيت التماسيح الهاجعة فوق الساحل فأسرعت الى المياه كما لو أن كارثة أرضية تلاحقها• وبقى الجنرال جالسا على الأرض مذهولا بهول يقظة الطبيعة كلها الى أن ظهر هدب برتقالى فى الأفق ، وطلع النهار • وعندئذ استند الى كتف ايتوربيد لكى يقف ، وقال له :

ـ شكرا أيها الكابتن • كان بمقدورنا انقاذ العالم بعشرة رجال يغنون مثلك •

تنهد ايتوربيد وقال : آه يا جنرال • اننى لأتنازل عن الكثير لكى تسمعك أمى •

رأوا فى يوم ابحارهم الثانى أملاكا نظيفة وجميلة فى مروج زرقاء تجرى فيها خيول أصيلة بكل حرية • ولكنهم لم يلبثوا أن اقتربوا من غابة وعاد كل شىء مباشرا ومماثلا • وقبيل ذلك خلفوا وراءهم أطوافا مصنوعة من جذور الأشجار الضخمة ، يمضى بها الحطابون لبيعها فى قرطاجنة ديزاند • وكانت بطيئة جدا بحيث بدت ساكنة وسط التيار ، وكانت تنقل عائلات بأسرها مع أطفال وحيوانات تحت سقيفات من سعف النخيل لا تكاد تحميهم من لفحات الشمس • ورأوا فى بضع بقع من الغابة الأضرار الأولى التى تقترفها بحارة السفن التجارية لتغذية مراجلها • وقال الجنرال :

ـ يجب أن تتعلم الأسماك السير على الأرض عندما لا تكون هناك مياه بعد •

أصبحت الحرارة لا تطاق أثناء النهار · وكان صخب القرود والطيور يبعث على الجنون ، ولكن الليالى كانت جميلة ورطبة · وكانت التماسيح تبقى هادئة طوال ساعات فوق كثبان الرمال ، فاتحة فكيها لالتقاط الفراشات · وكانت ترى بعد النجوع المقفرة حقول مزروعة بالذرة ، وكلاب معروقة ، تنبح عند مرور الزوارق ، ورغم ان تلك الأراضى المقفرة كان عليها بعض الفخاخ لصيد الحيوانات وشباك صيد تجف تحت الشمس فلم يظهر أى انسان ·

وبعد كل هذه السنين من الحروب والحكومات المريرة والغراميات التافهة ، بدت البطالة أشبه بألم مرير ، وراح الجنرال يفكر وهو فى أرجوحته ، فى الحياة القليلة الباقية له والتى يستيقظ أثناءها كل صباح · كانت مراسلاته معدة بالرد العاجل للرئيس كايسيدو ، ولكنه كان يقضى وقته فى املاء رسائل لقضاء وقت الفراغ · قرأ له فرناندو فى الأيام الأولى كتاب « أخبار فضائح ليما » ولم يستطع أن يثير اهتمامه الى أى شىء آخر ·

وكان ذلك آخر كتاب قرأه عن آخره · كان قارئا نهما جدا أثناء مهادنة المعارك ، وكذلك أثناء استراحات الحب ، ولكن دون ترتيب أو نظام · كان يقرأ فى كل ساعة ، مهما كان الجو، تارة وهو يتمشى تحت الأشجار ، وتارة وهو ممتط جواده ، تحت الشمس الاستوائية ، وأخرى فى ظل العربات المهتزة فوق الطرق الحجرية ، وتارة وهو يهتز فى أرجوحته فى نفس الوقت الذى يملى فيه احدى رسائله · وقد دهش أحد أصحاب المكتبات من كثرة واختلاف المؤلفات التى اختارها من كتالوج عام ، بدأت من الفلاسفة اليونان الى مؤلف فى قراءة الكف · قرأ فى حداثته ، تحت تأثير مدرسة سيمون رودريجز الأعمال الرومانسية ، ثم استأنف فى التهامها كما لو كان يقرأ نفسه بالذات ، مدفوعا بمزاجه الخيالى والمتحمس · كانت قراءات متقدة وسمته بقية

حياته • وأخيرا قرأ كل ما وقع تحت يديه ، ولم يفضل اى كاتب على اطلاق ، بل كتابا كثيرين ، فى عصور مختلفة • كانت رفوف كتبه في مختلف البيوت التى اقام فيها تزخر بالكتب حتي لتكاد أن تقع من فرط ثقلها ، فى حين كانت الغرف والممرات تتحول الى صفوف من الكتب المتراكمة ، بعضها فوق بعض ، والى جبال من المستندات والوثائق ، تتكاثر في طريقه وتلاحقه دون شفقة • لم يستطع قراءتها كلها أبدا • وعندما كان ينتقل الى مدينة أخرى كان يتركها في عهدة أصدقاء موثوق بهم حتي ولو لم يعد يسمع عنهم أبدا • واضطرته حياته القتالية الى أن يترك خلفه آثرا من أكثر من أربعمائة فرسخ من الكتب والأوراق ، بدءا من بوليفيا حتى فنزويلا •

وقبل أن ينخفض بصره كان يطلب من سكرتيريه أن يقرءوا له • وانتهى به الأمر الى أنه لم يعد يقرا اطلاقا الا بهذه الطريقة لأن النظارة كانت تضايقه • ولكن اهتمامه بما يقرأ انخفض شيئا فشيئا فى نفس الوقت ، ونسب ذلك ، كعادته دائما الى سبب بعيد عن ارادته ، اذ قال :

ــ الواقع أن الكتب الجيدة أصبحت تقل شيئا فشيئا •

كان جوزيه بالاسيوس الوحيد الذى لا يبدى أية اشارة عن سأمه من فتور الرحلة ، ولم تكن الحرارة ولا قلة الرفاهية تؤثر فى سلوكه الطيب ولا فى أناقته ، كما أنهما لم ينتقصا من خدمته لسيده • كان عمره أقل من الجنرال بست سنوات ، وقد ولد عبدا فى بيت الجنرال اثر زلة لأفريقية مع اسبانى ورث عنه شعره بلون الجزر وبقع النمش فى وجهه ، وعينيه الزرقاوين الصافيتين • وبخلاف تحفظه الشديد ، كان يملك مجموعة من أجمل الملابس وأغلاها • وقضى كل حياته بجوار الجنرال ، ورافقه فى نفيه المزدوج ، وكان فى الصف الأول فى حملاته وكل معاركه وهو مرتد الثياب المدنية ، لأنه لم يعتبر لنفسه الحق أبدا فى ارتداء الملابس العسكرية •

كان الجمود الجبرى أسوأ ما فى الرحلة . ففى أصيل ذات يوم استولى الملل على الجنرال وهو يلف ويدور تحت السقيفة الضيقة بحيث اوقف الزورق لكى يتمشى. وشاهدوا فوق الوحل المتجمد اثار طائر كبير الحجم كالنعامة وثقيل كالبقرة ولكن المجدفين لم يستغربوا ، فطبقا لهم كان هناك ، فى تلك الأنحاء رجال لهم ضخامة شجرة السيبا الامريكية باعراف وأرجل الديكة . وقد سخر من هذه الأسطورة ، كما كان يسخر من كل ما يفوق الخيال ، ولكنه أطال نزهته أكثر من المتوقع ، واضطروا أخيرا الى اقامة الخيام على الرغم من رأى الكابتن ومن ملازميه العسكريين الذين رأوا المكان شديد الخطورة وغير صحى . وبقى مستيقظا طوال الليل تضنيه الحرارة وجيوش الناموس التى كانت تخترق الناموسية الخانقة . وبقى مترقبا زئير الأسود الذى جعله فى حالة تأهب طوال الليل . وفى نحو الساعة الثانية صباحا مضى لكى يثرثر مع الجماعات التى تتولى الحراسة حول النيران ، ولم يعدل عن الوهم الذى أبقاه ساهرا الا فى الفجر وهو يتأمل أول آشعة الشمس الذهبية اذ قال :

ــ حسنا . يجب أن نرحل الآن دون أن نتعرف على أصدقائنا ذوى أرجل الديكة .

وفى اللحظة التى هموا فيها بالابحار قفز الى الزورق كلب أسود هزيل وأجدب واحدى قوائمه متحجرة . وأسرع كلبا الجنرال نحوه ، ولكنه دافع عن نفسه ، رغم عاهته ، بسراسة انتحارية بحيث انه لم يستسلم بعد أن غطاه الدم وتمزق عنقه . وأصدر الجنرال أمره بابقائه ، واهتم جوزيه بالاسيوس به ، كما فعل مرارا مع كلاب الشوارع .

وفى نفس اليوم آووا ألمانيا هجره القوم وتركوه فى جزيرة رملية لأنه ضرب أحد المجدفين بالعصا . وما أن صعد الى سطح الزورق حتى قدم نفسه كفلكى وعالم نباتى ، ولكن

ظهر بوضوح ، من خلال الحديث أنه يجهل كل شيء عن هذين العلمين ، وعلى العكس من ذلك قال انه رأى بعينيه الرجال ذوى أرجل الديكة وأنه مصمم على الامساك بأحدهم لكى يعرضه في أوروبا في قفص كظاهرة لا يمكن مقارنتها الا بالمرأة العنكبوت التي ظهرت في أمريكا وأثارت ضجة كبيرة في الموانى الأندلسية قبل ذلك بقرن ، وقال له الجنرال :

ـ خذني أنا ، فأنا على يقين من أنك ستكسب الكثير من المال اذا عرضتني في قفص على أنني أكبر رأس بغل في التاريخ ٠

تقبله في البداية كمهرج ظريف ، ولكنه غير رأيه عندما بدأ يروى قصصا وقحة عن الشذوذ المعيب للبارون الكسندر فون همبولد ، وقال يخاطب جوزيه بالاسيوس : كان يجب أن نعيده الى جزيرته ٠ وفى المساء التقوا بمركب البريد ، وكانت تسير نحو عالية النهر ٠ ولجأ الجنرال الى كل فنه في الاغراء لكى يفتح الوكيل حقائب البريد الرسمي ، وأعطاه أخيرا الرسائل المرسلة باسمه ٠ ورجاه الجنرال عندئذ أن يتكرم باصطحاب الألمانى معه حتى ميناء نار ، ووافق الوكيل على الرغم من أن حمولة المركب كانت كبيرة ٠ وفى نفس تلك الليلة تذمر الجنرال بينما كان فرناندو يقرأ له رسائله وقال :

ـ ان هذا العاجز ليس حتى جديرا بشعرة واحدة من رأس همبولد ٠

كان قد فكر في البارون حتى قبل أن يصعد الألمانى الى الزورق ، لأنه لم يستطع أن يتصور كيف يتمكن من أن يعيش في هذه الطبيعة غير المروضة ٠

وقد عرف همبولد في باريس ، عندما كان هذا الأخير عائدا من رحلة في البلاد الاعتدالية ٠ وأدهشه ذكاؤه

وثقافتـه وبهـاء جمـاله الذى لم يره أبدا فى أية امرأة ·
وكانت دهشته أقل عندما أكد له ان المستعمرات الاسـبانية في أمريكا ناضجة للاستقلال · قال ذلك دون أية رعشة فى صوته ، فى حين أن الجنرال نفسه لم يكن قد فكر فى ذلك أبدا ، ولا حتى كوهم من الأوهام ·

كان همبولد قد قال له : ولا نفتقر الا لرجل ·

وبعد ذلك بسنوات روى الجنرال وهو فى كوزو الواقعة لجوزيف بالاسيوس ، ربما لأنه رأى نفسه فوق العالم وان التاريخ برهن على أنه هو ذلك الرجل · ولم يكرر ذلك لأحد آخر ، ولكن فى كل مرة يدور الحديث حول البارون ، كان ينتهز الفرصة لكى يشكره على بعد نظره ·

ـ ان همبولد فتح عينى ·

كانت هـذه رابع مرة يعبر فيهـا نهر مجدالينـا ، ولم يستطع تجنب الانطباع بأنه يعود بحياته الخاصة الى الماضى ، فقد عبره أول مرة فى سنة ١٨١٣ ، عنـدما كان كولونيلا بالمليشيا مهزوما فى بلده بالذات ، ووصـل الى قرطاجنـة ديزاند من منفاه فى كوراسا وبحثا عن وسـائل لاسـتئناف الحرب · كانت غرناطة الجديدة مجزأة الى أقسام مستقلة ، وقضية الاستقلال تلهث تحت ثقل ردع الاسبانيين الشرس، وكان النصر النهائى يبدو غـير مؤكد من وقت الى آخـر · وأثناء رحلته الثالثة فى المركب التجارى كما يدعوه تمت عملية التحرير ، ولكن حلمه الجنونى تقريبا ، وهو توحيـد القارة بدأ يتحطم · وأثناء هذا الهبوط النهائى تبدد الحلم، ولكنه كان لا يزال يعيش مع ذلك فى تلك العبارة التى كان يرددها باستمرار : سيكون لأعدائنا كل المنافع طالما لا نوحد حكومة أمريكا ·

كانت رحلته الأولى هى أكثر رحلاته تأثيرا، بين الذكريات التى يشترك فيها هو وجوزيه بالاسيوس ، وذلك عندما قاموا

بحرب تحرير النهر ، ففي عشرين يوما ، وعلى راس مائتي رجل مسلحين بشتى أنواع الأسلحة لم يتركوا في حوض مجدالينا اسبانيا ملكيا واحدا على قيدالحياة • وادرك جوريه بالاسيوس الى أي حد تغيرت الأمور عندما رأوا في اليوم الرابع من رحلتهم هذه على سواحل القرى صفوفا من النساء تنتظر مرور الزورق وقال : هؤلاء هن الأرامل •• وانحنى الجنرال ورآهن متشحات بالسواد ، في صفوف متراصة على الشاطىء كالغربان المفكرة ، تحت الشمس اللافحة يتمنين ولو تحية مواسية • وكان من عادة الجنرال دييجو ايبارا ، شقيق اندريس ان يقول ان الجنرال اذا كان لم ينجب طفلا واحدا ، فانه كان على العكس الأب والأم لجميع أرامل الأمة ، فقد كن يتبعنه الى كل مكان ، ويبقيهن على قيد الحياة بكلمات مؤثرة كانت عبارة عن كلمات مواساة حقيقية • ومع ذلك فقد تحولت أفكاره نحو نفسه أكثر منها نحو الأرامل عندما رأى صفوفهن الكئيبة وقال :

ـ الأرامل الآن هم نحن ••• نحن اليتامى والعجزة ومنبوذو الاستقلال •

ولم يتوقفوا في أية بلدة قبل مومبوكس ، فيما عدا بويرتو ريال ، حيث يمتد الطريق الذي يربط اوكانا بمجدالينا • وهناك كان في انتظارهم الجنرال الفنزويلي جوزيه لورنسيو سيلفا الذي اضطلع بمهمة اصطحاب الرماة المتمردين حتى الحدود • وأقبل للانضمام الى الحاشية •

بقي الجنرال على سطح الزورق حتى المساء ثم هبط لكي ينام في معسكر مرتجل ، وفي أثناء ذلك استقبل في الزورق الأرامل والعجزة وجميع من أصابتهم الحروب بالاختلال والاضطراب ، الذين أرادوا رؤيته • كان يتذكر كل واحد منهم تقريبا ، بوضوح عجيب ، فمن بقي منهم في القرى كانوا يحتضرون في البؤس أما الآخرون فقد مضوا بحثا عن حروب

جديدة لكى يبقوا على قيد الحياة ، أو غدوا قطاع طرق ٠٠ عدد كبير من الذين آحالهم جيش التحرير الى التقاعد تشتتوا فى كل الاراضى الوطنية ٠ وقد أوجز أحدهم فى عبارة واحدة احساس الجميع بأن قال : « ان لدينا الاستقلال الآن يا جنرال فقل لنا ماذا نصنع به اليوم » ٠ وفى غمرة الانتصار علهم أن يتحدثوا هكذا ويذكروا الحقيقة ، ولكن الحقيقة غيرت السيد ٠ قال لهم : « ان الاستقلال ما هو الا قضية لابد من كسبها ، وان التضحيات الكبيرة يجب أن تأتى بعد ذلك لكى تجعل من الشعوب وطنا واحدا » ٠٠

ردوا عليه قائلين : ان التضحيات هى الشىء الوحيد الذى أنجزناه أيها الجنرال ٠

ظل جامدا ولم يتراجع عن رأيه وقال : لابد من التضحيات مرة أخرى ، فالوحدة لا ثمن لها ٠

وفى تلك الليلة بينما كان يتجول فى الجرن الذى علقوا فيه آرجوحته لكى ينام رأى امرأة تتحول اليه وهى فى طريقها لكى تنظر اليه ، ودهش لأن عريه لم يدهشها ٠ بل انه سمع كلمات الأغنية التى كانت تدندن بها : « قل لى ان الوقت ليس متأخرا أبدا للموت من الحب » وكان حارس البيت ساهرا تحت سقيفة عتبة البيت ٠ وسأله الجنرال :

ــ هل توجد هنا امرأة ؟

بدا الحارس واثقا من نفسه وهو يقول :

ــ لا توجد امرأة جديرة بفخامتك ٠

ــ وغير جديرة بفخامتى ؟

أجاب الحارس : وغير جديرة أيضا ٠ لا توجد أية امرأة الا على بعد فرسخ ٠

كان الجنرال شديد الثقة بأنه رآها بحيث بحث عنهـا في كل أرجاء البيت بعد ذلك • وأصر على أن يتحقق ملازموه من ذلك • وآخر رحيله في صباح اليوم التالى أكثر من ساعة، ولكنهم لم يجدوا أحدا • ولم يعد الى الحديث عنها ، ولـكن أثناء الاستراحة من الرحلة ، كان يعـود فيتحدث عنهـا مع جوزيه بالاسيوس • وقد بقي هذا الأخير عـلى قيد الحيـاة سنوات عديدة • وما تبقى له من الوقت لكى يتذكر حيـاته الماضية مع الجنرال كان من الكفاية لكى يتذكر أتفه التفاصيل التى مرت به • أما الشيء الوحيد الذى لم يستطع أن يجلوه فهو هل كانت تلك الرؤيا فى ليلة بربرتوريال حلما أو هذيانا أو شبحا •

ولم يتذكر أحد الكلب الذى التقطوه فى الطريق والذى راح يتسكع هنا وهنـاك بينما جراحه تنـدمل ، حتى أدرك المراسلة المختص بالحاشية أنه لا اسم له ، فقد نظفوه بحامض الفنيك ، وعطروه ، ولكنهم لم يفلحوا فى تخليصه من منظره البائس ومن جربه • وكان الجنرال يستنشق الهواء النقى فى مقدمة الزورق عندما جر جوزيه بالاسيوس الكلب نحوه وسأله :

ـ أى اسم نطلق عليه ؟

أجاب الجنرال من غير أن يفكر لحظة :

ـ بوليفـار !

كانت تقف بالميناء سفينة حربية صغيرة ما كادت تعلم ان أسطولا من الزوارق يقترب حتى انطلقت فى مواجهته . ورآها جوزيه بالاسيوس من نافذة السقيفة ، وانحنى فوق الأرجوحة حيث الجنرال ، مطبق العينين وقال :

ـ نحن فى مومبوكس يا سيدى .

قال الجنرال دون أن يفتح عينيه : أرض الله .

كان النهر ، كلما تقدموا ، يغدو أكثر اتساعا ومهابة كمستنقع لا شطآن له ، وتغدو الحرارة اكثر كثافة بحيث كان يمكن لمسها باليدين . وكان الجنرال قد تخلى بدون مرارة عن التطلع الى شروق الشمس اللحظى وغروبها المتقطع اللذين كانا يحتجزانه فى الايام الاولى فى مقدمة الزورق ، واستسلم للاحباط . لم يعد يملى اية رسائل ولم يعد يقرأ ، ولم يعد يلقى على مرافقيه أية أسئلة تدل على اهتمامه بالحياة ، وحتى اثناء ساعات القيلولة الشديدة الحر كان يلتف فى غطائه ، ويبقى فى أرجوحته ، مطبق العينين . وخشى جوزيه بالاسيوس ألا يكون قد سمعه ، فكرر عبارته ، ورد عليه الجنرال من جديد من غير أن يفتح عينيه :

ـ مومبوكس لا وجود لها . اننا نحلم بها أحيانا ولكنها غير موجودة .

قال جوزيه بالاسيوس : يمكنني على الأقل أن أؤكد لك وجود برج سانتا باربارا ، فانني أراه من مكاني هذا .

فتح الجنرال عينيه المتعبتين ، وجلس فى الأرجوحة ، ورأى فى ضوء الظهر المتوهج الأسطح الأولى لمدينة مومبوكس

القديمة والمنكودة الحظ التى خربتها الحرب وأفسدتها فوضى الجمهوريه ، واهلك الجدرى الكثير من اهلها • كان النهر قد بدا فى ذلك الوقت تغيير مجراه بازدراء كبير • كان يجب ان ينتهى قبل نهاية القرن فى اهمال تام • اما السد الحجرى الكبير الذى كان اعضاء المجلس المحلى يسارعون بترميمه فى اصرار عجيب عقب الاضرار التى تحيق به بعد كل فيضان، فلم يبق منه الا أنقاض مبعثرة فى شاطىء من الحصباء •

اقتربت السفينة الحربية من الزوارق ، ووجه ضابط أسود لا يزال يلبس زى البوليس القديم الخاص بالوفادة الملكية ، المدفع نحوهم • واستطاع الكابتن كازيلو سانتوس أن يصيح به :

ـ لا تكن أحمق •

توقف المجدفون على الفور ، وبقيت الزوارق تحت رحمة التيار ، وصوب الرماة بنادقهم نحو السفينة فى انتظار الأوامر • ولكن الضابط ظل رابط الجأش ، وصاح :

ـ جوازات المرور باسم القانون •

وعندئذ رأى هيكلا يظهر من تحت السقيفة ، ويدا منهوكة ولكنها زاخرة بسلطة لا ترحم يأمر صاحبها الجنود بخفض أسلحتهم ثم يقول للضابط بصوت رقيق :

ـ حتى اذا لم تصدقنى يا كابتن فليس معى جواز سفر •

كان الضابط يجهل من هو • ولكن عندما قال له فرناندو ذلك أسرع وألقى بنفسه فى الماء بأسلحته ، وما أن بلغ الشاطىء حتى راح يجرى لكى يطلع المدينة على النبأ السعيد • ورافقت السفينة الحربية أسطول الزوارق حتى الميناء وجرسها يدوى بكل قوة • ولم تكن المدينة قد ظهرت كلها

بعد عند منعطف النهر عندما قرعت أجراس الكنيسة الثمانية وصمت الآذان ·

كانت ساننتاكروز دى بومبوكس الميناء التجارى بين الساحل الكاريبى وداخل البلاد فى عهد الاحتلال الاستعمارى · وكان هذا بداية ثرائها · وعندما بدأت زوبعة الحرية فى الهبوب كانت تلك الخلوة الارستقراطية أول من نادى بها · واستردها الاسبان، ولكن الجنرال بنفسه حررها مرة أخرى · ولم يكن بها غير ثلاثة شوارع موازية للنهر ، عريضة وممتدة ومغبرة ، ببيوت متجانسة نوافذها عريضة ازدهر فيها خمسة من النبلاء الفرنسيين وصمدت فيها صناعة المصوغات على الرغم من تغيير الجمهورية ·

ولكن كان الجنرال هذه المرة قد تخلص من غرور مجده، ومهيا ضد العالم بحيث تملكته الدهشة وهو يرى جمهورا ينتظره فى الميناء · كان قد ارتدى فى عجالة كبيرة بنطلونا من القطيفة وجزمة عالية ، وألقى فوق كتفيه غطاء رغم الحر ، وبدلا من طاقية الليل لبس القبعة ذات الحواف التى ودع بها القوم فى هوندا ·

كانت هناك جنازة فى كنيسة كونسبشيون يحضرها أولو الأمر المدنيون ، وعدد كبير من رجال الكنيسة والطوائف الدينية والطلبة ورجال مرموقون بالملابس الرسمية، وتملكهم الارتباك والاضطراب وهم يسمعون رنين الأجراس ، وحسبوا أنه انذار حرب ، ولكن المحافظ دخل وهو فريسة اضطراب كبير وهمس فى أذن العمدة بالخبر ثم صاح لكى يسمعه الجميع :

ــ وصل الرئيس الى الميناء ·

لأن كثيرين كانوا يجهلون أنه لم يعد رئيسا · كان ساعى البريد قد مر يوم الاثنين، وأذاع فى كل قرى النهر الاشاعات

التي تدور في هوندا ، ولكنه لم يقدم أية ايضاحات ، بحيث جعل الالتباس مصادفة الاستقبال أكثر احتداما • وألغيت الجنازة تقريبا ، وشيعت جماعة من المقربين فحسب التابوت حتى المقبرة وسط عاصفة من الصواريخ ورنين النواقيس •

كان مجرى الماء ما يزال جافا بسبب الامطار الخفيفة بحيث انهم اضطروا الى أن يتسلقوا وهدة مملوءة بالانقاض لكي يبلغوا الميناء • وأبعد الجنرال في شيء من الاستياء رجلا تقدم لكي يحمله ، وصعد مستندا الى ذراع الكابتن ايبارا وهو يتعثر في كل خطوة ويظل واقفا بكل مشقة ولكنه تمكن من الصعود محتفظا بوقاره •

وفي الميناء صافح أولى الأمر بقبضة قوية لا دخل فيها لحالة جسده ولا لضآلة يديه ، والذين سبق أن رأوه في زيارته الأخيرة للمدينة داخلهم الشك في صدق ذاكرتهم فقد بدا مسنا جدا كابيه ، ولكن القليل من النفس المتبقي له كان من الكفاية لكي لا يسمح لأحد بالارتياب في الأمر • ورفض عربة يوم الجمعة المقدس التي أعدوها له ، ورضى أن يمشي حتى الكنيسة ، واضطر أخيرا أن يركب بغلة العمدة ، وكان هذا الأخير قد أعدها عندما رآه يهبط من الزورق وهو في هذه الحالة من الوهن •

وكان جوزيه بالاسيوس قد لاحظ في الميناء وجوها كثيرة مبقعة بجمرات الجدري • كان وباء عضالا انتشر في قرى مجدالينا ، وانتهى الأمر بالأهالي الى الخوف منه أكثر من خوفهم من الاسبان ، منذ أن أباد جنود التحرير أثناء حملة النهر • وفيما بعد واذ أصر الجدري على انتشاره ، استطاع الجنرال أن يقنع أحد علماء الطبيعة ، أثناء مروره بالبلدة بالبقاء لكي يحصن الأهالي بتلقيحهم بالمصل الذى يلقحون به البهائم المصابة بالجدري • ولكن المصل تسبب في موت الكثيرين بحيث رفض الجميع سماع أي شيء عنه ،

وفضلت أكثر الأمهات أخطار العدوى لأبنائهن عن أخطار الوقاية • ومع ذلك فقد كانت التقارير الرسمية التى كان الجنرال يتلقاها بحيث جعلته يصدق أن الوباء قد استؤصل، ولهذا عندما أخبره جوزيه بالاسيوس بعدد الوجوه المجدورة ، كان رد فعله دهشته أكثر منها تقززا وقال :

ـ سيكون الأمر هكذا دائما طالما سيستمر المسئولون فى الكذب علينا مراعاة لنا •

ولم ينم عن مرارته للذين استقبلوه فى الميناء ، بل ذكر لهم نبأ وجيزا عن وقائع استقالته وعن حالة الفوضى التى ترك فيها سانتا فى ، واصدر أمره فى نفس الوقت بمساندة جماعية للحكومة الجديدة وقال : ليس هناك خيار آخر فاما الوحدة واما الفوضى ، وأعلن انه راحل دون أى أمل فى الوحدة ، ليس للاستشفاء من آلام جسده العديدة والموجعة وانما للاستجمام واسترداد هدوئه من الهموم التى سببتها له آلام غير آلامه • ولكنه لم يحدد متى سيرحل ولا الى أين • وعاد فكرر ، دون أى داع لذلك ، بأنه لم يتلق بعد جواز الحكومة لمغادرة البلاد ، وشكرهم من أجل العشرين سنة من المجد التى منحتها له مومبوكس ، وطلب منهم آلا يميزه بأى لقب غير لقب المواطن العادى •

وكانت الكنيسة المزينة بقماش الحداد الرقيق والتى يفوح منها أريج الزهور وتتألق بالشموع المأتمية قد اجتاحتها الجماهير لتسبيحة شكر مرتجل • وأدرك جوزيه بالاسيوس ، وكان يجلس مع الحاشية . أن الجنرال غير مستريح فى مقعده • وعلى العكس كان العمدة ، وهو خلاسى عتيد ، له رأس اسد مهيب ، جالسا بجواره بكل ارتياح • وأعارت فرناندا ، أرملة بنجوميا ، التى تسببت بجمالها الكريولى فى كثير من الأضرار فى بلاط مدريد ، مروحتها المصنوعة من خشب الصندل للجنرال ، فى معاونة منها للتغلب على فتور

الحفل . فراح يحركها دون أمل ، كما لو لكي يواسي نفسه بتأثيرها الى آن بدأت الحرارة تضايق تنفسه . وهمس عندئذ في اذن العمدة :

ــ صدقني انني لا استحق هذا العذاب .

قال العمدة : لحب الشعب ثمنه يا صاحب الفخامة .

ــ ليس هذا حبا للأسف وانما هو فضول .

وبعد الانتهاء من تسبيحة الشكر أعاد المروحة لارملة بنجوميا وهو ينحني في احترام ، وأرادت أن تهديها اليه قائلة :

ــ شرفني بالاحتفاظ بها ، ذكرى من شخص يحبك .

أجاب . وا أسفاه يا سيدتي ، فلم يبق لي كثير من الوقت للذكريات .

آراد الكاهن أن يحميه من الحر تحت قبة الكنيسة اثناء انتقاله منها الى كلية سان بدرو أبوستول ، وهي مبنى من طابقين برواق رهباني مزخرف بالسرخس والقرنفل، وخلفه أرض منيرة مزروعة بأشجار مثمرة . وفي ذلك الفصل ، وحتى أثناء الليل ، لم يكن من المحتمل العيش في بواكي الممرات بسبب هواء النهر غير الصحي ، ولكن الغرف المجاورة للصالة الكبيرة كانت مصونة بجدران سميكة من الأسمنت تبقيها في عتمة خريفية .

سبقه جوزيه بالاسيوس لتجهيز كل شيء . كانت الغرفة ذات الجدران الخشنة والتي طليت حديثا بالجير غير مضاءة جيدا بسبب النافذة الوحيدة ذات المصراعين الخضراوين التي تطل على البستان . وغير جوزيه بالاسيوس من وضع الفراش حتى تكون النافذة التي تطل على الحديقة عند قدميه لا عند

راسه والذى يتمكن الجنرال من رؤية أشجار الجوافة الصفراء ويستنشق رائحتها ·

وصل الجنرال ، مستندا الى ذراع فرناندو ، ومعهما كاهن الكنيسة ، وهو فى نفس الوقت رئيس الكلية · وما كاد يجتاز الباب حتى استند بظهره الى الجدار وقد جذبته رائحة الجوافة المعروضة فى اناء فوق حافة النافذة والتى تملأ رائحتها جو الغرفة · وبقى هكذا ، مطبق العينين يشم تلك الرائحة التى أعادت اليه ذكريات قديمة مزقت قلبه حتى لم يعد يستطيع التنفس · وعندئذ فحص الغرفة بكل اهتمام ، كما لو ان كل شىء فيها يكشف له ذكريات قديمة ، ففضلا عن السرير ذى القبة ، كان هناك صوان من خشب الاكاجو ، ومنضدة صغيرة بجوار الفراش من نفس نوع الخشب فوقها قرص من الرخام وكرسى كبير منجد بالمخمل الأحمر ، وعلى الحائط ، بجوار النافذة ساعة مثمنة الأضلاع بأرقام رومانية متوقفة على الساعة الواحدة وسبع دقائق · وقال الجنرال :

ـ أخيرا شىء لم يتغير ·

دهش الكاهن وقال : معذرة يا صاحب الفخامة ، ولكننى لا أذكر أنك سبق أن أتيت هنا على الاطلاق ·

بدت الدهشة على جوزيه بالاسيوس هو الآخر ، لأنهما لم يأتيا الى هذا البيت من قبل ، ولكن الجنرال أيد ذكرياته بايضاحات مؤكدة بحيث بدت الحيرة على وجوه الجميع ، ولكنه ، مع ذلك ، حاول أن يطمئنهم بسخريته العادية فقال :

ـ لعل ذلك تجسيد سابق · ومهما يكن فكل شىء محتمل فى مدينة رأينا فيها رجلا محروما يمشى تحت قبة ·

وبعد قليل انقض على المدينة وابل من المطر صحبه رعد أغرق المدينة · وانتهز الجنرال الفرصة لكى يستريح من

حملة الاستقبال واستمتع باريج الجوافة . فى حين تظاهر وهو بكامل ثيابه بانه ينام على ظهره فى عتمة الغرفة . ثم نام فعلا فى الصمت الشافى ، بعد الطوفان ، وعرف جوزيه بالاسيوس ذلك لأنه سمعه يتكلم بالأسلوب السليم واللهجة الواضحة المميزة لشبابه اللذين لن يجدهما بعد الا فى الحلم . تكلم عن كاراكاس ، مدينة انقاض لم تعد مدينته بجدرانها التى تغطيها الاعلانات المهينة له ، وشوارعها التى تفيض بسيل البراز الآدمى . وسهر جوزيه بالاسيوس فى ركن من الغرفة وهو يحرص على الا يراه أحد لكى يتأكد من أن أحدا من غير الحاشية يمكن أن يسمع تلك الاعترافات التى يقر بها الجنرال فى منامه . وأرسل من الباب الموارب اشارة للكولونل ويلسون ، فأبعد هذا الأخير الحارس الذى يذرع الحديقة .

قال الجنرال : لا أحد هنا يحبنا ، ولا احد يطيعنا فى كاراكاس ، وقد تعادلنا .

واستطرد بمسحة من التحسرات المريرة ، خلاصة مجد متفكك حملته ريح الموت مهلهلا . وبعد ساعة من الهذيان استيقظ على صيحة جماعة فى الرواق وصوت معدنى متعاظم . وأطلق غطيطا فظا وقال دون أن يفتح عينيه . وفى صوت كان بسبب اليقظة :

ـ ماذا يحدث بحق الله ؟

كان الصوت صادرا من الجنرال لورنزو كاركامو ، المحارب القديم فى حروب التحرير والمعروف بطبعه الحاد وبشجاعته التى تكاد تتسم بالجنون ، يحاول الدخول عنوة فى الغرفة قبل الموعد المحدد للمقابلات . تحدى الكولونيل ويلسون بعد أن ضرب أحد ملازمى الرماة بالسيف ، ولم يستسلم الا لسلطة الكاهن الدائمة الذى قاده برقة الى المكتب المجاور . وصاح الجنرال محنقا بعد أن أخبره ويلسون بالأمر :

ـ قل لكاركامو انني مت ٠٠ هكذا ٠٠ انني مت ٠

ذهب الكولونل ويلسون لمواجهة العسكرى الراعد الذى كان قد ارتدى لهذه المناسبة زيه الاحتفالى المزين بمجموعة من الأوسمة الحربية ٠ ولكن كبرياءه كانت قد هبطت خمسة أمتار تحت الأرض ، وفاضت عيناه بالدموع ، وقال :

ـ كلا يا ويلسون ٠٠ لا تخبرنى بالرسالة ٠٠ اننى سمعت كل شيء ٠

وعندما فتح الجنرال عينيه ، رأى أن الساعة مازالت تشير الى الواحدة وسبع دقائق ٠ وملأها جوزيه بالاسيوس ، وضبطها مصادفة وتأكد على الفور انها قد انتظمت مع الوقت الصحيح فعلا بأن تحقق من ذلك من ساعتى جيبه ٠ وبعد ذلك بقليل دخلت فرناندا باريجا وقدمت للجنرال طبقا من اليخنى ، ولكنه رفض أن يتناوله رغم انه لم يذق شيئا منذ الأمس ، غير أنه أمر أن يوضع الطبق فوق المكتب ليأكل منه أثناء المقابلات ٠ واستسلم مع ذلك لاغراء الجوافة واختار منها واحدة من السلة ٠ وانتشى لحظة برائحتها ، ثم التهمها شيئا فشيئا فى شراهة وهو يتنهد ، ثم جلس فى الأرجوحة وسلة الجوافة بين ساقيه ، وأكلها كلها واحدة اثر الأخرى ، حتى دون أن يتيح لنفسه الوقت لكى يتنفس ٠ وفاجأه جوزيه بالاسيوس وهو يتلذذ بآخر ثمرة ، وقال له :

ـ اننا سنموت ٠

أجابه الجنرال بطيبة خاطر : اننا متنا فعلا ٠

وفى الساعة الثالثة والنصف بالتدقيق ، كما هو متوقع ، أمر بادخال الزائرين الى المكتب ، كل اثنين معا لأنه يستطيع بهذه الطريقة أن يصرف أحدهما بأن يجعله يفهم انه متعجل لسماع الآخر ٠ ووجده الدكتور نيكازيو دل فال الذى دخل

بين الأوائل مواسيا ظهره الى نافذة مضيئة تشرف علـى كل الضيعة وعلى المستنقعات التى يتصاعد منهـا الدخان عـلى مبعدة منها ، وكان يحمل فى يده طبق اليخنى الذى أحضرته فرناندا باريجا والذى لم يلمسه لأن عسر الهضم بسـبب الجوافة بدأ يسرى مفعوله • وأوجزالدكتور دل فال فيما بعد، انطباعه عن تلك المقابلة بعبارة عنيفة : « ان هذا الرجـل مشرف على الموت » واتفق جميع من مثل اليه على ذلك . كل بطريقته • ومع ذلك ، وحتى أكثر المتأثرين بسوء حالته ، ألحوا عليه لكي يزور القرى المجـاورة لمبـاركة أطفـالهم ، وافتتاح جمعيات خـيرية أو للتحقق من حالة الاهمـال التى اغرقتها فيها الحكومة •

وبعد ساعة ، أصبح الغثيان والاسهال بسبب الجـوافة امرا لا يطاق • واضطر الى ايقاف المقابلات رغم رغبته فى استقبال جميع الذين ينتظرونه منذ الصباح • ولم يعد هناك مكان في الحديقة لوضع العجول والماعز والدجاج وجميـع الحيوانات المختلفة التى أتوه بها كهدايا ، واضطر الرماة من جنود الحراسة الى التدخل حتى لا يكون هناك طفح ، ولـكن الهدوء عاد بعد هبوط الليل ، بفضل سيل جادت به العناية الالهية ، فصفا الجو وساد السكون •

ورغم رفض الجنرال الصريح ، أعدوا غداء شرف فى الساعة الرابعة بعد الظهر فى بيت مجاور ، ولكنهم احتفلوا بالغداء بدونه ، لأن الاسهال الذى تسببت فيه الجوافة جعله فى حالة استعجال حتى الساعة الحادية عشرة مساء • وبقى فى أرجوحته خائرا فريسة مغص واستروا حات واحساس بأن روحه تتلوى فى مياه متحركة • وجاءه الكاهن بدواء أعده صيدلى البيت ، ولكن الجنرال أقصاه قائلا : « اذا كنت قد فقدت السلطة بسبب مقيىء فان مقيئا آخر سيودى بى » • واستسلم لمصيره وهو يرتعش من تأثير العرق البارد فى عظامه

دون اى عزاء آخر الا الألحان الموسيقية التى تنبعث من الحفلة التى لم يحضرها · وشيئا فشيئا هدأت عاصفة بطنه وزال الالم ، وتوقفت الموسيقى ، وبقى جامدا ، طافيا فى العدم ·

أوشك مروره السابق بمومبوكس ان يكون الأخير · كان قد عاد من كاراكاس بعد أن حصل بسحر شخصيته على مصالحة عاجلة مع الجنرال جوزيه انطونيوبايز ، الذى كان على الرغم من ذلك بعيدا عن التخلى عن حلمه الانفصالى · وكانت كراهيته لسانتاندر معروفة للعامة إلى حد أنه رفض الاستمرار فى تلقى رسائله لانه لم يعد يثق لا فى أخلاقه ولا فى قلبه · وقد كتب له « وفر على نفسك عناء الادعاء بأنك صديقى » والسبب المباشر لكراهيته لسانتاندر هو أن هذا الأخير وجه خطابا الى أهالى كاراكاس قال فيه ، دون أى تفكير ان كل أعماله كانت موجهة الى تحرير ومجد كاراكاس ، وعند عودته الى قرطاجنة الجديدة حاول اصلاح زلة لسانه بعبارة وجهها الى قرطاجنة ومومبوكس قال فيها : اذا كانت كاراكاس قد منحتنى الحياة ، فأنت قد منحتنى المجد · ولكن العبارة كانت تنم عن خبث لتصحيح خطابى ولم تكن من الكفاية لوضع حد نهائى لديماجوجية السانتاندريين ·

وعاد الجنرال الى سانتا فى مع فرقة من الجيش لمنع كارثة نهائية ، وانتظر حتى ينضم اليه آخرون ليبذل مرة أخرى كل جهده لعملية التوحيد ، وقال عندئذ ان تلك اللحظة حاسمة ، تماما كما فعل عندما مضى لتفادى انفصال فنزويلا ، وأتاح له شىء من التفكير أنه منذ ما يقرب من عشرين سنة لم يكن أى عمل فى حياته شيئا آخر غير حاسم ، وقد كتب فيما بعد وهو يتذكر تلك الأيام : « ان الكنيسة جمعاء والناس جميعا والغالبية العظمى من أمتى فى جانبى» ·· ولكن رغم كل هذه الأوراق الرابحة ثبت مرارا كثيرة أنه عندما يبتعد عن الجنوب لكى يمضى الى الشمال والعكس

بالعكس ، فان البلد الذى يغادره ينهار رغما عنه ، وان حروبا جديدة تدمره · كان هذا قدره ·

لم تضع الصحافة السانتاندرية اية فرصة لكى تنسب الهزائم العسكرية الى فجوره الليلى ، وبين العديد من الاكاذيب التى نشرتها تلك الجرائد فى سانتا فى لتلطيخ مجده أنه ليس هو الذى قاد معركة بوياكا التى بمقتضاها ثم ختم الاستقلال فى الساعة السابعة من صباح اليوم السابع من أغسطس سنة ١٨١٩ وانما هو الجنرال سانتاندر ، لأنه كان فى تونجا برفقة سيدة سيئة السمعة تنتمى الى شركة وقادة الحكم الاسبانى ·

وعلى كل حال لم تكن الصحافة السانتاندرية الوحيدة التى تتصدى لموضوع لياليه المجونية لافقاده الاعتبار ، فقد زعموا ، قبل النصر وأثناء حروب الاستقلال أن ثلاث معارك على الأقل قد خسرت لأنه لم يكن موجودا حيث يجب أن يكون ، وانما فى فراش امرأة · وأثناء زيارة أخرى لومبوكس، مرت قافلة من النساء من مختلف الأعمار والألوان بالشارع الكبير ، شبعت الهواء بعطر مهين وهن يمتطين الجياد كالأمازونات ويمسكن فوق رؤوسهن بمظلات من القماش المطبوع ، ويرتدين ثيابا من الحرير الرقيق لم تشهد المدينة مثله أبدا · ولم يكذب أحد الاشاعة التى جرت بأنهن محظيات الجنرال وانهن سبقنه الى القدوم · وكانت اشاعة كاذبة ككثير غيرها ظلت تلاحقه حتى بعد موته ·

لم يكن من المستغرب استخدام مثل هذه المعلومات الكاذبة ، وقد استخدم الجنرال نفسه هذه الأساليب أثناء الحرب ضد اسبانيا ، عندما أصدر أمره لسانتاندر بطبع أنباء كاذبة لخداع القادة الاسبان ، بحيث انه بعد اقامة الجمهورية عتب على سانتاندر استخدامه السيىء لصحافته ، فرد عليه هذا الأخير فى سخرية رقيقة :

ـ لقد كنا في مدرسة طيبة يا صاحب الفخامة •

أجابه الجنرال ، بل في مدرسة فاجرة لأنه لابد أن تعرف ان المعلومات التي اختلقناها قد انقلبت علينا •

كان الى هذا الحد حساسا نحو كل ما يقال عنه ، سواء كان حقيقة أم كذبا ، بحيث لم يسلم ابدا من اية فرية ، ركافح حتى اخر يوم من حياته لتكذيبها • ومع ذلك فلم يتق شرها في مناسبات أخرى ، فأثناء مروره ذات مرة بمومبوكس جازف بمجده في سبيل امرأة •

كانت تدعى جوزينا سجراريو ، من طبقة أعيان مومبوكس ، شقت طريقا ، مارة بمراكز الحراسة السبعة متنكرة في زى الرهبان واستخدمت كلمة السر ، وكان جوزيه بالاسيوس قد أعطاها لها وهى « أرض الله » • وكانت ناصعة البياض بحيث ان بهاء جسدها كان يظهرها في الظلام • ومع ذلك فان فخامة زينتها في تلك الليلة تجاوزت جمالها لأنها لبست فوق ثوبها درعا مرصعا بمصاغ محلى عجيب ، بحيث انه عندما آراد أن يحملها الى أرجوحته لم يسمح له ثقل الذهب حملها الا بمشقة كبيرة • وفي الصباح المبكر ، وبعد ليلة جامحة راعها سرعة مرور الوقت وتوسلت اليه آن يبقيها ليلة أخرى •

كان ذلك مجازفة كبيرة ، لأنه طبقا لمخابرات الجنرال كان سانتاندر قد دبر مؤامرة للاستيلاء على السلطة وتقسيم كولومبيا • ومع ذلك فقد بقيت عشر ليال لا ليلة واحدة ، وكانا سعيدين بحيث انهما اعتقدا أنهما متحابان حقا أكثر من أى أحد آخر في الدنيا •

تركت له ذهبها وهى تقول له : من أجل حروبك • ولكنه لم يستخدمه لارتيابه في أنه ثروة مكتسبة في الفراش عن طريق غير شريف ، وعهد به الى صديق ، ونسيه بعد

ذلك . وعند زيارته الاخيرة لمومبوكس ، بعد عسر الهضم الذى أصابه بسبب الجوافة فتح الصندوق ليجرد ما فيه ، وعاد الى ذهنه عندئذ الاسم والتاريخ .

كان منظرا عجيبا ، فقد كان درع جوزيفينا سجراريو الذهبى مرصعا بكل الانواع المبتكرة فى فن الصياغة ويزن ثلاثين رطلا . وكان هناك أيضا طاقم مكون من ثلاث وعشرين شوكة وأربع وعشرين سكينة واربع وعشرين ملعقة ، وثلاث وعشرين ملعقة صغيرة وملاقط صغيرة للسكر ، كلها من الذهب الخالص ، وادوات أخرى نفيسة تركها هنا وهناك ، عهدة مع بعض الناس ، ونسيها بعد ذلك . وفى فوضى الممتلكات الخيالية للجنرال لم يفاجأ أحد باكتشاف هذه الأشياء فى أماكن غير متوقعة على الاطلاق . ووضع تعليماته بوضع الطاقم فى أمتعته وأن يعاد صندوق الذهب الى صاحبته . ولكن ما كان أشد دهشته عندما علم من بين شفتى المدير الدينى لدير سان بدروا أبوستول أن جوزيفا سجراريو تعيش منفية فى ايطاليا لتآمرها على أمن الدولة ، فقال :

ـ من الواضح أنها أكاذيب سانتاندر .

قال الراهب : كلا يا سيدى الجنرال .. انت نفسك التى نفيتها مع غيرها دون أن تدرك ذلك بسبب اضطرابات سنة ١٨٢٨ .

ترك صندوق الذهب حيث كان بينما اتضحت الامور فى ذهنه ، ولم يهتم بالمنفية بعد ذلك ، لأنه كان واثقا ، كما قال لجوزيه بالاسيوس من انها ستعود مع أعدائه المنفيين ، بمجرد أن يبتعد عن سواحل قرطاجة . وقال :

ـ لا ريب ان كاساندر يعد الآن أمتعته .

والواقع أن الكثيرين من المنفيين عادوا بمجرد أن عرفوا أنه انطلق فى طريقه الى أوروبا ، ولكن الجنرال سانتاندر ..

وهو رجل معروف بتردده الشديد وبنواياه التي لا يمكن سبرها ، كان من اواخر الذين عادوا ، فقد وضعه نبأ استقالة الجنرال في حالة ترقب، بيد انه لم يبد أية اشارة للعودة ولم يعجل رحلاته المتعطشة للدراسة التي بدأها في مختلف بلاد اوروبا منذ أن هبط هامبورج في أكتوبر من العام الماضي • وفي الثاني من مارس قرأ في « جورنال دى كومرس » أن الجنرال مات . ومع ذلك فلم يبدأ رحلة العودة الطويلة الا بعد ستة شهور ، عندما أعادت له حكومة جديدة رتبته وأمجاده العسكرية ، وانتخبه الكونجرس في غيابه رئيسا للجمهورية •

قبل أن يغادر الجنرال بومبوكس قام بزيارة ودية للرونزو كاركامو ، زميله القديم في الحرب ، وعرف عندئذ فحسب بأنه مصاب بداء خطير وانه نهض بالأمس لا لشيء الا لكي يسلم عليه • ورغم ما يعانيه من مرضه، كان كاركامو يحاول أن يسيطر على قواه ، وراح يتكلم في صوت مدو بينما كان يجفف بوسادته الدموع التي تنهمر من عينيه دون أن تكون لها أية علاقة بحالته الذهنية •

شكا كل منهما للآخر آلامه ، وتفاهة الشعوب وجحود النصر ، وصب كل منهما غضبه على سانتاندر الذى كان دائما موضوع حديث اضطرارى بينهما • لم يكن الجنرال صريحا هكذا غير مرات قليلة ، ففي خلال حملة ١٨١٣ شهد كاركامو مشادة عنيفة بين الجنرال وسانتاندر ، عندما رفض هذا الأخير اطاعة الأمر باجتياز الحدود لتحرير فنزويلا مرة ثانية • وظل الجنرال كاركامو يفكر في هذا الأمر الذى كان سبب البغضاء الخفية التي لم تستطع مسيرة التاريخ الا مغالاتها •

وكان الجنرال يظن أن هذه ليست نهاية صداقة كبيرة ، وانما على العكس بدايتها ، ولم يكن صحيحا أيضا أن أصل الخلاف هو الامتيازات الممنوحة للجنرال بايز ، ولا الدستور

البـوليفي التعس ، ولا التقليـد الامبراطـوري الذي قبله الجنرال في بيرو ، ولا الرئاسة ولا مجلس الشيوخ اللذان حلم بهما مدى الحياة من أجل كولومبيا ، ولا السـلطات المطلقـة التي اضطلع بها بعد اتفاقية اوكانا • كلا ، لم تكن تلك هي الأسباب التي تسببت على مر السنين حتى مؤامرة الاغتيال في الخـامس والعشرين من سـبتمبر ، في البغضـاء المروعة . فالسبب الحقيقي ، كمـا ذكره الجنرال هـو ان سانتاندر لم يقبل أبدا فكرة أن تتحد هذه القارة وان تغدو بلدا واحدا . فان وحدة أمريكا كبيرة جـدا بالنسـبة له • والقى نظرة الى لورنزو كاركامو الراقد في فراشه كما لو كان راقدا في آخر ميدان حرب خاسرة الى الأبد، ووضع حدا للزيارة قائلا :

ـ وطبعا لم يعد كل هـذا يساوى شـيئا مادام المـوت ينتظرنا •

رآه لورنزو كاركامو ينهض حزينا ومكتئبا ، وأدرك أن الذكريات بالنسبة لهما معا أثقل من السنين • وعنـدما احتجز يده بين يديه رأى أن كل منهما محموم وتسـاءل من منهما سيزوره المـوت أولا ويمنعهما من أن يرى أحـدهما الآخر ، وقال :

ـ ما أغرب هذه الدنيا يا عزيزى سيمون ! •

قال الجنرال : لقد سفهوها لنا ، والشيء الوحيـد الذى يبقى لنا هو أن يعود كل شيء ويبدأ من جديد •

قال لورنزو كاركامو : وسوف نفعل ذلك •

قال الجنرال : أما أنا فلا ، فلم أعد أصلح الا لصـندوق القمامة •

أعطاه لورنزو ، كتذكار ، مسدسين في جراب جميل من الجوخ القرمزي • كان يعرف أن الجنرال لا يحب الأسلحة النارية ، وانه اختار في المناسبات النادرة الشخصية السيف •

ولكن هذين المسدسين كانت لهما قيمة معنوية لأنهما استخدما في مبارزة غرامية كانت نتيجتها سعيدة ، وقبلها الجنرال متأثرا • وبعد ذلك ببضعة أيام ، عرف ، وهو في توررباكو أن الجنرال كاركامو قد وافته المنية •

استؤنفت الرحلة في مساء الأحد ٢٣ مايو تحت فال حسن • وقد راحت الزوارق تنساق مع المياه أكثر من انقيادها للمجدفين مختلفة وراءها جروفا من الطباشير وسراب الكثبان الرملية ، وبدت العوامات المصنوعة من جذوع الأشجار ، هذه المرة أكثر وأسرع • وعلى العكس من تلك التي رأوها في الأيام الأولى ، أقيمت فوق تلك العوامات أكواخ صغيرة بأحواض للزهور ، وثياب تجف على النوافذ ، وحملت بدجاج مسيج وأبقار حلوب وأطفال معوقين يلوحون بأيديهم تحية للزوارق حتى بعد مرورها بهم ، وفي الفجر رأوا قرية زامبرانو ، متألقة تحت أشعة الشمس الأولى •

كان ينتظرهم ، تحت الشجرة الضخمة بالميناء دون كاستولو كامبيللو المكنى بالنيني • وكان قد أعد في بيته طاجنا من اليخني باللحم تشريفا للجنرال ، وجاءت الدعوة ردا على الأسطورة القائلة بأنه في زيارته الأولى لزامبرانو ، تناول الغداء في نزل غير مشهور بشاطيء الميناء ، وصرح وقتئذ من أنه لابد أن يعود مرة أخرى لتناول طاجن اللحم الذى اشتهرت به المدينة • وقد انفعلت صاحبة النزل بأهمية ضيفها فطلبت من آل كامبيللو ، وهي أسرة كريمة ، أن تعيرها الأطباق ومفارش السفرة • ولم يتذكر الجنرال أبدا تفاصيل تلك الزيارة الأولى ، ولم يتأكد لا هو ولا جوزيه بالاسيوس من أن اليخني هو نفس يخني فنزويلا باللحم السمين • ومع ذلك فقد اعتقد الجنرال كارينو أنه مطابق ، وانهم سبق أن تناولوه فعلا على الشاطيء ، ولكن ليس أثناء حملة النهر وانما قبل ذلك بثلاثة شهور ، عندما ركبوا

السفينة البخارية ، ووافقه الجنرال على شهادته فى مواضع. فقد كانت ذاكرته تضعف شيئا فشيئا وتثير قلقه .

اقيم غداء الرماة فى الحديقة ، تحت اشجار النور الضخمة ، وقدم فوق موائد مفروشة باوراق اللوز ، بينما اعدت فى الشرفة الداخلية للجنرال وضباطه وبعض المدعوين مائدة فخمة طبقا للعادات الانجليزية الدقيقة . وذكرت صاحبة البيت أن أخبار مومبوكس فاجأتهم فى الساعة الرابعة صباحا ، وقد اسعفهم الوقت فى آخر لحظة للتضحية بأفضل بقرة من مواشيهم ، وكانت فوق المائدة مقطعة فى قطع لذيذة مسلوقة على نار حامية وفى ماء وفير ممزوج بكل فواكه البستان .

وعندما علم الجنرال أنهم اعدوا وليمة دون اخطاره نيرم واضطر جوزيه بالاسيوس الى أن يبذل كل جهده لكى يقنعه بالنزول من الزورق . وقوبل بحفاوة أعادت اليه بشاشته ، وأطرى بحق الذوق الجميل للبيت . ورقة فتيات الاسرة الخجولات والظريفات اللاتى قمن بخدمة المائدة فى يسر ودعة ، وأطرى على الخصوص نقاء الأوعية ورقة أدوات المائدة الفضية المحفورة بشعار البيت الذى أفلسته تصاريف العهد الجديد ، ولكنه استخدم أدواته الخاصة لكى يأكل .

تسببفى استيائه الوحيد فرنسى يعيش فى حمى آل كامبيللو ، وحضر الغداء وهو يحرص كل الحرص عى اطلاع مثل هؤلاء الضيوف المرموقين على معلوماته حول ألغاز هذه الحياة والحياة الأخرى . فقد كل شيء فى حادث غرق ، واحتل البيت منذ ما يقرب من سنة هو وحاشيته من المساعدين والخدم ، فى انتظار نجدة غير أكيدة يجب أن تأتيه من أورليانز الجديدة . وعرف جوزيه بالاسيوس ان اسمه ديوكليس أطلانطيك ، ولكنه لم يستطع أن يعرف درجة علمه ولا نوع المهمة التى يقوم بها فى غرناطة الجديدة .

ولو انه كان عاريا وممسكا فى يده شوكة ثلاثية لكان أشبه بالملك نبتون ، وكان مشهورا فى الغربة بأنه رجل جلف ولا يعنى بمظهره . ولكن الغداء مع الجنرال أثار انفعاله الى حد أنه حضر المأدبة بعد أن اغتسل ونظف أظافره وارتدى رغم حر شهر مايو زى الصالونات الشتوية فى باريس : السترة الزرقاء ذات الأزرار الزاهية والبنطلون المخطط طبقا للموضة التى كانت شائعة فى حكومة المديرين .

الفى منذ اللحظة الاولى فى أذهان الجميع معرفة موسوعية بلغة قشتالية سليمة . وقال ان أحد زملائه فى المدرسة الأولية بجرينوبل فك رموز الحروف الهيروغليفية المصرية بعد أربع عشرة سنة من الارق ، وان الذرة لا تنتمى أصلا الى المكسيك وانما الى منطقة بالعراق حيث عثروا على متخلفات حجرية سابقة كولومبس الى جزر الانتيل ، وأن الأشوريين حصلوا على أدلة اختبارية فيما يتعلق بتأثير النجوم على الأمراض ، وان اليونانيين لم يعرفوا القطط الا فى سنة ٤٠٠ قبل الميلاد ، على عكس ما تقول احدى الموسوعات الحديثة . وراح ينتهز الفرصة وينتقل من موضوع الى آخر ، ولم يتوقف الا لكى يتذمر من العيوب الثقافية لفن الطهى الكريولى .

وكان الجنرال جالسا أمامه ، ولم يعره أكثر من اهتمام مهذب ، متظاهرا بأنه يأكل دون أن يرفع عينيه عن طبقه . حاول الفرنسى منذ البداية أن يحدثه بلغته وراح الجنرال يرد عليه بنفس اللغة برقة ، ولكنه كان يعود على الفور الى اللغة الاسبانية . ودهش جوزيه بالاسيوس فى ذلك اليوم لتجمله بالصبر ، وهو يعرف الى أى حد يثير الاستبداد الأوروبى سخطه .

كان الفرنسى يوجه الحديث بصوت عال الى المدعوين المختلفين حتى البعيدين جدا . ولكن كان من الواضح أن

اهتمام الجنرال هو وحده الذى يستأثره ، وسأله فجاة فى صوت متهافت كيف سيكون في النهاية نظام الحكومة بالنسبة للجمهوريات الجديدة ، وسأله الجنرال بدوره من غير ان يرفع عينيه عن طبقه :

ـ وأنت ، ما رأيك ؟

أجاب الفرنسى : أظن أن نظام بونابرت مناسب لنا وللعالم أجمع ٠

قال الجنرال بدون أن يخفي سخريته : لا أشك لحظة واحدة فى اعتقادك هذا ، فالأوروبيون يفكرون أن ماتبتكره أوروبا فحسب خير للدنيا كلها ، وكل ما هو مخالف ممقوت ٠

قال الفرنسى : كنت أظن ان فخامتك المحرض للنظام الملكى ٠

رفع الجنرال عينيه للمرة الأولى وقال : أنت لا تعرف شيئا على الاطلاق اذن ٠ لن يدنس جبينى تاج أبدا ٠

وأشار بأصبعه الى ملازميه واستطرد : وايتوربيد هنا لكى يذكرنى بذلك ٠

قال الفرنسى : وبهذه المناسبة ، فان التصريح الذى أدليت به عندما أعدموا الامبراطور بالرصاص قد أحيا أملا كبيرا عند الملكيين الأوروبيين ٠

قال الجنرال : لن أغير كلمة واحدة مما قلت فى تلك المناسبة ٠ اننى أشعر بكل اعجاب لاقدام ايتوربيد على مثل هذه الأشياء الخارقة ، ولكن لينقذنى الله من مصيره كما حفظنى من تصرفاته ، رغم أننى أعلم أنه لن يخلصنى أبدا من نفس الجمود ٠

وحاول أن يخفف من مرارته وقال ان مبادرة اقامة نظام ملكى فى الجمهورية قد طرحها الجنرال جوزيه أنطونيو بايز ،

ثم تضاعفت مدفوعة بكل أنواع المصالح الخاطئة ، وأنه هو نفسه قد انتهى به الأمر الى التفكير فيها ولكن مستترة تحت قناع رئاسة طوال الحياة كصيغة يائسة للحصول على وحدة أميركا والحفاظ عليها بكل ثمن . ولكنه لم يلبث أن تحقق من عدم منطقية ذلك • واختتم حديثه قائلا :

ـ والأمر على النقيض مع النظام الاتحادى، فيخيل لى انه ممتاز جدا لبلادنا لأنه يمتضى مزايا ومواهب ارفع بكثير لمواطنينا •

قال الفرنسى : ليست الأنظمة على كل حال هى التى تجرد التاريخ من انسانيته وانما الافراط فيها •

قال الجنرال : اننا نعرف هذا الكلام عن ظهر قلب، وهو فى الواقع نفس حماقة بنجامان كونستان،اكبر رجال أوروبا طيشا ، فقد كان ضد الثورة التى قاومت نابليون ، ثم غدا بعد ذلك واحدا من أنصاره ، ينام فى أغلب الأحيان جمهوريا ويستيقظ ملكيا أو العكس بالعكس ، ثم جعل من نفسه أمينا مطلقا لحقيقتنا بفضل سلطة أوروبا المطلقة •

قال الفرنسى : ان حجج كونستان ضد الاستبداد واضحة جدا •

ـ ان مسيو كونستان ، مثل كل الفرنسيين ، متعصب للمصالح المطلقة • والشىء الوحيد الواضح فى هذه المجادلة ذكره الراهب براد ، فهو يقول ان السياسة تخضع للمكان وللحظة التى تقع فيها ، فأثناء الحرب الطاحنة أصدرت أنا نفسى أمرا باعدام ثمانمائة أسير اسبانى فى يوم واحد ، بما فى ذلك مرضى مستشفى لاجويارا • واليوم ، وفى ظروف مماثلة ، لن يرتعش صوتى لكى أصدر هذا الأمر من جديد، ولن تكون للأوروبيين أية سلطة معنوية لكى يلوموني على ذلك ، لأنه لو كان هناك تاريخ غارق فى الدم والظلم فهو تاريخ أوروبا بالذات •

كان كلما يتعمق فى التحليل يؤجج غضبه بالذات فى الصمت المطبق الذى كان يبدو أنه ينتشر فى القرية كلها - وحاول الفرنسى المذهول أن يقاطعه ولكن الجنرال اوقفه بحركة من يده ، وذكره بالمذابح الفظيعة فى التاريخ الأوروبى ، وليلة سان بارتليمى التى بلغ فيها عدد الموتى ألفين فى ساعتين ، وفى بهاء عصر النهضة قام اثنا عشر الفا من الجنود المرتزقة الذين يعملون لحساب الجيوش الامبراطورية بنهب وسلب روما ، وذبحوا ثمانية آلاف من مواطنيها ، وايفان العظيم قيصر كل الروسيين والمعروف باسم الرهيب أهلك جميع أهالى المدن الواقعة بين موسكو ونوفجورود ، وفى تلك المدينة الأخيرة قتل فى هجوم واحد أهاليها العشرين ألفا لأنه شك فى أنهم يتآمرون ضده •

واختتم الجنرال حديثه بأن قال :

ــ بحيث اننى أرجوك الا تملى علينا ما يجب أن نعمل ، ولا تحاول أن تعلمنا كيف يجب أن نكون ، ولا تحاول أن تجعل منا أندادا لكم ، ولا تطالبنا بأن نحسن ما أفسدتموه أنتم فى ألفى سنة •

وعقد الشوكة والسكين فوق طبقه ، وحدق فى الفرنسى لأول مرة بعينيه الغاضبتين وقال :

لا تتدخل فيما لا يعنيك يا سيدى ، ودعنا نفعل بالعصر المتوسط ما نرى أنه الأفضل •

ضاقت أنفاسه واعترته نوبة جديدة من السعال ، ولكن عندما استطاع التغلب عليها كان غضبه قد تبخر ، وتحول الى نينى كابيللو ، وكافأه بأحسن ابتساماته وقال له :

ــ سامحني يا صديقى العزيز ، فمثل هذه الأقوال غير جديرة بمثل هذه المأدبة المشهودة •

روى الكولونل ويلسون هذا الحادث لأحد مؤرخي ذلك الوقت ، ولكن المؤرخ لم يحاول أن يسجله وقال : ان الجنرال المسكين رجل ضائع • والواقع أن جميع من رأوه فى هــذه الرحلة الأخيرة كانوا مقتنعين من ذلك ، ولا ريب أن هذا هو السبب فى أن ما من أحد ترك شهادة مكتوبة ، بل ان بعض حاشيته بلغ بهم الأمر الى أنهم ذكروا ان الجنرال لن يدخــل التاريخ •

كانت الغابة أكثر كثافة بعد زامبرانو ، وغدت القرى أكثر مرحا وأزهى لونا ، وفى بعض منها صدحت الموسيقى دون سبب ظاهر ، واستلقى الجنرال فى أرجوحته محــاولا هضم وقاحات الفرنسى بفضل قيلولة مهدئة • ولكن لم يكن ذلك يسيرا عليه فلم يستطع أن يقصيه عن ذهنه ، واشــتكى لجوزيه بالاسيوس بأنه لم يجد فى الوقت المناسب العبارات الصــائبة والحجج النهائيــة التى واتتــه الآن ، فى وحــدة أرجوحته ، وقد أصبح غريمه بعيدا عنه ، ومع ذلك ، فقــد أحس بأنه على ما يرام فى المساء ، وأصدر تعليماته للجنرال كارينو لكى تحاول الحكومة تخفيف مصير الفرنسى المغضوب عليه •

أطلق أغلب الضباط العنــان لمرحهم وسرورهم بســبب وجودهم على مقربة من البحر ، وقد شجعهم على ذلك ادراكهم بتقلبات الطبيعة ، فراحوا يمــدون يد العــون للمجدفين ، ويصطادون التماســيح بحرابهم ويعقدون أســهل المهمــات باستخدام طاقاتهم المخزونة فى الأعمال الشاقة • وعلى العكس راح جوزيه لورنسيو سيلفا ينام بالنهار ويشتغل بالليل كلما أمكنه ذلك وهو فريسة لخوف قديم من أن يغدو ضريرا بسبب اصابة عينه بالماء الأزرق كما حدث لأغلب أعضاء أسرته من ناحية أمه • كان يقوم فى الليل لكى يتعلم كيف يعمــل اذا ما أصبح ضريرا • وقد سمعه الجنرال كثيرا ، أثناء أرقه ، فى المعسكرات يقوم بأعماله اليدوية ، فينشر خشب الأشجار

ويصقله بالفارة ويضم قطعه مخففا صوت المطارق حتى لا يقلق أحلام الآخرين • وفي صباح اليوم التالى ، في وضح النهار كان من الصعب أن يصدق أحد أن مثل تلك الأعمال قد تمت في الظلام ، وفي بورتوريال ، أثناء الليل ، أسعف الوقت جوزيه لورنسيو سيلفا بأن ينطق بكلمة السر للحارس الذى أوشك أن يطلق عليه النار معتقدا أنه يحاول أن يتسلل في الليل الى أرجوحة الجنرال •

أصبح الابحار أكثر سرعة وسهولة ، والطارىء الوحيد تسببت فيه سفينة بخارية للكومودور البرس مرت في الاتجاه المضاد وهي تصفر ، وعرضت دوامتها الزوارق للخطر • ونظر الجنرال اليها في تفكير حتى ابتعد الخطر واختفت السفينة عن بصره وتمتم « المحرر » ثم قال كأنه يقلب صفحة من كتاب : « والعجيب أنه أنا » •

وظل ساهرا في أرجوحته طوال الليل ، في حين راح المجدفون يتسلون بالتحقق من أصوات الغابة : القرود الكبوشية والببغاوات والأفاعي • وفجأة روى أحدهم أن آل كامبيللو دفنوا في الحديقة آنية المطبخ الانجليزية والأقداح الكريستال والمفارش الهولندية ، مخافة من أن يكون السل معديا •

كانت هذه أول مرة يسمع فيها الجنرال بذلك التشخيص العامي رغم أنه كان معروفا بطول النهر ، ولن يلبث أن يعرفه جميع من في الساحل ، وأدرك جوزيه بالاسيوس أن ذلك التشخيص قد أزعج الجنرال لأنه كف عن التأرجح في أرجوحته ، وبعد تفكير طويل قال :

ـ انني استخدمت أدواتي الخاصة في تناول طعامي •

وفي صباح اليوم التالى رست الزوارق في مرفأ تينيريف لتعويض المؤن التي غرقت في البحر • وبقي الجنرال في

زورقه متخفيا ولكنه أرسل ويلسون للبحث عن تاجر فرنسي يدعى لينوا أو لينوار ، له ابنة تدعي أنيتا ، في الثلاثين من عمرها • واذ لم يسفر البحث في تينيريف عن شيء أصدر امره بمتابعة التحري في القرى القريبة من جاتيانو وسالامينا والبنيور حتى اضطر ان يسلم بالواقع ، بأن الأسطورة لا تستند على أي أساس من الصحة •

كان اهتمامه مفهوما لأنه طوال سنوات ، من كاركاس حتى ليما لاحقته اشاعة خادعة بأنه وقع بينه وبين أنيتا لينوا حب محرم وجنوني أثناء مروره بتينيريف في ذروة حملة النهر • وازعجته تلك الاشاعة رغم أنه لم يستطع أن يفعل شيئا لتكذيبها، اولا لأن أباه «الكولونل جوان فيسنت بوليفار كان هو الآخر ضحية ملاحقات كثيرة وقضايا أمام اسقف» قرية سان ماتيو بسبب اغتصابات مزعومة لبنات قاصرات وحتى لفتيات ناضجات ، وبسبب صداقاته المنحرفة مع نساء آخر كثيرات في الممارسة الملتهبة لحقه في التفخيذ ، وثانيا لأنه أثناء حملة النهر لم يبق في تينيريف غير يومين ، وهى مدة غير كافية لمثل هذا الحب العنيف • ومع ذلك فان الأسطورة تدعمت بحيث انه كان في مقبرة تينيريف قبر فوقه شاهد محفور باسم آن لينوار ، كان حتى آخر القرن مزارا للعشاق •

كانت الآلام التي يحس بها جوزيه مارفا كارينو ، من حاشية الجنرال، بسبب ذراعه المبتورة ذريعة لتهكمات ودية • كان يحس بحركات يده ويتأثر بملامسة أصابعه وبالألم الذي تسبب له في الجو السيىء عظامه غير الموجودة • ولكنه كان يحتفظ بما يكفي من المجون لكي يضحك من نفسه ، وفي المقابل ، كانت تقلقه عادته في الرد على الأسئلة وهو نائم • كان يتحرر من غير أن يمنعه أي شيء فيكشف عن أمور وأشياء ما كان الا ليحتفظ بها لنفسه لو أنه في حالة اليقظة • بل انهم اتهموه ذات مرة ، دون أية أدلة • بأنه أفشى سرا

عسكريا • وفى الليلة الأخيرة من الابحار ، بينما كان يسهر على مقربة من أرجوحة الجنرال ، سمعه جوزيه بالاسيوس يقول وهو فى مقدمة الزورق :

ـ سبع آلاف وثمانمائة واثنتين وثمانين •

سأله جوزيه بالاسيوس : عم تتكلم ؟

أجابه كارينو : عن النجوم •

فتح الجنرال عينيه مقتنعا بأن كارينو يتكلم وهو نائم، واعتدل فى أرجوحته لكى يرى السماء من خلال النافذة • كانت ليلة ليلاء ومتألقة ، والنجوم ظاهرة ، ليس بين كل منها فراغ فى السماء ، وقال :

ـ لا ريب ان هناك أكثر مما تقول بعشر مرات •

قال كارينو : بل كما قلت ، بالاضافة الى نيزكين مرا بينما كنت أحصيها •

هبط الجنرال عندئذ من أرجوحته ، ورآه راقدا على ظهره ، فى مقدمة الزورق وعلى صدره العارى ندوب متشابكة ، وهو مستيقظ تماما ، ويعد النجوم بذراعه المبتورة • هكذا وجدوه بعد معركة سيرتيوس بلانكو بالفنزويلا ، غارقا فى دمه ، ونصف ذراعه مقطوع، وتركوه طريحا فى الوحل معتقدين بأنه مات • كان به أربعة عشر جرحا أصابته بها السيوف ، وكان أكثرها السبب فى فقدان ذراعه • وفيما بعد أصيب بجروح أخرى فى معارك مختلفة، ولكن معنويته بقيت سليمة ، وتعلم أن يكون حاذقا كل الحذق بيده اليسرى بحيث اشتهر بضراوته فى استخدام الأسلحة وفى الكتابة بخط جميل أيضا •

قال كارينو : حتى النجوم لا تفلت من انعدام الحياة ، فهناك منها اليوم أقل مما كانت عليه منذ ثمانى عشرة سنة -

قال الجنرال : انت مجنون •

قال كارينو : كلا • انني عجوز ولكنني أرفض التسليم بذلك •

قال الجنرال : انني أكبر منك بثمانية اعوام •

قال كارينو : ان كلا من جروحي يساوي سنتين ، ولهذا فأنا أكبر منك سنا •

قال الجنرال : في هذه الحالة فان جوزيه لورنسيو يجب أن يكون الأكبر سنا ، فقد أصيب بستة جروح من الرصاص وسبعة بالحراب واثنين بالسهام •

اغتاظ كارينو وأجاب بخبث خفي :

ـ وأنت أصغرنا سنا ، فانت لم تصب بأي جرح •

لم تكن هذه أول مرة يسمع فيها الجنرال هذه الحقيقة كأنها عتاب ، ولكنه لم يشعر بأي استياء وهو يسمعها من بين شفتي كارينو لأن صداقتهما اجتازت أشد المحن قسوة • وجلس بجواره لكي يساعده على تأمل نجوم النهر • وعندما تكلم كارينو من جديد ، بعد وقفة طويلة ، كان قد غرق في هوة الحلم •

ـ انني أرفض التسليم بان الحياة تنتهي مع هذه الرحلة •

قال الجنرال : لا تنتهي الحياة الا بالموت ، ومع ذلك فانها تنتهي بطرق أخرى ، وبعضها أكثر وقارا •

رفض كارينو قبول ذلك وقال : يجب أن نفعل شيئا ولو لكي نأخذ حماما جيدا بنبات الكارياكيتو البنفسجي ، ولا أعني نحن وحدنا وانما جيش التحرير كله •

لم يكن الجنرال قد سمع أثناء رحلته الثانية الى باريس شيئا عن الحمامات الكارياكيتية البنفسجية ، تلك الزهرة

الملتوية المعروفة فى بلدها لخصائصها ضد النحس والمصير السيىء • كان الدكتور ايميه بومبلاند ، معاون همبولد قد حدثه بكل اهتمام عن مزايا تلك الزهور وفى نفس الوقت تعرف بقاض فرنسى جليل قضى شبابه فى كاراكاس ، وكان يتردد كثيرا فى الصالونات الأدبية بباريس بشعره الرائع ولحيته الوقورة المصبوغة باللون البنفسجى بسبب الحمامات المطهرة •

كان يسخر من كل ما يمت الى الخرافة أو الخدع الخارقة ، وكل بدعة مخالفة لعقلانية مدرسه سيمون رودريجز • كان قد بلغ العشرين من عمره وترمل بعد ذلك بقليل، وكان ثريا • وأذهله تتويج نابليون بونابرت وأصبح ماسونيا ، ويستظهر عن ظهر قلب ، وبصوت مرتفع صفحاته المفضلة من كتابى « اميل » و « هيلواز الجديدة » لروسو ، وهما الكتابان اللذان يحتفظ بهما على رأس سريره • وقد سافر على قدميه فى أوروبا كلها ويده فى يد مدرسه ، ومزودته فوق ظهره • على أحد تلال روما ، وهو يرى المدينة تحت قدميه ، أطلق سيمون رودريجز أحد تنبؤاته عن مصير البلاد الأميركية ، وكان هو أكثر وضوحا اذ قال :

ــ ما يجب أن نفعل هو أن نطرد من فنزويلا هؤلاء الاسبان المنحوسين وأن نركلهم بالأقدام • وأقسم باننى سوف أفعل ذلك •

وعندما بلغ سن الرشد استطاع التصرف فى ميراثه ، وانطلق نحو نوع الحياة التى يتطلبها جنون العصر وحماس طبعه ، وأنفق خمسين ألف فرنك فى ثلاثة شهور ، ونزل فى أغلى الغرف بأغلى فندق فى باريس ، وألحق بخدمته خادمين بثياب رسمية ، وراح ينتقل فى عربة تجرها خيول بيضاء وسائق تركى ، ويتخذ عشيقة مختلفة طبقا للمكان ، تارة على مائدته المفضلة بملهى بروكوب ، وتارة فى الحفلات الراقصة

بمونمارتر ، وأخرى فى مقصورته الخاصة بمسرح الأوبرا .
وكان يذكر لمن يريد أن يصدقه أنه خسر ثلاثة آلاف بيزوس
فى لعبة الروليت فى ليلة نحس .

وعندما عاد الى كاراكاس ، بقى أقرب لروسو من قلبه هو بالذات ، واستمر يقرأ بحب مخجل نسخة من هيلويز الجديدة كانت تتمزق بين يديه . ومع ذلك وقبل محاولة الاغتيال فى الخامس والعشرين من سبتمر بعد أن بر بقسمه الرومانى ، قاطع مانويلاساينز أثناء قراءتها « اميل » للمرة العاشرة ، فقد خيل اليه أنه كتاب بغيض وقال لها : لم أشعر بالضجر فى أى مكان الا فى باريس ، فى السنة الرابعة . ومع ذلك فقد خيل اليه هناك أنه سعيد ، بل أسعد من فى الأرض قاطبة دون أن يصبغ مصيره بالمياه الكارياتيكية المتذرة .

بعد ذلك بأربع وعشرين سنة . وهو مستغرق فى سحر النهر ، محتضر ومهزوم ، لعله تساءل ان كان سيجد الشجاعة لكى يتخلص من أوراق الصعتر والمريميه والبرتقال المر التى يضعها جوزيه بالاسيوس فى مياه البانيو لكى يستحم بها بناء على نصيحة من كارينو ، ويغرق فيها مع جيوشه من المتسولين وأمجاده العديمة الجدوى وأخطائه التى لا تنسى والوطن كله حتى أعماق محيط منقذ من المياه الكارياكيتية البنفسجية .

كانت ليلة صمتها مطبق كما فى مصبات الأنهار الضخمة فى السهول التى يتيح فيها الصدى سماع أحاديث خاصة حتى على بعد فراسخ عديدة . عاش كريستوف كولومب لحظة كهذه. وكتب فى يومياته : «أحسست طوال الليل بالطيور وهى تمر » لأنه بعد تسعة وستين يوما من الابحار كانت الأرض قريبة . وقد أحس الجنرال بها هو الآخر . بدأت الطيور تمر فى نحو الساعة الثامنة بينما كان كارينو راقدا . وبعد

ذلك بساعة ، كأن فوق رأسه الكثير منها ، وكانت أجنحتها تهتز بقوة أكثر من اهتزاز الرياح . وبعد قليل بدأت تتسرب تحت الزوارق أسماك ضخمة تائهة بين نجوم الأعماق ، وزكمت الأنوف طلائع عفونة ونتانة الشمال الشرقي . ولم يكن من الضروري رؤية ذلك الاحساس النادر بالحرية للتعرف على تلك القوة القاسية التي تصل الى القلوب ، وتنهد الجنرال قائلا :

ـ أي رب الفقراء .. اننا نصل .

وكان هذا صحيحا ، فقد كان البحر هناك ، وفي الجانب الآخر منه ، الدنيا .

حيث انه كان من جديد في تورباكو ، في نفس البيت ذى الغرف القليلة الضوء والأزوقة الكبيرة القمرية والنوافذ المطلة على الساحة المغطاة بالحصباء ، والحديقة الرهبانية • حيث راح شبح دون أنطونيو كاباللينو ايجونجورا ، أسقف ونائب ملك غرناطة الجديدة ، يتخفف ، في ليالى القمر ، من أخطائه وديونه التي لا تحصى وهو يتمشى بين أشجار البرتقال، وفى حين كان الجو العام للساحل مضطربا ورطبا فان جو تورباكو كان جميلا وصحيا ، لأن المكان كان يقع فوق مستوى البحر ، والأنهار تحفها أشجار الغار الضخمة ذات الجذور المتلامسة التي يستلقى الجنود في ظلالها للقيلولة •

كانوا قد وصلوا أمس الأول الى بارانكا نوفا ، وهى النهاية التي طالما توقعوها للرحلة النهارية • وأمضوا ليله سيئة في كوخ كبير غير صحى ، بين أكوام من أكياس الأرز المكدسة بعضها فوق بعض ، والجلود الخام لأنه لم يحجز لهم فندق ، ولأنهم طلبوا البغال في آخر لحظة ، ولم تكن قد جهزت بعد ، بحيث ان الجنرال وصل الى تورباكو مبتلا ومتألما ويتعجل النوم الذى أبى الا أن يجافيه •

ولم يكونوا قد فرغوا من انزال حمولتهم عندما انتشر نبأ وصولهم الى قرطاجنة ديزاند ، وتقع على بعد ستة فراسخ حيث أعد الجنرال بونتيللا ، المدير العام والحاكم العسكرى للاقليم احتفالا شعبيا لأجل الغد ، ولكن لم يكن للجنرال أية رغبة في الاحتفالات المتيسرة ، وحيا الذين ينتظرونه على الطريق العام ، تحت المطر المنهمر ، بتدفق الذى يلتقى بقدامى الأصدقاء ، ولكنه رجاهم بنفس الصراحة أن يتركوه وحده •

والواقع أن حالته كانت أسوأ مما ينم عنه مزاجه العكر، رغم انه كان يحاول اخفاءه • وكانت حاشيته ترى، يوما بعد يوم، اضمحلال صحته • ولم تكن روحه تستطيع تحمل المزيد • وتحول لون بشرته من اللون الاخضر الباهت الى اللون الاصفر المميت • كان محموما ، وبلغ صداعه الزبى • واقترح الكاهن الاستعانة بطبيب ولكنه اعترض على ذلك قائلا : «لو أنني أصغيت الى أطبائي فقد كان يمكن أن تواروني الثرى منذ وقت طويل » • أقبل وفي نيته متابعة الرحلة الى قرطاجنة في اليوم التالى ، ولكنه عرف في الصباح أنه لا توجد أية سفينة منطلقة الى أوروبا ، ثم ان جواز السفر لم يصل مع البريد الأخير ، وقرر عندئذ أن يستجم ثلاثة أيام ، وابتهج ضباطه لهذا الخبر لأنه سيريح جسده ، ولأن المعلومات الأولى التى جاءتهم سرا من فنزويلا لم تكن ملائمة لروحه •

ومع ذلك ، فلم يسعه أن يمنع اطلاق الصواريخ حتى انتهاء البارود ، ولا أن يقيموا على مقربة فرقة من عازفى الجيتار ظلت تعزف حتى وقت متأخر من الليل • وأحضروا أيضا من الملاحات المتاخمة لماريا لاباجا فرقة من الرجال والنساء السود الذين يرتدون زى ممالقى القرن السادس عشر ، راحوا يقلدون ، ساخرين ، الرقص الاسبانى على الطريقة الأفريقية ، وقدموها اليه لأنها كانت قد أعجبته كثيرا فى زيارته السابقة ، وطلبها قبل ذلك مرات عديدة • ولكنه فى هذه المرة لم يحفل بها وقال :

— أبعدوا هذه الضوضاء من هنا •

بنى نائب الملك ، كاباللرو ايجونجورا البيت وأقام فيه ثلاث سنوات ، وكانوا ينسبون صدى الغرف الشبحى الى تيهان روحه المسحورة ، ولم يشأ الجنرال العودة الى الغرفة التى أقام فيها فى المرة السابقة وهو يقول عنها انها غرفة

كوابيس ، لأنه رأى فيها فى المنـــام كل ليلة امرأة ذات شــعر مشتعل ، تربط حــول عنقه شريطا أحمر حتى يســتيقظ ، وهكذا دواليك مرات عديدة حتى يبزغ الفجر ، بحيث انه أصدر أمره بأن يعلقوا أرجوحتـــه فى القاعة ، ونام فيهـــا لحظة من غير أن يحلم · وكان المطر ينهمر مدرارا ، ووقفت جماعة من الأطفال أمام النافذة ، فى الخارج تنظر اليه وهو نائم · وأيقظه أحدهم بصوت خافت «بوليفار ·· بوليفار» · وبحث عنه خـــلال ضباب من الحمى ، وسأله الطفـــل قائلا : « هل تحبنى » ·

رد عليه الجنرال بالايجاب بابتسامة مرتعشة ، ثم أصدر أمره بطـــرد الدجاج الذى يتســكع فى البيت فى كل وقت ، وابعاد الأطفـــال من النـــوافذ ، وعاد الى النوم · وعنـــدما استيقظ كان المطر مايزال ينهمر ، وجوزيه بالاسيوس يعــد الناموسية لتعليقها فوق الأرجوحة · فقال له :

ـ حلمت بطفل خلف النافذة ألقى على أسئلة غريبة ·

ورضى أن يتناول شرابا ، وهو أول شيء يتناوله منـــذ اربع وعشرين ساعة ، ولكنه لم يستطع احتساءه كله · وعاود النوم فى أرجوحتـــه وهو خائر القـــوى ، وبقى مدة طويلة غارقا فى تفكير غسقى ، متأملا صفا من الخفافيش المتعلقة فى أعمدة السقف ، وتنهد أخيرا وقال :

ـ أصبحنا لا نصلح الا للدفن فى مقابر الفقراء ·

كان سخيا جدا مع الضباط القدماء والجنـــود البســطاء بجيش التحـــرير ، الذين ظلوا طوال رحلتهم بالنهر ، حتى توركاكو ، يروون له مصائبهم حتى لم يتبق لديه غـــير ربع المال الخاص بالرحلة ، وكان لابد من التحقق مما اذا كانت الحكومة الاقليميـــة ماتزال تملك فى خزائنهـــا من الأموال ما يمكنها من سداد أمر الدفع أو اذا كان يمكنها ، على الأقل،

بيعه الى أحد المضاربين بالبورصة • أما بخصوص اقامته العاجله في اوروبا فقد كان يعتمد على امتنان انجلترا التى قدم لها الكثير من الخدمات ، وكان من عادته أن يقول : « ان الانجليز يحبوننى » ولكى يعيش بما يليق بكرامته مع حنينه وخدمه وعدد محدود من حاشيته كان يامل ان يبيع مناجم آروا • ومع ذلك ، واذا أراد ان يرحل حقا فان ثمن التذاكر ونفقات رحلته هو وحاشيته تمثل ضرورة عاجلة ، وما تبقى معه لا يسمح له حتى بذلك ، ولم يكن ينقصه الا المدول عن مقدرته الأبدية فى التوهم فى اللحظة التى يحتاج فيها الى ذلك أكثر من أى وقت آخر • ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك . ورغم انه كان يتوهم أنه يرى بعض الحشرات التى لا وجود لها ، بسبب الحمى أو الصداع ، فقد تغلب على النعاس الذى جمد معنوياته ، وأملى ثلاث رسائل على فرناندو •

كانت الأولى ردا من قلب مفتوح على وداع المارشال سوكريه ، ولم يعلق فيه على مرضه رغم ان من عادته أن يفعل ذلك فى حالات مثل الحالة التى تعرض لها بعد ظهر اليوم ، حيث كان بحاجة قصوى الى الشفقة • وكانت الرسالة الثانية الى جوان دى ديوس أمادور ، حاكم قرطاجنة يلتمس فيها من الخزانة العامة دفع ثمانية آلاف بيزوس ذهبا ، وقال : « اننى رجل فقير ، وأنا بحاجة الى هذا المبلغ للرحيل » • وقد لقى الالتماس قبولا على الفور ، ومضى فرناندو الى قرطاجنة لاستلام المبلغ • أما الرسالة الثالثة فموجهة الى الوزير الكولومبى فى لندن • وهو الشاعر جوزيه فرنانديز مدريد، يلتمس فيها سداد خطابى اعتماد كان الجنرال قد أرسلهما ، الأول لأمر سير روبرت ويلسون والثانى لأمر الأستاذ الانجليزى جوزيه لانكاستر الذى يدينون له بعشرين ألف بيزوس لأنه أقام فى كاراكاس نظامه الجديد فى التعليم المشترك ، وقال فيهما « ان شرفى فى الميزان » لأنه كان يعتقد أن قضيته القديمة سوف تحل وان المناجم ستباع • وكانت الرسالة

عديمة الجدوى، فعندما وصلت الى لندن كان الوزير فرناندو مدريد قد مات .

كان الضباط يلعبون الورق ويتجادلون بأصوات عالية في الرواق الداخلي ، تحت نافذة الجنرال ، فأشار جوزيه بالاسيوس اليهم لكي يصمتوا ، ولكنهم ظلوا يتجادلون في صوت خافت حتى دقت ساعة الكنيسة المجاورة ، معلنة الحادية عشرة ، وبعد ذلك بقليل سكتت القيثارات والطبول، وجرفت نسمة البحر البعيدة السحب الكبيرة السوداء التي تجمعت من جديد بعد سيل الأصيل ، وارتفع القمر بدرا فوق أشجار البرتقال بالحديقة .

لم يكف جوزيف بالاسيوس لحظة واحدة عن الاهتمام بالجنرال الذي كان يهذي من الحمى في أرجوحته منذ بداية الليل . وأعد له المشروب المعتاد وعالجه بحقنة شرجية بالسنا ، في انتظار أن يجرؤ أحد له سلطة أكبر من سلطته ويقترح استدعاء طبيب ، ولكن لم يجرؤ أحد على ذلك . ولم ينم الجنرال أكثر من ساعة عند الفجر .

تلقى في ذلك اليوم زيارة الجنرال ماريانو مونتيللا ، الذي أقبل برفقة جماعة مختارة من أصدقائه القدامى بقرطاجنة ، ومنهم جوان جارسيا دلريو ، وجوان دي فرانسيسكو مارتن ، وجوان دي ديوس آمادور ، المعروفين بالثلاثي جوان ، من الحزب البوليفاري. وريع الثلاثين وهم يرون الجسد المتلاشي الذي حاول النهوض في أرجوحته والذي لم يجد القوة لكي يعانقهم جميعا . كانوا قد رأوه في الكونجرس العظيم الذي اشتركوا فيه ، ولم يصدقوا أنه اضمحل بهذه الصورة في مثل هذا الوقت القصير . كانوا يرون عظامه من خلال بشرته ، ولم يستطع أن يثبت بصره ، ولابد أنه كان مدركا من نتانة وسخونة أنفاسه لأنه حرص على أن يكلمهم عن بعد ومن غير أن يواجههم الا بجانب من

وجهه · ولكن الشيء الذى أثر فيهم أكثر من غيره هو أنه تضاءل الى حد أن الجنرال مونتيللا أحس وهو يعانقه أنه لا يكاد يصل الى مستوى صدره هو بالذات ·

كان وزنه ثمانية وثمانين رطلا . ولا ريب أنه نقص عشرة أرطال فى عشية موته · وكان طول قامته الرسمية مترا وخمسة وستين سنتيمترا ، رغم أن بطاقاته الطبية لم تكن لتتطابق دائما أبدا مع بطاقاته العسكرية · وقد نقصت قامته فوق طاولة التشريح اربعة سنتيمترات · وبالنسبة لجسده ، كانت قدماه قد تضاءلتا كيديه ، ولاحظ جوزيه بالاسيوس أن سراويله ترتفع حتى صدره ، وأنه لابد من تشمير أكمام قمصانه · وأدرك الجنرال دهشة زائريه ، واعترف بأن جزمته قد اتسعت على قدميه منذ شهر يناير · ووضع الجنرال مونتيللا ، المشهور بدعاباته فى أقل المواقف ملاءمة ، حدا لتأثره بأن قال :

ــ المهم ألا تتضاءل فخامتك من الداخل ·

وصاحب دعابته ، كمادته ، بقهقهة عالية بدت أشبه بطلقات من الرصاص ، ورد عليه الجنرال بابتسامة متواطئة وغير الموضوع · كان الوقت مناسبا وأفضل للحديث ، ولكنه فضل أن يستقبل زائريه وهو فى أرجوحته ، في نفس الغرفة التى رقد فيها ·

كان الموضوع الرئيسى هو حالة الأمة ، فقد رفض بوليفاريو قرطاجنة الاعتراف بالدستور الجديد وبالنواب بحجة أن الطلبة السانتاندريين مارسوا ضغوطا ممنوعة على الكونجرس ، فى حين بقى العسكريون الأوفياء على الحياد ، انصياعا لأمر الجنرال · ولم يجد رجال الدين الذين يؤيدونه الفرصة لادلاء أصواتهم · وكان الجنرال فرانسيسكو كارمونا ، قائد احدى حاميات قرطاجنة ونصير قضيته على

وشك القيام بتمرد وكان بذلك قائما دائما . ولكن الجنرال طلب من مونتيللا أن يرسله اليه ليحاول تهدئته ، ثم خاطب الجميع ، ولكن من غير أن ينظر الى أحد منهم بالذات ، وأوضح لهم الطريقة الفظة للحكومة الجديدة قائلا :

ــ ان موسكيرا جبان وكايسيدو مهرج ، وكلاهما قد وقع فى قبضة مدعى سان بارتولوميو .

كان معنى قوله أن الرئيس ضعيف وأن نائبه انتهازى قمين بأن يغير الحزب طبقا لهبوب الرياح ، وأوضح بمرارة ميزت أسوأ سنيه أنه ليس من المستغرب أن يكون كل منهما اخا لقسيس . وفى المقابل بدا له الدستور الجديد أفضل مما كان يأمل فى هذه اللحظة التاريخية حيث لم يكن الخطر هزيمة انتخابية وانما حرب أهلية يدبرها سانتاندر بواسطة رسائله التى يبعث بها من باريس . وقد أرسل الرئيس المنتخب الى بوبايان مختلف النداءات لتطبيق النظام والوحدة، ولكنه لم يقل بعد انه يقبل الرئاسة . وقال الجنرال : « انه ينتظر حتى يقوم كايسيدو بالعمل القذر » .

قال مونتيللا : « لابد أن موسكيرا فى سانتا فى الآن ، فقد رحل من بوبايان يوم الاثنين » .

لم يكن الجنرال يعلم ذلك . ولكنه لم يندهش وقال : « سترى أنه سيرجع عن غلوائه حين يجد نفسه مضطرا الى العمل ، ولن يصلح حتى لكى يكون حاجبا للحكومة » وفكر برهة طويلة ثم قال وقد غلبه الحزن :

ــ وا أسفاه ! كان سوكريه هو الرجل المناسب .

ابتسم فرانسيسكو وقال : وهو أكثر الجنرالات جدارة .

كانت تلك العبارة قد انتشرت فى كل البلاد ، رغم جهود الجنرال لمنع انتشارها ، وقال مونتيللا مداعبا :

ـ انها عبارة مبتكرة من أوردانيتا ٠

تجاهل الجنرال المقاطعة ، وتأهب لمعرفة خفايا السياسة المحلية ، هازلا أكثر منه جادا ، ولكن مونتيللا فرض الوقار الذى حطمه هو بنفسه قائلا : « معذرة يا صاحب الفخامة . أنت تعرف خيرا من أى أحد الاخلاص الذى أكنه للمارشال الكبير ، ولكنه ليس هو الرجل » ٠

وأردف يقول فى تشدق مسرحى : انما أنت الرجل ٠

أوقفه الجنرال على الفور قائلا : أنا لم أعد موجودا ٠

ثم استأنف حبل الحديث فقال : كيف أن الجنرال سوكريه صد كل توسلاته لتولى رئاسة كولومبيا واستطرد : « انه يملك كل شىء لانقاذنا من الفوضى ، ولكنه استسلم لشدو جنيات البحر » وكان جارسيا دلريو يرى أن السبب الحقيقى هو أن سوكريه يفتقر تماما الى موهبة السلطة . ورأى الجنرال أن ذلك لا يشكل عقبة منيعة وقال : « ثبت تماما فى تاريخ الانسانية ، فى بعض الأحيان ، أن الموهبة هى الابنة الشرعية للضرورة » وعلى كل حال فتلك ميول متأخرة ، لأنه كان يعرف خيرا من أى أحد أن أكثر الجنرالات جدارة فى الامبراطورية ينتمى الى جيوش أخرى أقل زوالا من جيوشه وقال :

ـ ان السلطة العظمى تكمن فى قوة الحب ٠

ثم أكمل دعابته الخبيثة قائلا : وهذه العبارة لسوكريه ٠

وبينما كان يتحدث فى تورباكو عن المارشال سوكريه . كان هذا الأخير يتجه من سانتا فى الى كيتو ، وحده ، مع أوهامه الضائعة ، ولكنه كان فى عنفوان العمر والصحة ويتمتع بكامل مجده ٠ كان مسعاه الأخير فى عيشة رحيله هو المضى

سرا لدى عرافة مشهورة بالحي المصرى . كانت قد نصحته فى العديد من مشروعاته الحربية ، وقرأت له فى ذلك اليوم فى الورق ان أكثر الطرقات ملاءمة بالنسبة له هى طرقات البحر • ورأى مارشال زياكوشو العظيم أن تلك الطرقات البطيئة جدا لضروراته الغرامية ، واستسلم لمصادفات الأرض الثابتة بدلا من الورق المحزر • واختتم الجنرال حديثه قائلا :

ــ حيث انه ليس هناك ما نفعله ، فنحن منهكون كما أن حكومتنا أسوأ الحكومات •

كان يعرف أنصاره الحكوميين • كانوا قد اشتهروا ونالوا عددا من الألقاب أثناء حركة التحرير، بيد انهم ليسوا فى مضمار السياسة الا دساسين طماعين ، وتجارا صغارا للوظائف . بلغ بهم الأمر حتى الى عقد مخالفات مع مونتيللا ضده • وكما مع كثيرين غيرهم لم يستمهلهم الا بعد أن تمكن من اغوائهم بحيث طلب منهم مساعدة الحكومة ولو على حساب مصالحهم الخاصة • وكانت لأسبابه ، كالعادة ، نفس تنبؤى ، فغدا ، عندما لا يكون هنا ، فان الحكومة التى تطلب معاونتهم اليوم، ستستدعى سانتاندر الذى ما أن يعود متوجا بالمجد حتى يصفى أنقاض أحلامه ، والوطن الكبير الذى أنشأه فى سنين عديدة من الحروب والتضحيات سيقطع الى أجزاء ، وستنهش الأحزاب بعضها البعض ، ويحفر اسمه ويشوش عمله فى ذاكرة قرون قادمة • ولكن لا شىء من كل هذا يهمه فى هذه اللحظة اذا تمكن ، على الأقل ، من تجنب حمام آخر من الدم ، وقال : « ان الثورات كأمواج البحر التى تتتابع الواحدة بعد الأخرى ، ولهذا لم أحبها أبدا » واختتم يقول مثيرا دهشة زائريه :

ــ بل اننى أندم كل الندم على الثورات التى قمنا بها ضد الاسبان •

أحس الجنرال مونتيــللا وأصـــدقاؤه ان تلك كانت النهاية • وقبل أن يودعوه تلقوا من يده ميدالية من الذهب منقوشا عليها صورته ، ولم يسعهم تجنب الاحســاس بأنهم يتلقون هدية من ميت • وبينما كانوا يتجهون نحو الباب . قال جارسيا دلريو في صوت خافت :

ـ ان وجهه اليوم انما هو وجه رجل قد مات •

ظلت العبارة التي ضخمها وكررها الصدى تلاحق الجنرال طوال الليــل ، ومع ذلك فقــد دهش الجنرال فرانسيســكو كارمونا عندما رآه في صباح اليوم التالي بشــوش الــوجه • وجده في الحديقــة التي تعبق بشــذا زهــور البرتقال في أرجوحة مطرزه باسمه بخيوط من الحرير نسجتها له القرية المجاورة لسان جاسنتو ، وعلقهــا جــوزيه بالاســيوس بين شجرتين • كان قد اغتســل وأكســبه شعره الذى صففه الى الخلف وسترته التى لبسها بدون قميص هالة من البراءة • وأملى على فرناندو وهو يتأرجح فى بطء رسالة ساخطة الى الرئيس كايسيدو ، ولم يجده الجنرال كارمونا مشرفا عــلى الموت كما قيل له ، ربما لأنه كان فريســة ثمالة من احــدى غضباته الأسطورية •

كان كارمونا ظاهرا جدا بحيث لا يمكن أن يمر دون أن يراه أحد ، ولكن الجنرال نظر اليه دون أن يراه بينما كان يملى عبارة ضد غدر مغتابيه • وتحول أخــيرا نحو العمــلاق الذى وقف بكل حب أمام الأرجــوحة ، ونظر اليــه دون أن تطرف عيناه وسأله حتى من غير أن يحييه :

ـ أتظن أنت الآخر أننى محرض للثورات ؟

واذ استشعر الجنرال كارمونا استقبالا معاديا ســال فى شىء من الكبرياء :

ـ وما الذى يحملك على هذا الظن يا عزيزى الجنرال ؟

أجاب : لأن آخرين يظنون ذلك ٠

وناوله بضع مقالات مقتطعة من الجرائد تلقاها في البريد الذى جاء من سانتا فى وفيها يتهمونه مرة آخرى بأنه دبر سرا تمرد الرماة حتى يستولى على السلطة رغم قرار المجلس ، وقال : فظاظات تافهة ، ففى حين انني أضيع وقتي في الدعوة الى الاتحاد يتهمني هؤلاء الأوغاد بالتآمر ٠

وتسببت قراءة قصاصات الجرائد فى أحباط الجنرال كارمونا ، وقال :

ـ لا يسرني أن أصدق هذا ٠ ولكنني كنت سعيدا جدا بأن الأمر كان كذلك ٠

قال الجنرال : أتصور ذلك ٠

ولم يبد أى استياء ، ولكنه طلب منه أن ينتظره ريثما يملى الخطاب الذى يلتمس فيه مرة أخرى الاذن الرسمي بمغادرة البلاد ٠ وعندما فرغ من ذلك كان قد استرد هدوءه بنفس السهولة السريعة التي فقده فيها وهو يقرأ الجرائد ٠ ونهض من غير مساعدة ، وأخذ الجنرال كارمونا من ذراعه لكى يمشى بضع خطوات حول البئر ٠

بعد ثلاث أيام من المطر كان الضوء غبارا ذهبيا يتسرب خلال أوراق شجر البرتقال وزهورها ويثير هياج الطيور ٠ ونظر الجنرال اليها لحظة وتأثر حتى سويداء روحه وتنهد تقريبا وقال : « انه لأمر سعيد اذ لا يزالون يغردون » ثم أعطى الجنرال كارمونا تفسيرا متبحرا عن السبب الذى يحدو طيور جزر الانتيل على التغريد فى أبريل أفضل مما تفعل فى يونيه ، ثم عاد فجأة الى الموضوع الذى يشغله وبعد عشر دقائق فحسب استطاع أن يقنعه بمساندة الحكومة الجديدة ،

وشيعه بعد ذلك حتى الباب • وعاد الى الغرفة أخيرا لكى يكتب بخط يده لمانويلا ساينز التى لا تزال تشكو وتتذمر من العراقيل التى تضعها الحكومة للاعتراض على رسائلها •

ولم يتناول غير طبق صغير من عصيدة الذرة ، اتته به فرناندا باريجا الى غرفته بينما كان يكتب • وفى ساعة القيلولة طلب من فرناندو أن يواصل قراءة كتاب فى علم النبات الصينى ، كانا قد بدءا قراءته بالأمس • ودخل جوزيه بالاسيوس الغرفة بعد قليل ، فوجد فرناندو نائما فى مقعده والكتاب مفتوح فوق ركبتيه • وكان الجنرال ، فى أرجوحته ، مستيقظا ، ووضع سبابته على شفتيه يهيب به أن يلزم الصمت • ولأول مرة منذ أسبوعين زالت عنه الحمى •

وهكذا قضى تسعة وعشرين يوما فى تورباكو وهو ينتظر البريد كل يوم ، وكان قد جاء اليها قبل ذلك مرتين ، ولكنه لم يقدر مزاياها الطيبة فى الواقع الا فى زيارته الثانية وهو عائد من كاراكاس الى سانتا فى لكى يحبط خطط الانفصال التى يدبرها سانتاندر ، وقد أصابه مناخ المقاطعة بخير كبير بحيث بقى فيها عشرة أيام بدلا من الليلتين المتوقعتين ، وكانت أيام أعياد مستمرة • وأخيرا حضر حفلة لمصارعة الثيران ، وتغلب على كراهيته لسباق الثيران وصارع بقرة انتزعت الوشاح من يديه وجعلت الجمهور يصرخ من فرط الارتياع • ولكن فى هذه الزيارة الثالثة كان مصيره قد تحقق ، وأكد مرور الأيام ذلك كل التأكيد ، وازدادت الأمطار حدة واقتصرت الحياة على انتظار أنباء التقلبات الجديدة ، وفى ذات مساء ، سمعه جوزيه بالاسيوس وهو فى شدة اليقظة فى أرجوحته ويقول :

ـ الله وحده يعلم أين سوكريه الآن •

كان الجنرال مونتيللا قد عاد مرتين ووجده أحسن بكثير من اليوم الأول ، بل أكثر من ذلك ، خيل اليه أنه استعاد

حماسه السابق شيئا ما ، وعلى الخصوص بسبب اصراره على معاتبته بأن غرناطة لم تصوت بعد على الدستور الجديد ، ولم تعترف كذلك بالحكومة الجديدة ، رغم الاتفاق على ذلك فى الزيارة السابقة · وارتجل الجنرال مونتيللا عذرا مبررا بأنهم ينتظرون أن يعرفوا أولا ان كان جواكين موسكيرا سيقبل الرئاسة ·

قال الجنرال : سيتخلصون من هذه الورطة بالذات اذا تخطوه ·

وفى خلال الزيارة التالية عاتبه بقوة أكثر لأنه كان يعرفه منذ ان كان ويعرف أن المقاومة التى سينسبها الى الاخرين لا يمكن الا أن تأتى منه هو · كانا مرتبطين بصداقة طبقية ومهنية ، ولكن كانت لهما على الخصوص حياة مشتركة ، وجاء وقت فترت فيه علاقتهما الى حد أن أيا منهما لم يخاطب الاخر ، لأن مونتيللا ترك الجنرال فى مومبوكس فى أشد أوقات الحرب ، دون أية مساعدة عسكرية ، واتهمه الجنرال بأنه يخالفه فى الرأى وأنه سبب كل المصائب · وكان رد فعل مونتيللا انفعاليا بحيث تحداه للمبارزة ، ولكنه بقى فى خدمة الاستقلال ، وتغاضى عن أحقاده الشخصية ·

كان قد درس الرياضيات والفلسفة فى الأكاديمية العسكرية بمدريد ، وخدم كحارس خاص لدون فرناندو السابع حتى اليوم الذى جاءته فيه الأنباء الأولى بتحرير فنزويلا · وكان خير متآمر فى المكسيك وخير مهرب للأسلحة فى كوراساو منذ اليوم الذى تلقى فيه وهو فى السابعة عشرة من عمره جرحه الأول ، وكان خير جندى فى كل مكان · وفى سنة ۱۸۲۱ قضى على الاسبان فى الساحل بدءا من ريوهاشا حتى «بنما» ، واستولى على قرطاجنة بجيش أقل عدة وعددا من جيش العدو ، وقام بحركة جميلة لكى يتصالح مع الجنرال بأن قدم له المفاتيح الذهبية للمدينة ، فأعادها الجنرال اليه

ورفعه الى رتبة جنرال وأصدر أمره بأن يتولى حكومة الساحل · ولم يكن حاكما محبوبا على الرغم من أنه اعتاد أن يخفف من افراطاته بشيء من الدعابة · وكان بيته أحسن قصور المدينة، وأملاكه في أجواس فيفاس من أحسن الأملاك في المقاطعة كلها · ويسأله الشعب بالكتابة على الجدران من أين جاء بالماس لشراء كل ذلك · وبعد ثمانية أعوام من ممارسة شاقة ومنفردة للحكم ، كان لا يزال في منصبه بعد أن تحول الى سياسي داهية من الصعب معارضته ·

وكان مونتيللا يرد على كل عتاب بحجة مختلفة، ومع ذلك فقد انتهى بأن قال له الحقيقة دون مواراة ، فقد صمم القرطاجينيون على عدم حلف اليمين على دستور مشبوه ، وكذلك على عدم الاعتراف بحكومة ضعيفة لا تستند على أي اتفاق وانما على الخلاف الجماعي · وكان لهذا معناه السياسي المحلي حيث كانت الاختلافات سبب النكبات الكبرى التاريخية · وقال مونتيللا : « ولا تنقصهم المبررات ما دمت يا صاحب الفخامة ، وأنت أكثر ليبرالية من الجميع ، تتركهم تحت رحمة الذين انتحلوا لقب الليبراليين لكي يصفوا ما انجزته الليبرالية » · والحل الوحيد هو أن يبقى الجنرال في البلاد لتفادي التفكك ·

أجاب الجنرال بسخريته التي تميزه : حسنا · اذا كان الأمر كذلك فقل لكارمونا أن يأتي من جديد ، وسوف نقنعه بأن يتمرد ، فسيكون ذلك أقل سفكا للدماء عن الحرب الأهلية التي سيثيرها القرطاجينيون بسفاهتهم ·

ولكنه استعاد رباطة جأشه قبل انصراف مونتيللا ، وطلب منه أن يعود الى توروباكو مع أهم أنصاره لوضع حد لهذا الشقاق · وكان ما يزال ينتظرهم عندما أقبل الجنرال كارمونا وأطلعه على الاشاعة القائلة بأن موسكيرا تولى الرئاسة ، فضرب بيده على جبينه وقال :

ـ سبحان الله ! ٠٠ اننى لن أستطيع أن أصـدق ذلك ، حتى ولو كان أمامى ٠

واقبل الجنرال مونتيللا بعد ظهر اليوم ليؤكد له ذلك ، تحت سيل المطر ، مصحوبا بعاصفة هوجاء انتزعت الاشـجار من جذورها ٠ وهدمت نصف المقاطعة ، وحطمت سياج البيت واغرقت الحيوانات ٠ ولكنها خففت من وقع الخبر السيىء ٠ وساعد الحرس الرسمي الذى يكاد يموت من السأم من تخفيف حدة المأساة ٠ وارتدى مونتيللا معطفا واقيا من المطر وأدار عملية الانقاذ ٠ أما الجنرال فقد جلس على كرسى هزاز أمام النافذة ، بعد أن تدثر بالغطاء الذى استخدمه فى النـوم ، يفكر ويتنفس بهدوء ويتأمل سيل الوحل الذى يجرف أنقاض الكارثة ٠ كانت هـذه التقلبات الكاريبيـة مألوفة له منـذ الطفولة ٠ ومع ذلك ، وبينما كان الجنـود يعيدون ترتيب البيت قال لجوزيه بالاسيوس انه لا يتذكر أنه رأى شيئا كهذا من قبل ٠ وعندما عاد الهدوء أخيرا ، دخـل مونتيللا والمـاء يقطر منه حتى ركبتيه ، فكان الجنرال لا يزال جامدا مكانه، فريسة فكرته ، وقال :

ـ حسنا يا مونتيللا ٠٠ موسكيرا هو الرئيس الآن ، ولم تعترف قرطاجنة به بعد ٠

قال مونتيللا الذى لم تعـد العاصـفة تشـغله : لو أن فخامتك فى قرطاجنة لكان الأمر أكثر سهولة ٠

ـ ولكنهم سيؤولون وجودناعندئذ بأنه تدخل من ناحيتى ولا أريد أن أكون المحرض على أى شيء ، بل الأكثر من هذا ، طالما لم تسو هذه المسألة فلن أتحرك من هنا ٠

كتب خطاب صـــلح للجنرال موسـكيرا فى تلك الليلة بالذات قال له فيه : علمت دون أية دهشة أنك قبلت رئاسـة

الأمة . ويسرني ذلك من أجل البلاد ومن أجلي ، ولكنني اسف على ذلك وسأظل آسفا دائما من أجلك ٠٠ وانهى خطابه بحاشية قال فيها : « لم أرحل لأن جواز السفر لم يصلني بعد، ولكنني سأرحل بالتأكيد بمجرد أن أتلقاه » ٠

وصل الجنرال دانييل فلورنسيو اوليرى يوم الأحد ، وهو عضو بارز في الجمعية البريطانية ، وخدم طويلا كملازم وسكرتير يجيد لغتين للجنرال ٠ أقبل من توربا كو لكي ينضم الى الحاشية ، وقد رافقه مونتيللا من قرطاجنة وهو رائق المزاج كما لم يكنه أبدا ، وأمضيا مع الجنرال يوما جميلا في ظل أشجار البرتقال ، وبعد حديث طويل مع أوليرى عن مهمته العسكرية أطلق الجنرال سؤاله المعهود :

ــ ماذا يقال هناك ؟

أجاب أوليرى : أنك لن ترحل حقا ٠

قال الجنرال : آه ٠٠ آه ٠٠ ولماذا ؟

ــ لأن مانيوليتا بقيت ٠

أجاب الجنرال بصراحة مهدئة : ولكنها بقيت دائما ٠

كان أوليرى بصفته صديقا حميما يعرف أن الجنرال على حق ٠ كانت تبقى دائما حقا ، ليس بارادتها بالذات ولكن لأن الجنرال يتركها متذرعا بأية حجة ، وبجهد شديد لكي يفلت من عبودية الغراميات المألوفة ، وقال ذات يوم لجوزيه بالاسيوس ، وهو الوحيد الذى يبيح لنفسه اطلاعه على مثل هذا النوع من الاعتراف : « لن أقع في الحب بعد ذلك أبدا ، فانه يخيل لى أن لى روحين في نفس الوقت » ، كانت مانويلا قد فرضت نفسها عليه بتصميم لا يقهر دون أن تهتم بكرامتها ٠ ولكنها كانت كلما حاولت اخضاع الجنرال بدا هذا الأخير متلهفا على التخلص من أغلالها ٠ وكان حبا متهربا دائما ، فبعد الأسابيع الأولى المضطرمة اضطر أن يمضى

الى جواياكيل للالتقاء بالجنرال سان مارتن ، محرر ريو دى لابلاتا ، وتساءلت مانويلا اى نـوع من العشـاق ذلك الرجل الذى يقوم عن المائدة وسط العشاء • وعدها أن يكتب لها كل يوم فى اى مكان يكون فيه ليقسم لها من سـويداء قلبـه أنه يحبها اكثر من اية امرأة أخرى فى الدنيا • وقد كتب لهـا فعلا ، وبخط يده أحيانا ، ولكنه لم يبعث اليها بالرسائل لأنه كان فى نفس الوقت قد وجـد العزاء فى حب برىء متعـدد لخمس نسـاء فى وقت واحـد ، فى بيت جارياكو ، دون أن يعرف بكل اليقين آى منهن يختـار ، بين الجدة ذات الست والخمسين سنة والابنة التى فى الثامنة والثلاثين من عمرها وبين ثلاث الفتيات الأخريات اللواتى فى عمر الزهور • واذ انتهت مهمته فى جـواياكيل تخلص منهن وهـو يقسـم لكل واحدة ، على حدة ، أنه أحبهـا حبـا خالدا ، وعاد الى كيتـو ليغرق فى الرمال المتحركة لمانويلا ساينز •

ففى بداية السنة التالية ، رحل مرة أخرى بدونها لـكى ينهى تحرير بيرو ، وهو الجهـد الأخير لحلمـه • وانتظرت مانويلا اربعـة شـهور ثم أبحرت الى ليما بمجـرد أن تلقت خطاباته التى يكتبها عادة جـوان جوزيه سانتانا ، سـكرتير الجنرال الخـاص ، معبرة عن أفكاره وأحاسيسـه بالذات • ووجدته فى قصر الملذات بمجدالينا ، وقد قلده الكونجرس السلطة الدكتاتورية ، تحيط به النساء الفاتنات والماجنات بالبلاط الجديد • وكانت الفوضى فى بيت الرئاسة شديدة بحيث آن كولونيـلا بفـرقة الرماة غادره فى عز الليل لأن لهثات الحب فى المضاجع منعته من النـوم • ولكن مانويلا وجدت نفسها فى ميدان تعرفه كل المعرفة ، فقد ولدت فى كيتو ، ابنة غير شرعية لامرأة ثرية كريولية ورجل متزوج • وفى الثامنـة عشرة من عمرها وثبت من نافذة الدير الذى تدرس فيه لكى تهرب مع ضابط من ضباط الملك ، ولكنهـا بعـد سنتين من ذلك تزوجت فى ليما على آنهـا عذراء من

الدكتور جيمس تورن ، طبيب متغاض له ضعف عمرها ، بحيث أنها عندما عادت الى بيرو ، مطاردة حب حياتها لم تكن في حاجة الى أن تتعلم من أحد لكي تقضى حياتها في خضم الفضائح ·

كان اوليرى افضل معاونيها في حروب ذلك الحب ، ولم تكن تعيش في قصر مجدالينا بصفة دائمة ، ولكنها كانت تدخله عندما تشاء من الباب العمومى ، ويستقبلونها بكل حفاوة وترحاب · كانت ماكرة ومتمردة ، ذات دلال لا يقاوم واحساس بالسلطة وتصميم على تجربة كل شيء · كانت تتكلم انجليزية سليمة بسبب زوجها ، وفرنسية ركيكة ولكنها مفهومة · وتعزف البيانو بطريقة المبتدئات المتعصبات ، وخطها معقد وتخطيء في قواعد النحو ، وكانت تتلوى من الضحك أمام ما تدعوه هي بالذات فظاعات خطها · عينها الجنرال حارسة لأرشيفه لكي تكون بجواره ، وكان هذا يتيح لهما ممارسة الحب وسط ضجيج الوحوش الأمازونية التي تروضها مانويلا بمفاتنها ·

ومع ذلك ، عندما أراد الجنرال غزو اراضى بيرو الوعرة التي كانت لا تزال بين أيدى الاسبان ، لم تفلح مانويلا في الانضمام الى هيئة أركانه ، فتبعته بدون اذنه بحقائبها كسيدة أولى وصناديقها المحتوية على المستندات وحاشيتها من الاماء ، وفرقة في المؤخرة من الحرس الكولومبى الذين يعبدونها بسبب لغتها العسكرية · وقطعت ثلاثمائة فرسخ على ظهر بغلة في منحدرات الأنديز الباعثة للدوار ، وطوال أربعة أشهر لم تستطع أن تقضى مع الجنرال غير ليلتين ، احداهما لأنها أثارت خوفه بأن هددته بأنها ستنتحر ، ومضى بعض الوقت قبل أن تكتشف أنها حين لا تستطيع الانضمام اليه ، كان يستمتع بغراميات أخرى عابرة أثناء مروره ، ومن بينهن مانويليتا مادرونو ، وهى خلاسية لعوب في الثامنة عشرة من عمرها خلصته من أرقه ·

وما أن عادت مانويلا الى كيتو حتى صممت أن تنفصل عن زوجها الذى وصفته بأنه انجليزى تافه ، يمارس معها الحب دون أى استمتاع ، ويتحدث فى فتور ، ويمشى ببطء ويحيى الناس وهو ينحنى بكل احترام ، ويجلس ويقوم فى حرص ، ولا يضحك حتى من نوادره هو بالذات • ولكن الجنرال أقنعها بأن تحتفظ بكل امتيازات حياتها المدنية ، وخضعت لارادته •

وبعد شهر من احراز النصر فى أياكوشو ، رحل الجنرال وهو سيد نصف العالم الى أعالى بيرو التى ستغدو فيما بعد جمهورية بوليفيا • ورحل بدون مانويلا ، وقبل رحيله زعم لها أن أمرا مهما يقتضى انفصالا نهائيا ، وكتب لها يقول : « أرى أن لا شىء يمكن أن يربطنا تحت رعاية البراءة والشرف • ستكونين وحدك فى المستقبل ، رغم وجودك مع زوجك ، وسأكون أنا وحدى وسط الدنيا ، سيكون عزاؤنا الوحيد هو مجدنا بأننا انتصرنا على نفسينا » • وقبل أن تمر ثلاثة شهور تلقى منها رسالة تقول فيها انها راحلة الى لندن مع زوجها • وفاجأه الخبر وهو فى الفراش مع فرانشيسكا زوبياجا من جامارا : امرأة باسلة ، زوجة مارشال أصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية • ولم ينتظر الحراس لكى يمارس الحب للمرة الثانية فى تلك الليلة وكتب لتوه لمانويلا ردا عاجلا بدا أشبه بأمر عسكرى : « قولى لى الحقيقة ولا تذهبى لأى مكان ، اننى أحبك بكل تأكيد » ووضع بيده تحت العبارة الأخيرة • وأطاعته متهللة •

بدأ حلم الجنرال ينهار فى نفس اليوم الذى تحقق فيه ، فما أن أسس جمهورية بوليفيا وأعاد تنظيم مؤسسة بيرو حتى اضطر الى العودة بكل سرعة الى سانتا فى ، تستحثه على ذلك محاولات الانفصال الأولى التى يقوم بها الجنرال فى فنزويلا ومؤامرات سانتاندر السياسية فى غرناطة الجديدة • واحتاجت مانويلا هذه المرة الى وقت أكثر لكى يسمح لها بأن

تتبعه ، وعندما خضع أخيرا انتقلت كما لو كانت من النـور بحقائبها التى تحملها لها اثنتا عشرة بغلة ، والاماء الخالدة واحدى عشرة قطة وستة كلاب وثلاثة قرود مدربة عـلى فن خلاعة القصور ودب يعرف كيف يشبك الخيط فى سم الابرة وتسعة أقفاص من الببغاوات، ذكورا واناثا ، تنعت سانتاندر بالسباب والشتائم بثلاث لغات ٠

وصلت الى سانتا فى الوقت المنـاسب لانقاذ الجنرال مما تبقى له من القليل من الحياة فى ذلك اليـوم المنحوس : الخامس والعشرين من سبتمبر ٠ كانا قد تعارفا منذ خمس سنوات ، ولكنه كان منهوكا ومرتابا كما لو أنهما قد التقيا قبل ذلك بخمسين سنة ٠ واحست بأنه يتحسس طريقه دون هدف فى ضبابات العزلة ٠ كان يجب أن يعود الى الجنوب ، بعد ذلك بقليل لكى يكبح أطماع بيرو الاستعمارية نحو كيتو وجواياكيل ، ولكن أى جهد لم تكن له أية جدوى ٠ وبقيت مانويلا فى سانتا فى عندئذ دون أية رغبة فى أن تتبعه ، لأنها كانت تعرف ان هاربها الأبدى لم يعد له مكان واحد لـكى يهرب اليه ٠

كتب أوليرى فى مذكراته ان الجنرال لم يكن تلقائيـا أبدا فى تذكر غرامياته الخفية كما كان فى أصيل ذلك اليوم فى تورباكو ، وكتب بعد ذلك بسنوات فى رسـالة خاصـة بأن ذلك كان دليلا واضحا على الشيخوخة ٠ واندفع مونتيللا بحماسه وطبعه لتبادل الأسرار الى تحدى الجنرال وسأله فى مودة :

ـ أو كانت مانويل الوحيدة التى تبقى ؟ ٠

أجاب الجنرال بلهجة الجد : كن يبقين جميعهن ، ولكن مانويلا أكثر من الأخريات ٠

غمز مونتيللا بعينه لأوليرى وقال : اعترف يا جنرال ، كم كان عددهن ؟

أجاب الجنرال : أقل بكثير مما تعتقد ٠

وفي المساء ، بينما كان يأخذ حمـــامه الدافيء ، أراد جوزيه بالاسيوس آن يقطع الشـك باليقين وقال : « طبقا لحساباتى ، انهن خمس وثلاثون ، وذلك من غير أن أحصى اللاتى بقين ليلة واحـدة » وكان الرقم مطابقـا لحســابات الجنرال ، ولكنه لم يشأ الاعتراف بذلك أثناء الزيارة وقال :

ـ ان أوليرى رجل عظيم وجندى عظيم وصديق مخلص، ولكنه يسجل كل شيء ، وليس هنـاك ما هـو أشد خطرا من الذاكرة المكتوبة ٠

وفي اليوم التالى ، وبعد حديث طويل وخاص لكى يعرف الحالة على الحدود طلب من أوليرى المضى الى قرطاجنة فى مهمة ظاهرها التحقق من حـركات السفن المنطلقـة الى أوروبا ، وحقيقتها هى الوقوف على التفاصيل الخفية للسياسة المحلية ، وما كاد أوليرى يصل يوم السبت الثانى عشر من يونية حتى أدى مجلس قرطاجنة اليمين على الدستور الجـديد واعترف بالحكام المنتخبين ٠ وأرسل مونتيللا النبأ للجنرال مع الرسالة المحتومة : اننا ننتظرك ٠

وكان مايزال ينتظر عندما جعلته اشاعة موت الجنرال يثب من فراشــه ، ومضى الى تورباكو بأقصى سرعة دون آن يتسنى له الوقت للتحقق من الاشاعة ٠ ووجد الجنرال فى حالة خيرا مما كان عليها فى أى وقت ، يتناول الغداء مــع الكونت دى ريجكور ، فرنسى أقبل لكى يدعوه للرحيل معــه الى أوروبا فى سفينة انجليزية ، يجب أن تصل الى قرطاجنـة فى الأسبوع المقبل ٠ وكان ذلك ذروة يوم صحة جيدة ٠ وكان الجنرال قد صمم على مواجهة مرضه بمقاومة معنوية ، ولم

يكن هناك من يمكنه أن يقول انه لم يفلح في ذلك ، فقد نهض في وقت مبكر ، وتجول في المكان ساعة حلب الأبقار ، وزار ثكنة الجنود، وعرف من شفاههم في أية ظروف يعيشون، وأصدر أوامر حاسمة لتحسينها . وعند عودته توقف في احدى الحانات وتناول القهوة وأخذ الفنجان معه ليتفادى اهانة تحطيمها . وكان يمضي نحو البيت عندما نصب الأطفال الذين خرجوا من المدرسة فخا ، في أحد الشوارع وهم يصفقون بأيديهم ويغنون « يحيا المحرر .. يحيا المحرر» وفوجيء ، ولم يدر ما يفعل لو لم يفسح له الأطفال الطريق .

ووجد في البيت الكونت دى ريكور ، وكان قد اقبل دون أن يعلن عن قدومه ، ترافقه امرأة لم يسبق له أن رأى من هي أكثر جمالا وأناقة وترفعا مثلها . كانت ترتدى ثياب الركوب رغم أنها أقبلت في عربة يجرها حمار . وعن شخصيتها لم تكشف له الا عن اسمها ، كاميل ، وان مسقط رأسها هي المارتيفيك . ولم يضف الكونت أى توضيح رغم أنه بدا أثناء اليوم أنه مدله بحبها .

أعاد مجرد وجود كاميل الجنرال الى بشاشته وحبوره السابقين ، وأصدر أمره باعداد مأدبة غداء على الفور ، ورغم أن الكونت تكلم باسبانية سليمة فقد دار الحديث بالفرنسية، لغة كاميل . وعندما قالت انها ولدت في « ثروا ايليت » تحمس الجنرال وومضت عيناه الذابلتان بوميض خاطف وقال :

ــ آه ... حيث ولدت جوزفين .

ضحكت وقالت : اذا سمحت يا صاحب الفخامة ، كنت أتوقع منك ملاحظة أكثر ذكاء من تلك التي أسمعها من الجميع .

أحس بأنه أهين ، ودافع عن نفسه بأن أنشد نشيدا عن السكر ببلاجريه ، مسقط رأس مارى جوزفين ، امبراطورة

فرنسا ، والموجود على بعد عدة فراسخ ، خلال الحقول الشاسعة لقصب السكر ورطانة الببغاوات ورائحة آلات التقطير الساخنة • ودهشت وهي ترى الجنرال يعرف المكان هكذا جيدا ، قال :

ـ الواقع أنني لا أعرفه ، ولم أذهب الى المارتينيك أبدا •

قالت : واذن ؟

قال الجنرال : انني عاهدت نفسي منذ سنوات أن أعرف ذلك عن ظهر قلب ، لأنني كنت أعلم أنني سأكون ذات يوم بحاجة الى ارضاء أجمل نساء تلك الجزر •

كان يتكلم من غير توقف وبصوت خافت منغم • وكان يرتدى بنطلونا من القطن المطبوع ، وسترة من الجوخ وخفا أحمر • وأثارت رائحة ماء الكولونيا التى تعبق بها غرفة الطعام اهتمام كاميل واعترف لها أن تلك هى نقطة ضعفه الى حد أن أعداءه يتهمونه بأنه أنفق ثمانمائة ألف بيزو من الأموال العامة على ماء الكولونيل • كان شاحبا كما كان بالأمس ، ولكن قسوة علته لم تكن تلاحظ الا فى الأضرار التى أصيب بها جسده •

كان الجنرال ، عندما يجد نفسه بين الرجال قمينا بالتحدث كالسوقة ، ولكن كان يكفى وجود امرأة لكى تكون تصرفاته وكلماته مهذبة الى حد التكلف •

ونزع بنفسه زجاجة نبيذ من أجود أصناف أنبذة بورجونيا ، وصفها الكونت دون خجل عندما تذوقها بأن لها ملامسة المخمل • وكانوا يحتسون القهوة عندما همس الملازم ايتوربيد بضع كلمات فى أذن الجنرال • وأصغى اليه هذا الأخير فى اهتمام ثم اضطجع فى مقعده الى الخلف وهو يضحك عن طيب خاطر ، وقال :

ـ اسمعوا هذا أرجوكم •• جاءنا هنا وفد من قرطاجنة لتشييع جنازتى •

وأدخل الوفد ، ولم يجد مونتيللا واصدقاؤه حلا اخـر غير متابعة اللعبة ، واستدعى الملازمون عازفي الموسيقى من سان جاسنتو ، وكانوا ينتظرون منذ الأمس ، ورقص بعض الرجال والنساء من متوسطى العمر رقصة مشهورة ومعروفة باسم الكومبيا ، احتفالا بالمدعوين • ودهشت كاميل من أناقة تلك الرقصة الشعبية الافريقية المنشأ وأرادت أن تتعلمها • وكان للجنرال سمعة كبيرة كراقص • وتذكر بعض الموجودين أنه رقص الكومبيا أثناء زيارته السابقة ، كما لو كان أستاذا في الرقص • ولكن عندما دعته كاميل لمشاركتها رفض الشرف الذى أولته به وقال وهو يبتسم : « لقد مر علـى ذلك ثلاث سنوات ، وهى مدة طويلة » • وفجأة توقفت الموسيقى لحظة وارتفعت هتافات وسلسلة من الانفجارات ، فريعت كاميل • وقال الكونت بلهجة الجد :

ــ رباه ! •• ولكن هذه ثورة !

قال الجنرال وهو يضحك : لا يمكن أن تتصور الى أى حد نحن بحاجة اليها ، ولكن مما يؤسف له أنها ليست غـير مصارعة بعض الديكة •

وفرغ من إحتساء قهوته دون أن يفكر ، ودعا بحركة من يده المدعوين الى مشاهدة صراع الديكة وقال :

ــ تعال معى يا مونتيللا لكي ترى الى أى حد أنا ميت •

وهكذا ، مضى فى الساعة الثانية من الظهر الى المـكان الذى تتصارع فيه الديكة ، ترافقـه مجمـوعة من الرجال المهيمنين ، على رأسهم الكونت دى ريجكور • ولكن فى هـذه المجموعة من الرجال فحسب لم يبـد أحد الاهتمام به وانما انصب كل اهتمامهم على كاميل • لم يصدق أحد أن تلك المرأة الباهرة الجمال لم تكن من عشـيقات الجنرال ، والأكثر من هذا فى مكان كان دخول السيدات فيه ممنوعا ، ولا سـيما

عندما رأوا الكونت يرافقها ، لأنه كان من عادته أن يحمل رجالا غيره على مرافقة عشيقاته الخفيات لتعقيد الآثار ٠

كانت المصارعة التالية بشعة ، فقد فقأ ديك أحمر عين غريمه بأظافره بذكاء ٠ ولكن الديك الأعمى لم يستسلم ، انصب على الآخر حتى انتزع رأسه وأكلها بمنقاره ٠ وقالت كاميل :

ـ ما كنت لأتصور أبدا حفلة دموية كهذه ٠ ولكنها راقت لى ٠

قال لها الجنرال : «انها لتكون أكثر دموية حين يحرضون الديكة بصرخات بذيئة وطلقات نارية فى الهواء ، ولكن أصحاب الديكة ارتدعوا بعد ظهر اليوم وقد أزعجهم وجود امرأة جميلة جدا مثلك» ٠ ونظر اليها دون أى دلال وأردف : « والذنب ذنبك أنت » فضحك وقد أطربها قوله وقالت :

ـ بل هو ذنبك أنت يا صاحب الفخامة لأنك حكمت هذا البلد طوال كل تلك السنوات ولم تصدر قانونا يرغم الرجال على أن يتصرفوا على طباعهم عندما تكون هناك نساء ، وعندما يخلو المكان منهن ٠

بدأ يفقد هدوءه وقال : أرجوك لا تناديني بصاحب الفخامة ٠ يكفيني أن أكون عادلا ٠

وفى تلك الليلة ، بينما كان يعوم فى مياه البانيو العديمة الفائدة قال له جوزيه بالاسيوس : « انها أجمل امرأة رأيناها » ٠ ولم يفتح الجنرال عينيه وقال : « انها فظيعة » ٠

كان ظهوره فى ميدان مصارعة الديكة ، طبقا لرأى الجميع عملا متعمدا لتكذيب مختلف الروايات عن مرضه ، وهى روايات كانت مقلقة جدا فى الأيام الأخيرة بحيث لم يشك أحد فى اشاعة موته ٠ وكان لذلك العمل تأثيره لأن

سعاة البريد الذين غادروا قرطاجنة آشـاعوا فى كل مكان تقريبا نبأ صحته الجيدة ، وأقام أنصاره ، عن تحد أكثر منه عن فرح وغبطة مهرجات عامة للاحتفال بذلك ٠

افلح الجنرال فى أن يخدع حتى جسـده بالذات لانه استمر على بشاشته ومرحه فى الايام التالية ٠ وبلغ به الامر الى ان يجلس الى مائدة اللعب مع ملازميه الذين يتعلبون على ضجرهم بلعب الورق طوال الوقت ٠ وكتب اندريه ايبارا ، أصغر الملازمين وأكثرهم مرحا والذى كان لا يزال يحتفظ باحساس رومانسى عن الحـرب ، الى صـديقة له فى كيتـو يقول : « اننى أفضل الموت بين ذراعيك عن هـذا السـلام بدونك » كانوا يلعبون نهارا وليلا وهم مستغرقون طورا فى أحاجى الورق ويتجادلون طورا آخـر بأصـوات مرتفعـة ، يلاحقهم الناموس دائما فى تلك الأيام المطيرة ويهاجمهم فى وضح النهار رغم نيران جلة الاسطبلات التى يشعلها الحراس بصفة دائمة ٠ ولم يكن قد لعب الورق منذ ليلة جوارديياس المنكودة لأن تصرف ويلسـون الغـامض ترك فيـه نوعا من المرارة أراد أن يمحوها من قلبه ٠ ولكنه كان يسمع صراخهم وهو فى أرجوحته ، وحنينهم الى القتـال وهم غارقـون فى جمود سلام خفى ٠ وبينما كان يتجول ذات ليلة فى البيت ، لم يقاوم الاغراء وتوقف فى الرواق ٠ وأشار الى من أمامه بالتزام الصمت ، واقترب من اندريس ايبارا ، وكان يوليه ظهره ، وألقى يديه فوق كتفيه ، كما لو كانتا مخلبى طائر كاسر وقال :

ـ قل لى شيئا يا ابن عمى ٠٠٠ أترى أنت أيضـا أننى أبدو كميت ؟

وكان ايبارا معتادا على تلك التصرفات ، فلم يتحـول اليه وأجاب :

ـ كلها أيها الجنرال ٠

قال الجنرال : حسـنا ، أما أن تكون أعمى واما أنك تكذب ٠

قال ايبارا : واما أنني أوليك ظهرى ٠

وأبدى الجنرال اهتمامه باللعب ، وجلس ٠ وانتهى به الأمر الى الاشتراك معهم ، وكانت تلك الليلة والليـالى التى تلتها كعودة الى الحياة العادية ٠ وقال الجنرال : « حتى يأتينا جواز السفر » ٠ وقال له جوزيه بالاسيوس انه رغم طقوس اللعب ، ورغم اهتمامه الشخصى ، ورغمـه هـو بالذات فان ضباط الحاشية قد سئموا هـذه الجيئـات والروحات التى لا تفضى الى شىء ٠

لم يكن هناك من يهتم مثله بمصير ضباطه وبتفاصـيل حياتهم اليومية وبأفق أقدارهم ٠ ولكن عندما كانت المشاكل تبدو متعذرة ، كان يحلها وهو يكذب على نفسه ، وغالبا ما كان ينسى آلامه هو بالذات بعد حادثة ويلسون وأثناء رحلة النهر لكى يهتم بهم ٠ وكان تصرف ويلسون غـير معقول ، وما كان ليدفعه الى مثل هذا العمل الأحمق الا كبت خطـير جدا ، وقد قال الجنرال عنه عندما رآه يقـاتل فى معـركة جونين : « انه عسكرى جيد كأبيه » وأردف عندما رفض رتبة الكولونيل التى منحه اياها الجنرال سوكريه وأجبره هو على قبولها « وأكثر تواضعا » ٠

كان النظام الذى يفرضه على الجميع فى وقت السلم كما فى وقت الحرب نظاما بطوليا ونظام اخلاص فى نفس الوقت، يتطلب حاسة الاستبصار تقريبا ٠ كانوا رجال حرب وليسوا رجال ثكنات لأنهم قضوا كل وقتهم فى القتال بحيث لم يجدوا الوقت للسكنى فى المعسكرات ٠ كانوا من جميع الأنـواع ، ولكن نواة الذين حققوا الاستقلال مع الجنرال ٠ كانوا زهرة كريولية أرستقراطية رائعة ، تلقـوا دروسـهم فى مدارس

الامراء،وامضوا حياتهم فى القتال من ناحية الى اخرى .
بعيدا عن بيوتهم وزوجاتهم وأولادهم . بعيدا عن كل شيء
وجعلت منهم الضرورة رجال سياسة وحكومة • كانوا جميعا
فنزويليين ، فيما عدا أيتوربيد والملازمين الاوربيين .
وجميعهم اقارب للجنرال تقريبا ، سواء عن طريق الدم او
المصاهرة : فرناندو وجوزيه لورنسيو والاخوان ايبارا
وبريسنيو منديز، كانت روابط الدم والعشيرة تحقق ذاتيتهم
وتجمعهم •

واحد منهم فحسب كان مختلفا وهو جوزيه لورنسيوسيلفا ،
ابن قابلة اقليم ألتيناكو بالسهول وصياد النهر • كانت له
بشرة أبيه وأمه الداكنة وينتمي للطبقة الدنيا للقوم ذوى
البشرة السمراء ولكن الجنرال زوجه باحدى بنات أخواته
وتدعى فيليسيا • وبدأ حياته فى السادسة عشرة من عمره
كمتطوع فى جيش التحرير وأصبح قائدا عاما فى الثامنة
والخمسين وأصيب بأكثر من خمسة عشر جرحا خطيرا وكثير
غيرها أقل خطرا تسببت فيها مختلف الأسلحة فى اثنتين
وخمسين معركة فى كل حملات الاستقلال تقريبا • وكانت
المضايقة الوحيدة التى تسبب فيها مولده النخاسى أن أقصته
احدى سيدات الارستقراطية المحلية أثناء حفلة راقصة •
وطلب الجنرال عندئذ اعادة الرقصة ورقصها معه •

وكان الجنرال أوليرى على النقيض منه ، فقد كان أشقر
وطويل القامة ، ذا وقار مقداما يفخمه زيه الفلورنسى، أقبل
الى فنزويلا وهو فى الثامنة عشرة من عمره كحامل علم
الفرسان الحمر ، وقضى كل حياته تقريبا فى كل معارك
الاستقلال • وقد زالت حظوته ، ككثيرين غيره عندما ساند
سانتاندر فى نزاعه مع جوزيه أنطونيو بايز ، فى احدى
المهمات التى كلفه بها الجنرال للبحث عن صيغة للمصالحة •
وكف الجنرال عن مصافحته ، وتركه لمصيره أربعة عشر شهرا
حتى فترت حدة غضبه •

لم يكن هناك جدال في جدارة كل منهما · ولكن الجنرال لم يدرك أبدا أنه أقام أمامهما عائقا منيعا لتولى السلطة ، وكان هو نفسه يعتقد أنها من حقهم ، ومع ذلك ففى الليلة التى أطلعه فيها جوزيه بالاسيوس على معنوياتهم لعب معهم ندا لند وهو يخسر شيئا فشيئا حتى تملكهم التعب والارهاق ·

كان من الواضح أن كل احباطاتهم القديمة قد إختفت، لا يهمهم احساس هزيمة تصيبهم بعد احرازهم النصر فى حرب، ولا يهمهم البطء الذى فرضه عليهم ازاء حصولهم على الترقيات للحيلولة لاعتقادهم باحقيتهم فى تلك الامتيازات، ولا يهمهم كذلك حياة التشرد أو مصادفات الغراميات العرضية · وقد خفضت مرتباتهم العسكرية الى الثلث بسبب قلة الضرائب بالبلاد ، بل كانت لا تسدد لهم الا متأخرة ثلاثة شهور ، وبسندات حكومية من العسير استبدالها ، فكانوا يبيعونها بالخسارة للمضاربين في البورصة · كان كل ذلك لا يهمهم الا قليلا ، كما لم يكن يهمهم ان يرحل الجنرال وهو يصفق الباب فيدوى صوته فى العالم أجمع ، أو أن يتركهم تحت رحمة أعدائهم فالمجد ملك للآخرين ، ولكن الأمر الذى لم يمكنهم احتماله هو الشك الذى يوحيه اليهم شيئا فشيئا منذ أن اتخذ القرار بالتخلى عن السلطة وعدم استطاعتهم احتماله هو بالذات طالما استمرت هذه الرحلة اللا نهائية نحو لا مكان ·

احس الجنرال فى تلك الليلة بأنه مسرور جدا بحيث قال وهو يستحم لجوزيه بالاسيوس انه ليس هناك بينه وبين ضباطه أى سوء تفاهم · ومع ذلك فقد بقى الضباط على انطباعهم بأنهم لم يفلحوا فى بث احساس الامتنان أو الذنب للجنرال وانما فى بذر شيء من الشك ·

وعلى الأخص جوزيه ماريا كارينو ، فمنذ ليلة الحديث فى الزورق كان يبدى فظاظة ويغذى دون أن يدرى الشائعة

التى تقول انه كان على اتصال بالانفصاليين الفنزويليين ·
وكان الجنرال قد أقصاه عن قلبه ذلك بأربع سنوات، كما فعل مع أوليرى ومونتيلا وبريسينو منديز وسانتانا وكثيرين غيرهم لأنه كان يشك فى أنه يريد أن يشتهر على حساب الجيش ، وأمر بمراقبته الآن وراح يتنسم أخباره ويصغى الى كل الشائعات التى تدور حوله ويبذل جهده لكى يرى بريقا فى ظلمات شكوكه بالذات ·

وسمعه ذات يوم يقول فى الغرفة المجاورة ، دون أن يدرى ان كان صاحيا أو نائما ، انه فى سبيل سلامة الوطن يمكن للمرء أن يفعل أى شىء حتى ولو يخون ، وعندئذ أخذه من ذراعه واصطحبه الى الحديقة وأخضعه الى سحر اغرائه الذى لا يقاوم وهو يحدثه بدون كلفة محسوبة لا يلجأ اليها الا فى المناسبات القصوى واعترف كارينو له بالحقيقة ، وهى أنه يشعر بالمرارة لأن الجنرال يترك عمله يسير على غير هدى ويتركهم كما لو كانوا يتامى · ولكن خططه هو بالذات للارتداد كانت مخلصة ، فقد أرهقه البحث عن بريق أمل فى هذه الرحلة الحمقاء ، وعجز عن الاستمرار فى المعيشة بدون روح وصمم أن يهرب الى فنزويلا لكى يقود حركة مسلحة فى صالح سلامة الأراضى وعدم تقسيمها ·
وقال :

ـ لم أجد ما هو خير من ذلك ·

سأله الجنرال : ماذا تظن ؟ ·· هل ستجد معاملة أفضل فى فنزويلا ؟

لم يجرؤ كارينو على أن يؤكد ذلك وقال :

ـ حسنا · ولكن الوطن هناك على الأقل ·

قال الجنرال : لا تكن أبله • ان الـوطن بالنسبة لنـا جميعا هو آميركا ، وكل مكان فيها هـو الوطن ، ولا جـدال في ذلك •

ولم يدعه يقول المزيد ، وراح يحدثه طويلا وهو يريه في كل كلمة ما يحس هو به في سويداء قلبه ، رغم أن ما من أى كاريبى أو أى أحد آخـر عرف أبداً ما يكنـه قلبـه في الواقع • وأخيرا ربت بيده عـلى ظهره وتركه في دياجـيره وهو يقول :

ـ كفى تخريفا يا كارينو ، فكل هذا قد جرفه الشيطان •

عرف في يوم الاربعاء ، السادس عشر من يونية ان الحكومة صدقت على المعاش الذى منحه له الكونجرس مدى الحياة ، وأطلع الرئيس موسكيرا على علمه بذلك برسالة بروتوكولية تشوبها السخرية • وبعد أن أملاها قال لفرناندو بصيغة الجمع التى اعتاد جوزيه بالاسيوس عليها : « نحن أثرياء » وفي يوم الثلاثاء الثاني والعشرين تلقى الجواز الذى يتيح له مغادرة البلاد ، فراح يلوح به فى الهواء ويقول « نحن أحرار » وبعد يومين ، وهو مستيقظ فى أرجوحته بعد ساعة من النوم المضطرب فتح عينيه وقال « نحن حزينون » وعندئذ قرر أن يمضى الى قرطاجنة دون تأخير ، منتهزا الجو المضبب والبارد • وكان الأمر الوحيد المحدد الذى أصدره هو أن يمضى الضباط اليها بملابسهم المدنية ، وعزل من الأسلحة ، ولم يقدم أى تفسير أو يبدى أية حركة تسمح لهم بتخمين أسبابه ، وكذلك لم يفكر فى توديع أحد • وما أن استعد حرسه الخاص حتى انطلقوا وتركوا لباقى الحاشية الاهتمام بالأمتعة الى ما بعد •

اعتاد الجنرال خلال هذه الرحلات على التوقف كيفما يتفق للاستعلام عن مشاكل الذين يلتقى بهم فى طريقه • كان يستفهم منهم عن كل شيء •• عن أعمار أولادهم وطبيعة أمراضهم ، وأحوالهم ، ورأيهم فى هذا أو ذاك ، ولكنه هذه المرة لم ينطق بكلمة واحدة ولم يغير مسيرة خطاه ، ولم يسعل ولم يبد ما يدل على أى تعب ، ولم يتناول طوال النهار غير كأس من النبيذ • وفى نحو الساعة الرابعة من بعد الظهر ، ظهر فى الأفق الدير العتيق فوق تلة بوبا ، وكان ذلك وقت الغفران • وكان يرى فى الطريق العام صف من الحجاج

يرتقون المنحدر الوعر كسرب من النمل المجتهد . وبعد ذلك بقليل راوا عن بعد السرب الأزلي للطيور الكاسرة وهي تحلق فوق السور ومياه المدبح . واذ رأى الجنرال الاسوار ، أشار الى الجنرال جوزيه ماريا كارينو ، فانضم اليه هذا الأخير وقدم له طرف دراعه المبتورة ليعينه على الصعود . وقال له الجنرال في صوت خافت جدا : « لدى مهمة خاصة لك . حاول أن تعرف أين يوجد سوكريه عندما نصل » . وربت بيده على ظهره كعادته حين يعنى أن هذا كل شيء ، وأردف : « فيما بيننا بالطبع » .

كان ينتظرهم وفد كبير على رأسه مونتيلالا . في الطريق العام . ورأى الجنرال نفسه مضطرا الى انهاء رحلته في العربة القديمة للحاكم الاسباني ، تجرها بعض البغال النشطة . ورغم ان الشمس بدأت في المغيب فان اغصان أشجار المانجو بدت كأنها تغلي في لهب المستنقعات الميتة التي تحيط بالمدينة ، والتي كانت رائحتها النتنة أقل احتمالا من روائح الخليج التي تعفنت منذ قرن بدماء ومخلفات المذبح . وعندما مروا من بوابة « ديمي لون » طارت مجموعة من الطيور الكاسرة مذعورة من السوق الى الفضاء ، وكانت ما تزال هناك آثار ذعر تسبب فيها كلب مسعور عض في الصباح بضعة أشخاص مختلفي الأعمار ، منهم امرأة قشتالية من جنس أبيض كانت تتجول هناك حيث لم يكن لها أن توجد . وعض أيضا أطفالا بحي العبيد ، وأفلح هؤلاء الآخرون في قتله بالحجارة ، وكانت جثته تتدلى أمام باب المدرسة . وأحرقها الجنرال لأسباب صحية أولا ، ولكي يمنع الأهالي على الخصوص من محاولة التغريم والاضرار بها بالسحر الأفريقي .

وفي داخل الأسوار ، هبط السكان الى الشارع ، بناء على قرار عاجل . وكانت الأمسيات قد غدت أطول وأكثر شفافية مع قدوم شهر يولية . وبدت أكاليل من الزهور في

الشرفات ، ونساء يرتدين ثيابا غريبة على طريقة مدريد الشعبية • ودوت أجراس المدينة وصخب الفرق وطلقات المدفعية حتى البحر ، ومع ذلك فلم يستطع أى شيء من هذا تخفيف البؤس الذى أرادوا اخفاءه • وكان الجنرال يلوح بقبعته من العربة المخلعة ، ولم يستطع الا أن يرى نفسه فى هذه الهالة من الشفقة وهو يقارن بين هذا الاستقبال المعسر ودخوله الظافر الى كاراكاس فى أغسطس سنة ١٨١٣ ، حيث توج بأكاليل الغار فى عربة تجرها ست من أجمل فتيات المدينة ، أمام شعب دامع منحه الخلود بأن أطلق عليه لقبه المجيد « المحرر » وكانت كاراكاس عندئذ قرية نائية بالمقاطعة الاستعمارية ، كريهة وحزينة وباهتة ، ولكن أمسيات جبل أفيلا كانت تثير الحنين •

لم تكن هاتان الذاكرتان تمتان الى نفس الحياة لان مدينة قرطاجنه ديزاند النبيلة والباسلة وعاصمة الردافة الملكية مرارا عديدة التى أشادوا ألف مرة بأنها واحدة من اجمل مدن الدنيا لم تعد حتى شبح ماضيها ، فقد عانت تسعة حصارات عسكرية ، برا وبحرا ، وتعرضت للسلب والنهب مرارا عديدة من القراصنة ومن الجنرالات ومع ذلك فلم يدمرها شيء كما دمرتها حروب الاستقلال وحروب المتآمرين بعد ذلك • وهربت العائلات التى أثرت وقت الذهب ، وتشتت العبيد القدماء خلف حرب لا طائل منها ، وقصور النبلاء احتلها الأوباش ، وراحت تصب فى الشوارع التى أصبحت كالمزابل فئرانا كبيرة كالقطط ، وأصبح من المتعذر ، بين الأشواك والعوسج ، رؤية حزام الأسوار الخفية التى أراد فيليب ، ملك أسبانيا رؤيتها بالمنظار المكبر من أبراج قصره ، وغدت التجارة التى ازدهرت بتهريب الرقيق فى القرن السابع عشر مقتصرة على بضعة متاجر خربة • ولم يكن المجد ليتفق مع نتانة المجارى المفتوحة • وتنهد الجنرال وهمس فى أذن مونتيللا :

– بئس هذه الحرية التي كلفتنا الكثير ! ·

جمع مونتيللا في تلك الليلة جميع ما في المدينـــة من الرجال المشـــهورين والمرموقين في قصره المنيف بشـــارع فاكتوريا حيث قضى فيه المركيز فالديهويوس حياة بائسة في حين آثرت زوجته المركيزة بفضل تهريب الرقيق والاتجـار بالزنوج · وفي القصور أضيئت شموع عيد القيامة ، ولكن الجنرال لم ينخدع بها لأنه كان يعرف أن أية قضية في جزر الـكاريبي مهما يكن نوعهـا ، حتى ولو مات شخص مرموق يمكن أن تكون سببا لأعياد شعبية · وكانت تلك حفلة زائفة في الواقع ، فمنذ بضعة أيام كانت الجرائد تتكلم عنـه بكل سوء ، وحرض الحزب المعارض أنصاره من الأشـقياء عـلى تحطيم النوافذ بالحجارة ومواجهة رجال البوليس بالهراوات· وقال مونتيللا بسخريته العادية ، في وعيه بأن غضب الشعب انما موجه اليه هو أكثر مما هو موجه الى الجنرال « من حسن الحظ أنه لم يبق هناك لوح زجاج واحد سليما » وعزز حرس الرماة بفرق من الجنود المحلية ، وحاصر المنطقة وحظر اطلاع ضيفه على حالة الفوضى التي تندلع في الشارع ·

وأقبل الكونت دي ريجكور تلك الليلة بالذات لينبيء بأن الباخرة الانجليزية على مرمى البصر من قصور بوكاشيكا، ولكنه لن يبحر بها متذرعا بالحجة الرسمية بأنه لا يريد أن يشترك في عبور المحيط الكبير مع مجموعة من النساء يتكومن فوق بعض في مقصورة واحدة ، ولـكن الحقيقة انه ، رغم النداء الاجتماعي بتورباكو ، ومغامرة صراع الديكة ، وكل ما قام به الجنرال للتغلب على وعكاته الصحية ، رأى الكونت انه لم يكن في حالة تمـكنه من القيام بالرحيـل · رأى أن معنوياته قد تتحمل العبور ، أما جسده فلا، ورفض أن يسدي خدمة للموت · ومع ذلك فلم تستطع هذه الأسباب ولا العديد من غيرها من الأسباب زعزعة عزم الجنرال ·

لم يقر مونتيللا بالهزيمة • استأذن مدعويه فى الانصراف مبكرا حتى يستطيع المريض أن يستجم ، ومع ذلك فقد احتجزه فترة طويلة فى الشرفة الداخلية ، فى حين راحت مراهقة فاترة ترتدى قميصا من الموسلين الشفاف تعزف سبع أغنيات غرامية على قيثارة • وكانت أغنيات جميلة جدا ، وأجادت عزفها برقة بحيث ان الجنرالين لم يطاوعهما قلباهما على الكلام قبل أن تنتهى نسمة البحر من اكتساح الرماد الأخير للموسيقى • وبقى الجنرال نعسان فى المقعد الهزاز ، محلقا فى نغمات القيثارة • وفجأة غلبه التأثر فراح يشدو فى صوت فاتر وواضح جلى بالكلمات الكاملة للأغنية الأخيرة • وأخيرا تحول الى العازفة وتمتم لها بكلمات شكر نابعة من سويداء قلبه ، ولكنه لم ير الا القيثارة واكليلا من الغار الذابل ، وتذكر عندئذ وقال :

ـ فى هوندا سجين لاقترافه جريمة قتل لها ما يبررها •

قهقه مونتيللا ثم أطلق دعابته قائلا :

ـ وما لون قرنيه ؟

تظاهر الجنرال بأنه لم يسمع وعرض عليه المسألة بالتفصيل فيما عدا ملحته الشخصية مع ميراندا لندساى فى جمايكا • ورأى مونتيللا أن حل القضية ميسور وقال :

ـ فليطلب نقله الى قرطاجنة لأسباب صحية • وما أن يأتى هنا حتى تتكفل باطلاق سراحه •

سأله الجنرال : هل هذا ممكن حقا ؟

أجاب مونتيللا : ليس ممكنا ، ولكننا سنعمل على أن يحدث •

أطبق الجنرال عينيه متجاهلا نباح الكلاب الذى دوى فجأة ، وخطر لمونتيللا أنه قد نام • وبعد تفكير عميق فتح عينيه من جديد وحفظ القضية قائلا :

ـ موافق · لكننى لا أعرف شيئا ·

تبين عندئذالنباح الذىآخذ يتسع في موجات متراكزة ، بدءا من الأسوار حتى أبعد المستنقعات ، حيث كانت الكلاب مدربة على عدم النبـاح حتى لا تنم عن أصحابها ، وقال له الجنرال مونتيللا أنهم يسممون الكلاب الضالة لمنع انتشار داء الكلب ، وأنهم لم يفلحوا الا فى امسـاك طفلين عقرهما الكلب فى حى العبيد ، فقد أخفى الأهالى الأطفال الآخرين كعادتهم لكى يموتوا فى حماية آلهتهم أو يؤوهم فى مخابئ العبيد الآبقين فى مستنقعات ماريا لاباجا حيث لا تستطيع الحكومة دخولها ، فى محاولة لانقاذهم بحيل السحرة ·

لم يحاول الجنرال أبدا ايقاف هذه الشعائر المصرية ، ولكن بدا له تسميم الكلاب أمرا غير انسانى · كان يحبها كما يحب الجيـاد والزهور ، وأول مرة أبحـر فيهـا الى أوروبا اصطحب معه كلبين حتى فيراكروز · وكان لديه منها أكثر من عشرة على رأس أربعمائة فلاح يرتدون الأسمال · واجتاز الانديز ، بدءا من سهول فنزويلا لتحرير غرناطة الجـديدة وتأسيس جمهورية كولومبيا ، وقد أخذهم دائما الى الحرب . وقد هزم نيفادو · وهو أشهر كلابه ورفيق حملاته الأولى . زمرة من عشرين كلبا من كلاب الحراسة بالجيش الاسبانى قبل أن يلقى حتفـه بضربة من رمح فى معـركة كارامبوبو الأولى · وفى ليما كان لدى مانويلا ساينز من الكلاب أكثر مما تستطيع الاهتمام بهم فضلا عن الحيوانات العديدة من كل صنف التى تربيها فى قصر مجدالينا · وقد قال أحدهم للجنرال ان الكلب عندما يموت يجب استبداله عـلى الفـور بكلب آخر ينسب له نفس الاسم حتى يعتقد أنه نفس الكلب · ولم يوافقه الجنرال ، فقد أرادها دائما مختلفة لـكى يتذكر كلا منها على حدة باضطرام عينيه وقلق أنفاسه ، ولكى يتألم لموتهم · وفى ليلة الخامس والعشرين من سبتمبر المشـئومة سـجل اسمى الكلبين اللذين ذبحهما المتآمرون بين ضـحايا

الهجوم ، وكان معه فى هذه الرحلة الأخيرة الكلبان الباقيان، وكذلك الكلب الأجرب الذى أووه وهم فى النهر : عندما أخبره مونتيللا أنهم سمموا فى اليوم الأول أكثر من خمسين كلبا ، أفسد الخبر الحالة الذهنية التى أغرقه فيها عزف القيثارة ·

ندم مونتيللا بصدق وأقسم له أنه لن يكون هناك المزيد من الكلاب المسمومة فى الشوارع ، وهدأ الوعد الجنرال ، لا لأنه صدق أنه سيبر به ، ولكن لأن النوايا الطيبة لضباطه كانت تريح أعصابه · وقام صفو الليلة بالباقى · وارتفع من صحن الدار المضاء شذا أزهار الياسمين ، وبدا الهواء كالماس ، والنجوم فى السماء كانت أكثر منها فى أى وقت مضى . كالأندلس فى أبريل · كان قد قال ذلك فى أوقات أخرى وهو يتذكر كولومبس · وريح متضادة كنست الشوارع والروائح ولم يبق غير صخب الأمواج وهى ترتطم بالصخور ·

توسل مونتيللا قائلا : لا ترحل يا جنرال ·

أجاب : ان الباخرة بالميناء ·

قال مونتيللا : ستأتى بواخر أخرى ·

أجاب : الأمر سيان ، فكل واحدة منها ستكون الأخيرة ·

ظل على رأيه · وبعد توسلات عديدة بدون طائل لم يسع مونتيللا أخيرا الا أن يكشف له السر الذى أقسم على الاحتفاظ به حتى عشية الأحداث، وذلك أن الجنرال رافائيل أوردانيتا يعد ، على رأس بعض الضباط البوليفاريين انقلابا فى سانتا فى فى أوائل سبتمبر · وخلافا لما كان مونتيللا يتوقع لم يبد الجنرال أية دهشة وقال :

ــ لم أكن أعرف شيئا عن هذا، ولكن من السهل تصوره ·

كشف له مونتيللا عندئذ تفاصيل المؤامرة العسكريه التى تدور بالفعل فى جميع الحاميات المخلصة بالاتفاق مع بعض ضباط فنزويلا · وغرق الجنرال فى تفكير عميق ثم قال : ليس لهذا أى معنى · اذا كان أوردانيتا يريد اصلاح الدنيا حقا فليتفاهم مع بايز ويستعد تاريخ الخمسة عشر عاما الأخيرة ، من كاراكاس حتى ليما ، ولن يكون الأمر بعد ذلك أكثر من نزعة وطنية حتى باتاجونيا ، غير أنه ترك المسألة معلقة قبل أن يمضى للنوم وقال :

ـ هل سوكريه على علم ؟

أجاب مونتيللا : انه غير موافق ·

قال الجنرال : بسبب خلافه مع أوردانيتا بالتاكيد ·

قال مونتيللا : كلا · بل لأنه ضد كل ما يحول بينه وبين الذهاب الى كيتو ·

قال الجنرال : مهما يكن فيجب التحدث اليه · أما معى أنا فانك تضيع وقتك ·

بدا أن هذه كلمته الاخيرة الى حد أنه أصدر فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى أمره الى جوزيه بالاسيوس بنقل أمتعته الى الباخرة الواقفة فى الخليج · وطلب من الربان ان يلقى المرساة بعد الظهر أمام حصن سانتو دومينجو لكى يتاح له أن يراها من شرفة البيت · وكانت الاستعدادات دقيقة جدا ، وحيث انه لم يقل من من ضباطه سيرحل معه فقد ظنوا أنه لن يصطحب معه أحدا منهم · وقام ويلسون بما استقر عليه الرأى منذ شهر يناير ونقل أمتعته دون أن يستشير أحدا ·

وحتى الذين كانوا أقل اقتناعا برحيله ذهبوا لتوديعه عندما رأوا العربات الست بحمولتها تمر فى طريقها الى

الميناء • وكان الكونت دى ريجكور ضيف الشرف المدعو هذه المرة على الغداء هو وكاميل • كانت تبدو أصغر سنا ، يكسب شعرها المعقوص فى حلقات وبلوزتها الخضراء وخف من نفس اللون . عينيها وميضا أقل قسوة ، وأخفى الجنرال استياءه وهو يراها بأن قال لها مجاملا بالاسبانية :

ـ لابد أن السيدة شديدة الثقة بجمالها بحيث ترى أن اللون الأخضر يناسبها •

ترجم الكونت العبارة فورا فانفجرت كاميل ضاحكة مسرورة وملأت ضحكتها جو البيت برائحة عرق السوس وقالت : « دعنا لا نبدأ من جديدة يا دون سيمون » • كان شىء فيهما قد تغير لأن كل منهما لم يجرؤ على العودة الى المباراة البلاغية للقائهما الأول مخافة أن يجرح شعور الآخر • ونسيته كاميل وهى تتمايل كما يحلو لها وسط جمع من الناس تربوا بالذات لكى يتكلموا بالفرنسية فى مثل هذه المناسبات • ومضى الجنرال لتبادل بضع كلمات مع الراهب سبستيان دى سيجونيزا الذى يتمتع باعتبار يستحقه لأنه عالج همبولد من جدرى أصيب به فى المدينة خلال السنة الأولى من القرن • وكان الراهب هو الوحيد الذىلم يعر الأمر أهمية اذ قال : « ان الله شاء أن يموت بعض الناس بالجدرى وأن لا يموت البعض الآخر به والبارون همبولد من هؤلاء الآخرين » • وقد طلب الجنرال أن يتعرف به أثناء رحلته السابقة عندما عرف أنه يعالج ثلاثمائة من الأمراض المختلفة بعقاقير أساسها الصبر •

عندما عاد جوزيه بالاسيوس من الميناء ومعه نبأ رسمى بأن الباخرة ستكون أمام البيت بعد الغداء أصدر مونتيللا أمره بالاعداد لحفلة الوداع العسكرية ، وبسبب الشمس فى تلك الساعة من منتصف شهر يونية أمر باقامة مظلات فوق الزوارق التى يجب أن تنقل الجنرال وحاشيته من حصن

سانتو دومينجو : وفى الساعة الحادية عشرة احتشد البيت بالمودعين والزوار التلقائيين الذين يكادون يختنقون من الحر ، وقدمت على المائدة الكبيرة كل الأنواع الغريبة والشهية من المأكولات المحلية • ولم تستطع كاميل أن تفهم سبب الانفعال الشديد الذى يرج قاعة الطعام عندما سمعت الصوت المصدوع يهمس فى أذنها : « بعدك يا سيدتى » وساعدها الجنرال على تناول القليل من كل شيء وهو يذكر لها اسم ووصفة وأصل كل نوع من الطعام ، ثم أعد لنفسه طبقا مشكلا مثيرا بذلك دهشة طاهيته ، وكان قد رفض أن يتناول منها منذ ساعات طبقا من المشهيات ، ثم شق طريقها بين الجماعات التى تبحث عن مكان للجلوس ، واصطحبها حتى آوانى الأزهار الكبيرة الاستوائية ووجه اليها الحديث ، فقال دون مقدمات :

ــ سيروق لى أن ألتقى بك فى كنجستون •

أجابت دون أية دهشة : لن يسرنى شيء أكثر من ذلك ، فاننى أحب الجبال الزرقاء •

ــ وحدك ؟

أجابت : مهما يكن الشخص الذى يرافقنى فساكون دائما وحيدة •

وأردفت تقول فى شيء من الخبث : يا صاحب الفخامة •

ابتسم وقال : سأوصى هيسلوب بأن يبحث عنك •

وكان هذا كل شيء • واصطحبها ثانية عبر الصالة الى المكان الذى وجدها فيه ثم استأذن منها وحياها مجاملا وانصرف • وترك طبقه سليما على حافة احدى النوافذ ، وعاد الى مكانه ، ولم يعرف أحد فى أية لحظة قرر البقاء ، ولا السبب فى قراره • وضايقه السياسيون وهم يحدثونه

عن الانشقاقات المحلية ، وتحول فجأة نحو ريجكور وقال دون مناسبة لكي يسمعه الجميع :

ـ أنت على حق يا سيدى الكونت ، فماذا أفعل بكل هذه النساء وأنا فى هذه الحالة المحزنة ؟

قال الكونت وهو يتنهد : هذا رأيى بالذات ·

ثم استطرد مسرعا : وعوض عن ذلك فستأتى فى الأسبوع المقبل الفرقاطة شانون الانجليزية ، وبها مقصورة جيدة وطبيب ممتاز ·

قال الجنرال : هذا أسوأ من مائة امرأة ·

وعلى كل حال فلم يكن هذا التوضيح الا ذريعة لأن أحد الضباط كان على استعداد لأن يتنازل له عن مقصورته حتى جاميكا · وكان جوزيه بالاسيوس هو الوحيد الذى كشف السبب الحقيقى وهو ينطق بعبارته الأكيدة : «ان ما يدور فى رأس سيدى لا يعرفه غير سيدى» · وما كان الجنرال ليستطيع الابحار على كل حال لأن الباخرة جنحت وأصيبت بأضرار جسيمة بينما كانت تتهيأ لكى تمضى لاستقباله فى سانتو دومينجو ·

بحيث بقى مع شرط وحيد وهو ألا يقيم فى بيت مونتيللا · كان الجنرال يعتبر ذلك البيت من أجمل بيوت المدينة ، ولكنه كان يجده باردا جدا لعظامه لقربه من البحر ، خصوصا فى الشتاء ، عندما يستيقظ فى أغطيته المبتلة · كانت صحته تستوجب هواء أقل برودة ، من هواء الأماكن المغلقة · وفسر مونتيلا ذلك كاعلان اقامة طويلة ، وسارع بارضائه ·

كانت هنــاك ضاحية فى مفــارق طرق هضبة لابوبا ، أحرقها الغرناطيون فى سنة ١٨١٥ بأيديهم حتى لا تستطيع الجنود الملكية استرداد المدينة وتعسكر فيها . وكانت تضحيه لا طائل منها لأن الاسبان استولوا على أسوار المدينه بعد مائه وستة عشر يوما اضطر المحاصرون أثناءها الى اكل حتى نعال أحذيتهم ، وهلك أكثر من ستة آلاف شــخص من الجــوع . وبعد خمسة عشر عاما كان السهل لا يزال متفحما ويتعرض للحرارة اللافحة لشمس الساعة الثانية من بعد الظهر . وأحد البيوت القليلة التى بنيت فى تلك الفترة هــو بيت تاجــر انجليزى يدعى جوداه كنجسلر ، وكان مسافرا فى الــوقت الحالى ، وقد جذب انتباه الجنرال عند مجيئه الى توروباكــو بسبب سطحه النظيف المبنى من سعف النخيل وجدرانه الزاهية الألوان ، ولأنه يكاد يكون مدفونا فى قلب غابة من الأشــجار المثمرة .

ورأى الجنرال مونتيللا أنه بيت متواضع بالنسبة لمكانة ضيفه ، ولكن هذا الأخير ذكره بأنه سبق أن وجد راحته فى فراش دوقة كما وجدها فى زريبة خنازير ، وهو متدثر فى حرملة ، بحيث انه اكترى البيت لفترة غير معلومة وبآجــر اضافى للفراش والطست وكراسى الصــالة الستة وجهــاز التقطير الذى كان مستر كنجسلر يســتخدمه لصــنع شرابه الكحول . وأتى الجنرال مونتيللا من قصر الحــكومة بأريكة منجدة بالقطيفة وبنى كوخا كبيرا من الخيزران لاقامة جنود الحرس . وكان الجو لطيفا فى الساعات المشمسة وأقل برودة فى الأوقات الأخرى من بيت المركيز فالديهويوس ، ويحتوى على أربع غرف مفتوحة على كل الرياح حيث تنتشر السحالى الأمريكية . وكان الأرق فيــه أقل حدة عنــدما تســمع فى الصباح الانفجارات الخاطفة لثمار القشدة وهى تتساقط من أشجارها . وفى الأصيل ، وخصوصا فى الأوقات الشــديدة

المطر ، كانت ترى مواكب الفقراء الذين يحملـون غرقاهم للسهر عليهم داخل الدير ٠

وبعد أن انتقل الجنرال الى بيت بيبيه دى لابوبا لم يعد الى البيت القديم الا ثلاث مرات ، لا لشيء الا لكى ياخذ وضعه كنموذج أمام الرسام أنطونيو موكى ، وهو رسام ايطالى كان يمر بقرطاجنة ، وأحس بأنه ضعيف جدا بحيث اضطر الى الجلوس فى الشرفة الداخلية لبيت المركيز ، وسط الزهـور البرية ولجب العصافير ، ولم يكن يستطيع أن يبقى بلا حراك أكثر من ساعة ٠ وراقت له الصورة ، رغم أن الفنان يبدو أنه أشفق عليه كثيرا وهو يرسمه ٠

كان الرسام الغرناطى جوزيه ماريا اسبينوزا قد رسمه فى قصر الرئاسة بسانتافى قبل محاولة الاغتيال فى سبتمبر. وبدت له صورته مختلفة جدا عن الصورة التى يعرفهـا عن نفسه ، بحيث لم يستطع مقاومة الاغراء بالشكوى للجنرال سانتانا ، سكرتيره فى ذلك الوقت ، وقال له :

ـ هل تعرف لمن تشبه هذه الصورة ؟ ٠٠ انهـا تشـبه العجوز أولايا ٠٠ عجوز لاميزا ٠٠

وعندما عرفت مانويلا ساينز ذلك استنكرت لأنها كانت تعرف عجوز لاميزا وقالت : يبـدو لى أنك لا تحب نفسـك كثيرا ، فقد كان أولايا فى الثمانين من عمره عندما رأينـاه آخر مرة ، ولم يكن يستطيع الوقوف ٠

كانت أقدم صورة له منمنمة رسمها له رسام مجهول فى مدريد ، عندما كان فى السادسة عشرة من عمره ٠ وعنـدما بلغ الثانية والثلاثين رسمت له صورة أخرى فى هايتى ، وكلتا الصورتين كانت أمينة بالنسبة لسنه وطبيعته الكاريبية ٠ كان يجرى فى عروقه دم أفريقى ورثه عن أحد أجداد أبيه أنجب ابنا من أمة ، وعكست قسماته ذلك الى حد أن نبـلاء

ليما أطلقوا عليه اسم « الزامبو » • وكان كلما أحرز مجدا جمله الرسامون بغسل دمه واضفاء شيء من الكمال على قسماته حتى رسخوها فى الذاكرة الرسمية كما لو آنها قسمات لتمثال روماني ، وبالمقابل فان صورة اسبينوزا لم تكن لتشبهه وهو فى الخامسة والأربعين وقد أضناه المرض الذى حاول اخفاءه ، وعلى الخصوص عن نفسه حتى عشية موته •

فى ليلة ممطرة استيقظ الجنرال من رقاد مضطرب فى منزل بييه دى لابوبا ورأى مخلوقة انجيلية تجلس فى ركن من الغرفة ، ترتدى ثوبا من الكتان الخشن من ذلك النوع الذى ترتديه الراهبات وتزين شعرها باكليل من الحباحب • كان الرحالة الآوربيون تأخذهم الدهشة فى العهد الاستعمارى وهم يرون الأهالى ينيرون طريقهم بقوارير ملأى بتلك الحشرات المضيئة • واصبحت هذه الحشرات فيما بعد موضة جمهورية . استخدمتا النساء كأكاليل مضيئة فى شعورهن وعلى جباههن ومشابك فسفورية على صدورهن • آما الفتاة التى دخلت الغرفة تلك الليلة فقد خاطتها على شريط أضاء وجهها برونق شبحى كانت فاترة وغامضة فى العشرين من عمرها وخط المشيب شعرها قبل الأوان ، وقد اكتشف الجنرال على الفور ومضات الفضيلة التى يقدرها أكثر من غيرها عند المرأة والذكاء الشديد • دخلت معسكر الجنود لكى تمنح نفسها مقابل أى شيء • وانبهر قائد الحرس بجمالها ومفاتنها وبعث بها الى جوزيه بالاسيوس لعلها تروق للجنرال • ودعاها هذا الأخير الى الاستلقاء بجواره لأنه لم يجد من نفسه القوة لكى يحملها بين يديه حتى الأرجوحة فخلعت شريطها ووضعت الحباحب المضيئة داخل قطعة من عود قصب جاءت به معها ورقدت بجواره • وجازف وسألها عن رأيهم فيه فى قرطاجنة فقالت :

ـ يقال ان فخامتك فى صحة جيدة وانك تتمارض لكى يشفقوا بك ٠

خلع قميص نومه وطلب منها أن تفحصه على ضوء الشمعة ٠ وعندئذ تعرفت ، بوصة بوصة على أكثر الاجساد تلفا التى يمكن للانسان أن يراها : بطن غائرة وأضلاع ظاهرة وساقين وذراعين أشبه بساقى وذراعى هيكل عظمى ، والكل يكسوه جلد أمرد له شحوب الموتى ووجه مدبوغ بصروف الحياة ويبدو كأنه جسد شخص آخر غيره ، وقال :

ـ لم يبق أمامى الا أن أموت ٠

قالت الفتاة فى اصرار : ان الناس يقولون انك هكذا منذ الأبد ، ولكن من صالحك الآن أن يعرفوا ذلك ٠

لم يقر بالواقع ، واستمر يقدم لها كل الأدلة التى لا يمكن نقضها عن مرضه بينما كانت تستسلم لبضع لحظات لنوم سهل ٠ وراحت تتابع ردودها وهى نائمة دون أن تفقد حبل الحديث ٠ ولم يلمسها طوال الليل واكتفى بأن يستشعر دفء ملاذ مراهقته ، وفجأة راح الملازم ايتوربيد يغنى بجوار النافذة « اذا هبت العاصفة وازداد الاعصار فاعقدى ذراعيك حول عنقى لكى يجرفنا البحر معا » ٠ كانت غنوة من الماضى ، من ذلك الوقت الذى كانت معدته لا تزال تتحمل القوة الهائلة لهضم الجوافة الطازجة وشبق امرأة فى الظلام ، وأصغى الجنرال والفتاة اليه معا بورع تقريبا ، ولكنها نعست فى نصف الغنوة التالية ، وغرق هو بعد قليل فى وهن لا تتخلله الأحلام ٠ وكان الصمت مطبقا بعد الموسيقى بحيث هاجت الكلاب عندما نهضت على طرف قدميها لكى لا توقظ الجنرال وسمعها وهى تبحث ، متحسسة ، عن أكرة الباب فقال :

ـ أنت تنصرفين وأنت عذراء ٠

أجابته بضحكة مرحة : ما من امرأة تبقى عذراء بعد أن تقضى ليلة معك يا صاحب الفخامة ٠

وانصرفت كما انصرفت جميع الأخريات ، لانه من بين جميع النساء اللاتى مررن بحياته ، والكثير منهن بعد بضع ساعات ، لم يخطر له أن يفكر في استبقاء واحدة منهن ٠ ولكنه كان قمينا ، فى مبادراته الغرامية ، بأن يغير العالم لكى يمضى ويجدهن ، واذا ما أرضى رغباته اكتفى بالاحساس الوهمى بأنه يمتلكهن فى ذاكرته ، ويمنح نفسه لهن عن بعد فى خطابات ملتهبة ويرسل اليهن هدايا فخمة ، لكى يمنع نفسه من نسيانهن ، ولكن دون أن يربط أقل جزء من حياته بارتباط يبدو أقرب الى الغرور أكثر منه الى الحب ٠

ما أن وجد نفسه وحده في تلك الليلة حتى نهض لكى ينضم الى ايتوربيد الذى كان يتبادل الحديث مع بعض الضباط حول نار فى الحديقة ، وحمله على الغناء حتى الفجر ، وطلب من جوزيه دى لاكروز باريدس أن يصاحبه بالقيثارة ، وفهم الجميع ، من الأغانى التى كان يطلبها ، أنه عكر المزاج ٠

كان قد عاد من رحلته الثانية الى أوروبا متحمسا للاغانى الحديثة التى كان يشدو بها بكل قوته ، ويرقص بيسر لا يضاهى فى أفراح النبلاء الكريوليين بكاراكاس ٠ وغيرت الحروب ميوله ، فالأغانى الرومانسية التى قادته خلال البحار المريبة لغرامياته الأولى تركت مكانها للفلسفات النخبة والألحان العسكرية ، ولكنه أراد فى تلك الليلة ، فى قرطاجنة ، أن يسمع أغنيات شبابه ، وبعضها كانت قديمة جدا بحيث اضطر أن يلقنها لايتوربيد ، وكان هذا صغيرا فى ذلك الوقت بحيث لم يعد يتذكرها ، وكلما نزف قلب الجنرال ، انصرف بعض المستمعين حتى لم يبق غيره هو وأيتوربيد أمام النار التى راحت تخبو ٠

كانت ليلة غريبة ، ليس فى سمائها نجمة واحدة ، وراحت ريح البحر تهب محملة ببكاء اليتامى وبروائح عفنة ٠

وكان ايتوربيد رجلا صموتا بطبعه يمكنه أن ينتظر الفجر ويتأمل ، دون أن تطرف عيناه الرماد المتجمد وهو غارق فى نفس الالهام الذى يحس به وهو يغنى ليلة بتمامها دون توقف • وحطم الجنرال الصمت وقال وهو يضرب الرماد بعصاه :

ـ ماذا يقولون فى المكسيك ؟

قال ايتوربيد : لا أعرف أحدا هناك ، فأنا رجل منفى •

قال الجنرال : نحن جميعا منفيون • منذ أن بدأ كل هذا لم أعش الا ست سنوات فى فنزويلا ، وبقيت بقية الوطن أضرب فى أقصى بلاد العالم ، ولا يمكنك أن تتصور ماذا يمكن أن أقدمه لو أستطيع فى هذه اللحظة تناول يخنى باللحم السمين •

لا ريب أن أفكاره أفلتت حقا نحو مصنع السكر الذى قضى فيه طفولته لأنه غرق فى صمت مقنع وهو ينظر الى النار وهى تخبو • وعندما تكلم من جديد عاد الى الأرض الثابتة وقال : « المشكلة هى أننا عدلنا عن أن نكون اسبانيين ، ثم رحنا نمضى هنا وهناك فى بلاد تتغير أسماؤها وحكوماتها من يوم الى آخر الى حد أننا لم نعد ندرى أين نحن » • وتأمل الرماد من جديد لحظة طويلة ثم سأل بلهجة مختلفة :

ـ كيف خطر لك أن تأتى الى هنا فى حين أن هناك بلادا أخرى فى الدنيا ؟

أجابه ايتوربيد وهو يلف لفة طويلة : علمونا فى الكلية الحربية كيف نحارب على الورق • كنا نحارب جنودا من الرصاص فوق نماذج من الحصى • وكانوا يمضون بنا أيام الآحاد الى المراعى المجاورة ، بين الأبقار والسيدات العائدات من القداس ، ويطلق الكولونل قذيفة مدفع لكى نعتاد على

الرعب من الانفجار ومن رائحة البارود . تصور ان اكثر الأساتذة مقدرة كان انجليزيا عاجزا وكان يعلمنا كيف نقع موتى من فوق الجياد .

قاطعه الجنرال قائلا : وكنت تريد حربا حقيقية ؟

أجاب ايتوربيد : كنت أريد حربك أنت أيها الجنرال، ولكن مرت بى الآن سنتان على تطوعى ومازلت آجهل ما هى معركة اللحم والدم .

استطرد الجنرال دون أن ينظر الى وجهه : « انك أخطأت المصير اذن فلن تكون هناك حروب غير حروب البعض ضد البعض ، والأمر عندئذ كأنك تقتل أمك بالذات » وقال له جوزيه بالاسيوس وهو فى الظل ان النهار يوشك أن يطلع ، وعندئذ شتت الرماد بطرف العصا وقال وهو ينهض معتمدا على ذراع ايتوربيد :

— أما أنا فلو كنت مكانك لفزرت من هنا بأقصى سرعة قبل أن يلحق بى العار .

كرر جوزيه بالاسيوس حتى مماته آن بيت بييه دى لابوبا كان مسحورا بأرواح ماكرة ، فما كادوا يقيمون فيه حتى اقبل الملازم جوزيه توماس ماشادو من فنزويلا بنبأ يقول فيه ان فرقا عسكرية قد شجبت الحكومة الانفصالية وانضمت الى حزب جديد موال للجنرال . واستقبله هذا الأخير على انفراد واستمع اليه باهتمام ولكن لم يبد أى حماس وقال : « ان الأخبار طيبة ولكنها تأتى متأخرة . أما أنا فماذا يستطيع عاجز مسكين ضد العالم أجمع » . وأصدر تعليماته لاستضافة الرسول والوفد الذى رافقه ، ولكنه لم يعده برد وانما قال : اننى لا أنتظر أى سلام للوطن .

ومع ذلك ، ما أن استأذن بالانصراف من الكابتن ماشادو حتى مضى الى كارينو وسأله : «هل وجدت سوكريه؟»

« نعم • مضى الى سانتا فى فى منتصف مايو مسرعا لكى يحضر عيد ميلاده مع زوجته وابنته فى اليوم المحدد » •

واستطرد كارينو : وكان مسرعا ، وقد التقى به الرئيس موسكيرا فى طريق بوبايان •

صاح الجنرال مذعورا : ماذا تقول ؟ هل سافر عبر البر ؟

ـ هو ذلك أيها الجنرال •

صاح : رباه !

كانت ضربة أصابته فى الصميم ، فقد عرف فى نفس الليلة أن سوكريه راح ضحية كمين وقتل برصاصة فى ظهره فى اليوم الرابع من يونيه بينما كان يجتاز منطقة بيروكوس المعتمة • وجاء مونتيللا بالخبر السيىء بينما كان الجنرال يأخذ حمامه الليلى • وما كاد يسمعه حتى ضرب جبينه بكف يده وشد بكل قوته المفرش الذى كان ما يزال فوق مائدة الطعام كما لو أن الجنون قد تملكه من فرط الغضب وقال :

ـ رحماك يا الله !

وكان البيت لا يزال يدوى بصدى الضجة عندما استرد رباطة جأشه ، وانهار فوق مقعده وهو يهدر : « انه أوباندو ••• أوباندو ذلك القاتل الأجير الذى يعمل لحساب الاسبان » • وكان يعنى الجنرال ماريا أوباندو ، قائد فرقة باسطو على حدود غرناطة الجديدة الذى حرمه بهذه الطريقة من خلفه الوحيد الممكن ، ضامنا لنفسه رئاسة الجمهورية المفككة لكى يسلمها لسانتاندر • وقد ذكر أحد المتآمرين فى مذكراته أنه عندما خرج من البيت الذى دبرت فيه الجريمة ، فى ميدان سانتا فى أحس بصدمة كبيرة وهو يرى فى ضباب

بعد الظهر الشديد البرودة المارشال ســوكريه ، بمعطفــه الاسود من الجوخ وقبعته المتواضعه ، يمشى بمفرده ويداه فى جيبيه فى ساحة الكنيسة ٠

تقيأ الجنرال دما فى الليلة التى علم فيها بموت سوكريه ٠ وكتم جوزيه بالاسيوس الامر ، كما فعل فى هوندا عنــدما فاجأ سيده وهو على أربع ، يحاول أن يغسل أرض الحمــام باسفنجة ، واحتفظ لنفسه بالسرين دون أن يطلب الجنرال منه ذلك ، لانه اعتقد أنه ليس من المــلائم أن يضيف أنبــاء سيئة اخرى الى الأنباء المعروفة ٠

أحس الجنرال فى ليلة شــبيهة بهــذه ، فى جوياكيل بشيخوخته المبكرة ٠ وكان شعره مسترسلا حتى كتفيه ويعقده فى مؤخرة رأسه بشريط لكى يكون عــلى راحته أكثر أثنــاء معارك الحرب والحب ٠ ولكنه أدرك فى هذه الليلة أنه أبيض تقريبا . وأن وجهه ذابل وحزين وكئيب ، وكتب الى صديق: « لو ترانى فلن تعرفنى ٠ آنا فى الواحدة والأربعين وآبدو كشيخ فى الستين » ٠ وفى تلك الليلة بالذات قص شعره ٠ وبعد ذلك بقليل حلق شاربه محاولا ايقاف عاصفة شــبابه الذى يهرب من بين أصابعه ٠

بعد مقتل سوكريه لم يعد بحاجة الى فن الماكياج لاخفاء شيخوخته ٠ وخيم الحــداد عــلى بيت بييه دى لابوبا وكف الضباط عن لعب الورق ، وراحوا يسهرون الى وقت متأخر من الليل وهم يتحدثون فى الحديقة حول النار الخالدة التى تطرد الناموس ، أو داخل الكوخ الكبير ، فى أرجوحات معلقة على ارتفاعات مختلفة ٠

قطر الجنرال مراراته قطرة قطرة ٠ كان يختار ضابطين أو ثلاثة ، كيفما اتفق ، ويحملهما على السهر وهو يريهما أسوأ ما يعتمل فى قلبه من كدر وكرب ٠ وكرر على أسماعهم

مرة أخرى القصة القديمة لجيوشه التى تواجدت على حافة الانشقاق بسبب دناءة سانتاندر الذى رفض، حين كان رئيسا مؤقتا لجمهورية كولومبيا أن يرسل اليه جنودا وأموالا لانهاء تحرير بيرو ، وقال :

ـ انه بخيل ومقتر بطبعه ولكن حجيجه كانت تفتقر الى الادراك وبعد النظر ، ولا يتيح له ذكاؤه أن يرى الى ابعد من الحدود الاستعمارية ٠

وأعاد على أسماعهم للمرة الألف حماقة الضربه القاتلة التى اصابت الوحدة بدعوة الولايات المتحدة الى مؤتمر بنما، وهى المبادرة التى قام بها سانتاندر تحت مسئوليته فى حين أنه كان يجب اعلان وحدة أمريكا لا أكثر ولا أقل وقال : « لكأنه دعا قطا لكى يرقص مع الفئران » وكل ذلك لان الولايات المتحدة اتهمتنا بأننا نغير القارة الى جامعة من دول شعبية ضد الاتحاد المقدس ٠ ياله من شرف ! » ٠

وجهر مرة أخرى عن ذعره من رباطة الجأش التى وصل بها سانتاندر الى أهدافه فقال : « انه تجاوز كل الحدود » وكرر للمرة الأخيرة نقده اللاذع نحو الديون التى تلقاها سانتاندر من لندن التى استخدمها فى العمل على اخفاء فساد أصدقائه ، وكلما ذكر ذلك ، سواء أكان ذلك فى حديث خاص أم عام كان يضيف قطرة من السم فى جو سياسى لم يكن يبدو أنه يحتمل المزيد ، ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه ذلك ٠ وقال :

ـ وهكذا بدأت نهاية العالم ٠

كان دقيقا جدا فى ادارة الأموال العامة بحيث انه لم يستطع التعرض لهذه المسألة دون أن يتملكه القلق ٠ كان قد أصدر مرسوما وهو رئيس للجمهورية باعدام كل موظف

ثبت ادانته باختلاس وسرقة أكثر من عشرة بيزو ، وعلى العكس لم يكن يقيم اى وزن لأمواله الخاصة بحيث انفق فى بضع سنوات فى سبيل حرب الاستقلال جزءا كبيرا من ثروته التى ورثها عن أسرته ، ووزع باقى ثروته على الارامل والمعوقين فى الحرب ، وأعطى أبناء أخيه مصنع السكر الذى ورثه وترك لاخواته بيت كاراكاس ، ووزع معظم آراضيه على العديد من العبيد الذين حررهم حتى قبل الغاء الرق ، ورفض مليون بيزو أهداها له كونجرس ليما تعبيرا عن فرحته بالتحرير . وقبل أن يستقيل بقليل أهدى قصر مونسيرات الذى خصصته له الحكومة لكى يتسنى له العيش فى مكان لائق الى صديق محتاج . وفى أبوريه نهض من الأرجوحة التى كان يرقد فيها وأهداها الى فلاح أصيب بالحمى ، وقضى بقية الليل راقدا على الأرض . والعشرون ألف بيزو التى أراد أن يدفعها من ماله الى المربى جوزيه لانكستر لم تكن دينا شخصيا وانما دين على الدولة . وكان يتنازل عن جياده التى يحبها لأصدقائه الذين يلتقى بهم فى طريقه ، وحتى بالومو بلانكو ، جواده المعروف والمشهور بقى فى بوليفيا ليرأس اصطبلات المارشال سانتاكروز بحيث ان موضوع الاختلاسات كانت تحمله رغما عنه الى أقصى حدود القصاص ، وكان يقول لمن يريد أن يسمعه :

ــ خرج كاساندر من هذه التهمة بريئا بالطبع ، كما خرج من مؤامرة الخامس والعشرين من سبتمبر لأنه بطل فى انقاذ المظاهر . ولكن أصدقاءه كانوا يعيدون الى انجلترا نفس الديون التى أقرضها الانجليز للدولة بفائدة كبيرة ويضاعفونها لحسابهم بأساليب ربوية .

وطوال ليال بأكملها عرض على الجميع أشد أعماق قلبه عتامة ، وفى فجر اليوم الرابع ، بينما كانت الأزمة تبدو أبدية ظهر بباب الحديقة مرتديا نفس الثياب التى كان يرتديها عندما علم بأمر الجريمة واستدعى الجنرال بريسينو

منديز وتكلم معه على حدة حتى بدأت الديكة تصيح . وكان الجنرال في ارجوحته تحميه باموسيه وبريسينو منديز في ارجوحة اخرى علقها له جوزيه بالاسيوس بجواره . ولم يكن اى منهما مدركا بالطبع الى اى حد تخلى عن هدوئه السلمى ، وتراجع في بضعة أيام الى ليالى المعسكرات المتقلبة . وفى هذا الحديث أدرك الجنرال أن الاضطرابات والآمال التى عبر عنها جوزيه ماريا كارينو فى تورباكو لا يعتنقها هو وحده وانما يشاركه فيها أغلب الضباط الفنزويليين ، فقد أحسوا، بعد التصرف العدائي للغرناطيين ازاءهم أنهم أكثر فنزويلية من أى وقت مضى وأنهم على استعداد للتضحية بحياتهم فى سبيل قضية الوحدة ، ولو أن الجنرال أصدر اليهم الأمر بالمضى للقتال في فنزويلا لمضوا اليه كنثار بارود ، وبريسينو منديز أولهم .

كانت تلك أسوأ الأيام ، والزيارة الوحيدة التى رضى الجنرال بها كانت زيارة الكولونل ميسزلاو نابييرسكى ، بطل معركة فريدلاند والذى بقى على قيد الحياة من كارثة ليبزج. وكان قد أقبل فى تلك الأيام الاخيرة ومعه توصية من الجنرال بونياتوسكى للانضمام الى الجيش الكولومبى .

قال له الجنرال: انك جئت متأخرا، فلم يبق هناك شيء .

كان قد بقى أقل من لا شيء بعد موت سوكريه ، وهذا ما ذكره لنا نابييرسكى ، خصوصا في مذكراته عن رحلاته التى كان يجب أن يعثر عليها شاعر غرناطى بعد ذلك بمائة وثمانين سنة . كان نابييرسكى قد وصل على سطح الفرقاطة شانون ، وقد رافقه ربان السفينة حتى بيت الجنرال ، وعبر لهما هذا الأخير عن أمنيته فى الذهاب الى أوروبا . ولكن لم يتكشف فيه أى من الرجلين رغبة حقيقية للرحيل . ولما كان من المتوقع أن تتوقف الفرقاطة فى لاجوبارا ، ثم تعود الى قرطاجنة قبل أن تبحر الى كنجستون فقد أعطى الجنرال

للربان خطابا لوكيله الفنزويلى فى قضية مناجم اروا على امل آن ياتيه عند عودته بمبلغ من المال ، ولـكن الفرقاطة عادت دون جواب فاستولى عليه حزن شديد بحيث لم يخطر لاحد ان يسأله ان كان سيرحل ·

لم يكن هناك حتى ولو نبا يبعث على العزاء ، وحرص جون بالاسيوس ، من ناحيته بألا يضاعف من حدة الأنبـاء التى تصله واجتهد فى تاخيرها بقدر ما يستطيع · ثم انه كان هناك شىء يثير قلق ضباطه ويخفـونه منـه حتى لا يزيدوا عذابه ، وهو أن الفرسان والجنود كانوا يبـذرون البـذرة الحادة للسيلان الخالد ، وقد بدأ ذلك فى هوندا من امرأتين نشرتا الداء فى كل الحامية ، وراح الجنود ينشرونه بدورهم خلال غرامياتهم غير الصحية فى كل مكان يمرون به ، ولم يفلت من هذا الداء ولا جندى واحد ، رغم أنهم لم يتركوا عقارا أو دواء الا وقد جربوه ·

لم تكن احتياطات جـوزيه بالاسـيوس ليتجنب سـيده مضايقات لا فائدة منهـا منيعة ، فذات مسـاء مرت رسالة مجهولة من يد الى أخرى ، ولم يدر أحـد كيف وصـلت الى أرجوحة الجنرال · قرأها هذا الأخير من غير نظارته ، باسطا ذراعه ، ثم ألقاها على شعلة الشمعة وأمسـكها بين أصـابعه حتى احترقت تماما ·

كانت الرسـالة من جوزيفـا سـاجرارا · وصلت يوم الاثنين وهى فى طريقها الى مومبوكس مع أولادها وزوجهـا وقد استمالها خبر اقالة الجنرال ومغادرته للبلاد · لم يبح أبدا بما جاء فى تلك الرسالة · ولكنه راح طوال الليل فريسة لهياج كبير وأرسـل فى الصـباح لجوزيفا ساجرارا عرضـا للصلح ، ولكنها صدت كل التماساته ، وتابعت رحلتها كمـا هو متوقع دون أن تضعف لحظة واحـدة · وطبقـا لجـوزيه

بالاسيوس قالت ان السلام مع رجل تعتبره الآن ميتا لا معنى له ·

وفي نفس ذلك الاسبوع تناهي الى الاسماع أن الحرب الشخصية التي نقوم بها مانويلا ساينز ، في صالح عودة الجنرال قد بلغت الذروة · وفي محاولة لجعل حياتها لا تطاق طلبت منها وزارة الداخلية أن تسلمها الأرشيف الذى عهد الجنرال به اليها ، ولكنها رفضت ، وبدأت حملة تحد أخرجت الحكومة عن أطوارها ، فقد دبرت الكثير من الفضائح وراحت توزع منشورات تمجد فيها الجنرال ، تعاونها في ذلك عبدتان ، وتمحو الشائنات المكتوبة بالفحم على الجدران · وكان دخولها الى الثكنات وهى مرتدية زى كولونل واشتراكها في حفلات الضباط جزءا من الحياة العامة ، وأكثر الشائعات الحاحا كانت تقول انها تحرك خفية عن أوردانيتا تمردا مسلحا لاعادة السلطة المطلقة للجنرال ·

كان من العسير الاعتقاد بأن قواه تحتمل كل هذه الأشياء ، وعادت حمى الليل فى انتظام ودقة كبيرة ، وغدا سعاله أكثر ايلاما · وسمعه جوزيه بالاسيوس ذات صباح يقول : « انه لوطن غادر » وأسرع الى الغرفة وقد ذعر وهو يسمع الجنرال يلوم ضباطه ، ووجد احدى وجنتيه يلوثها الدم · كان قد جرح نفسه وهو يحلق ذقنه · وقد أحنقه الأمر أكثر مما أحنقه عدم مهارته · وأسرع الكولونل ويلسون باستدعاء صيدلى لمعالجته ، ووجده هذا الأخير بحيث حاول تهدئته ببضع قطرات من البلادونا ولكن الجنرال أوقفه على الفور قائلا :

ـ دعنى كما أنا فاليأس هو سلام المقضى عليهم ·

كتبت اليه أخته ماريا أنطونيا من كاراكاس وقالت له : « ان الجميع يشكون من أنك لا تريد أن تأتى لكى تعيد النظام

الى هذه الفوضى » وكان كهنة القرى قد أعلنوا تأييدهم له ، وأصبح الهروب من الجيش أمرا يتعذر التحكم فيه ، وامتلأت الأدغال برجال مسلحين يقولون انهم لا يحبون أى شخص آخر غيره وقالت أخته : « انها رقصة مجانين لا يتفاهمون بعد أن قاموا بثورتهم » لأنه بينما كان البعض يهتفون عاليا مطالبين بعودته ، كانت الشتائم والاهانات تغطى ، فى الفجر ، جدران نصف البلد وتطالب باستئصال أفراد أسرته حتى الجيل الخامس ٠

ولكن كونجرس فنزويلا الذى اجتمع فى فالنسيا هو الذى أصابه بالضربة القاضية بتتويج قراراته بالانفصال النهائى والتصريح الرسمى بأنه لن يكون هناك اتفاق ممكن مع غرناطة الجديدة والاكوادور طالما بقى الجنرال فى كولومبيا ٠ ونقل اليه الخبر أن أحد الضالعين فى مؤامرة الخامس والعشرين من سبتمبر ، وهو عدو لدود له أعاده الرئيس موسكيرا من منفاه وعينه وزيرا للداخلية ، وقد حز الخبر فى نفسه أكثر من الأمر نفسه وقال : « يجب أن أقول ان هذا هو الذى أثار حزنى من أى شىء آخر فى حياتى » وبقى مستيقظا جزءا من الليل وأملى على سكرتيرين كثيرين صيغا مختلفة بالرد ٠ ولكن غضبه كان بحيث ان النوم تغلب عليه ، وفى الفجر ، قال لجوزيه بالاسيوس ، بعد أن رأى كابوسا مخيفا :

ــ ستدق الأجراس فى كاراكاس يوم موتى ٠

ولكن الآمر كان أسوأ ٠ وقد كتب محافظ ماراكيبو ، فيما بعد يقول : «اننى أبادر بالانضمام الى هذا الحدث العظيم الذى سيكون سببا فى خير كبير لقضية الحرية وسعادة البلاد ، فروح الشر ومشعل الفوضى وطاغية الوطن قد مات » والنبأ الموجه أساسا لابلاغ حكومة كاراكاس انتهى بأن غدا بيانا رسميا ٠

ووسط هول هذه الأيام المشئومة ، تمنى جوزيه بالاسيوس فى الساعة الخامسة من الصباح عيد ميلاد سعيدا لسيده وقال: اليوم ٢٤ يوليه ، عيد القديسة كريستينى العذراء والشهيدة . وفتح الجنرال عينيه ، ولا شك أنه أدرك مرة أخرى أنه المختار للمحن .

والناس عادة لا يحتفلون بأيام ميلادهم وانما بأعياد القديسين الذين ينتسبون اليهم بأسمائهم . وكان هناك أحد عشر قديسا باسم سيمون فى التقويم الكاثوليكى ، وكان يؤثر أن ينتسب باسمه الى سيمون القيروانى الذى ساعد يسوع فى حمل صليبه ولكن القدر خصه باسم سيمون اخر ، وهو الحوارى والداعى فى مصر والفرس ، وعيده فى الثامن والعشرين من أكتوبر . وفى ذلك اليوم وضعوا على جبينه فى سانتا فى اكليلا من الغار ، وخلعه عن طيب خاطر ووضعه بكل خبث فوق رأس الجنرال سانتاندر الذى تقبله دون أن تطرف عيناه ، ومهما يكن فهو لم يكن يحسب حياته بدءا من هذا الاسم وانما بحساب سنيه ، كان عمره سبعة وأربعين عاما وكان لهذا معناه الخاص له لأنه فى الرابع والعشرين من يوليه الماضى ، فى جواياكيل ، وسط الأنباء السيئة التى تنتشر فى كل مكان عن هذيان الحمى المؤذية بلبلته نبوءة ، وهو الذى لا يقر أبدا بحقيقة التنبؤات ، وهى أنه اذا استطاع أن يبقى على قيد الحياة حتى عيد ميلاده المقبل فلا يمكن أن يموت . وكان غموض هذه النبوءة السرية هى التى أبقته على قيد الحياة حتى اليوم رغم كل المسببات . وتمتم :

ــ رباه . سبعة وأربعون عاما ومازلت حيا !

واستلقى فى أرجوحته وقد استرد قواه وقلبه يخفق بالثقة العجيبة بأنه فى حمى من كل شر . واستدعى بريسينو منديز ، زعيم أولئك الذين يريدون الذهاب الى

فنزويلا للقتال من أجل وحدة كولومبيا ، وأطلعه على الحظوة الممنوحة لضباطه بمناسبة عيد ميلاده :

ـ على كل الذين يريدون الذهاب الى فنزويلا للقتال بدءا من رتبة ملازم حتى رتبة جنرال أن يعدوا عدتهم ٠

كان الجنرال بريسينو أولهم ٠ وانضم اليه جنرالان آخران وأربعة كولونلات وثمانية ملازمين من حامية قرطاجنة ٠ ولكن عندما ذكر كارينا الجنرال بوعده السابق قال له :

ـ انني أدخرك لمقادير أعظم ٠

وقبل رحيلهم بساعتين صمم أن ينضم جوزيه لوريشيو سيلفا اليهم ، لأنه أحس أن صدأ الروتين يضاعف من وساوسه على عينيه ٠ ورفض سيلفا هذا الشرف وقال :

ـ هذه البطالة هى الأخرى حرب ، بل من اشد الحروب قسوة بحيث انني باق هنا ما لم يأمرني جنرالى بشىء آخر ٠

وعلى العكس لم يستطع ايتوربيد ولا فرناندو ولا آندريس ايبارا التطوع ، وقال لايتوربيد : اذا كان ولابد من رحيلك فسيكون ذلك الى مكان آخر ، وذكر لأندريس سببا غريبا وهو أن الجنرال دييجو ايبارا موجود فعلا فى فنزويلا ، وانه لا داعى لوجود أخوين فى حرب واحدة ٠ ولم يحاول فرناندو أن يقدم خدماته لأنه كان على يقين من أنه سيحصل على الرد الدائم : ان الرجل يمضى الى الحرب بكامل جسده ولكنه لا يستطيع أن يمضى اليها بدون عينيه ويده اليمنى ، وعزى نفسه بأن هذا الرد فيه شىء من التمييز العسكرى ٠

أحضر مونتيللا كل المعدات اللازمة للرحلة فى نفس الليلة التى تقرر فيها ذلك ، وحضر الاحتفال المقتصر الذى انصرف منه الجنرال بعد أن عانق وودع كلا منهم على حدة ٠

ومضوا الواحد اثر الآخر وعبر طرق مختلفة . فمنهم من ذهب عبر جمايكا ، ومنهم من مضى عبر كاراكاس أو جيامـورا ، بملابس مدنية وبدون أسلحة أو أى شىء يمكن أن ينم عن شخصياتهم ، كما تعلموا فى عملياتهم الخفية ضد الأسبان ٠
وفى ساعة مبكرة من الصباح كان بيت بييه دى لابوبا خاويا ولكن الجنرال تشبث بالأمل فى أن حـربا جـديدة سـتعيد الخضرة الى أمجاد الماضى ٠

واستولى الجنرال أوردانيتا على السلطة فى الخامس من سبتمبر ، وكان الكونجرس المنتخب قد انتهت مدة انتخابه وسلطته هي الوحيدة التى كان يمكن أن تضفى الشرعية على ذلك الانقلاب ، واحتكم الثائرون الى مجلس بلدية سانتا فى الذى اعترف بأحقية أوردانيتا فى تولى السلطة مؤقتا طالما ان الجنرال هو الذى سيكون الرئيس الحقيقى . وكانت هذه هى نقطة النهاية لتمرد الجنود والضباط الفنزويليين المقيمين فى غرناطة الجديدة والذين هزموا القوات الحكومية يساندهم رجال الدين وصغار الملاك. كان أول انقلاب فى جمهورية كولومبيا وأولى الحروب المدنية التسع والأربعين التى قدر لنا أن نعرفها حتى نهاية القرن . وإذ رأى الرئيس جواكين موسكيرا ونائبه كايسيدو أنه أطيح بهما وأنهما أصبحا وحيدين تخليا عن وظيفتيهما ، وتولى أوردانيتا السلطة ، وكان أول عمل للحكومة الجديدة هو أنه أرسل الى قرطاجنة وفدا خاصا لتقديم رئاسة الجمهورية للجنرال .

ولا يذكر جوزيه بالاسيوس أنه سبق أن رأى سيده منذ وقت طويل بصحة جيدة كما وجده فى تلك الأيام ، لأن آلام الرأس وحمى الليل سلما أسلحتهما بمجرد ورود نبأ الانقلاب، ولكنه لم يسبق أن رآه كذلك فى مثل تلك الحالة من القلق . وانزعج مونتيللا وتواطأ مع الراهب سبستيان دى سيجوينزا، حتى يظل ملازما للجنرال دون أن يبدو عليه ذلك ، ورضى الراهب عن طيب خاطر وأفلح فى ذلك بأن راح يخسر فى لعبة الشطرنج فى أوقات الظهيرة المجدبة حيث كانوا ينتظرون مبعوثى أوردانيتا .

كان الجنرال قد حذق هذه اللعبة واتقنها اثناء رحلته الثانية الى أوروبا ، وأوشك أن يصبح بطلا فيها متحديا الجنرال أوليري أثناء الليالي المميتة لحرب بيرو الطويلة · ولكنه أحس بأنه لا يستطيع مواصلة هذه اللعبة وكان يقول : « ان الشطرنج ليس لعبة وانما هو هواية ، واننى افضل عليها ألعابا أخرى أكثر جرأة » ومع ذلك فقد قررها فى البرامج التعليمية العامة على أنها من ضمن الألعاب المفيدة التى يجب تدريسها فى المدارس · ولكن السبب الحقيقى الذى منعه من الاستمرار فيها هو أن أعصابه لم تكن لتحتمل مثل هذه اللعبة التى تحتاج الى صبر وأناة وتركيز كبير كان يفتقر اليها فى شئون أكثر أهمية ·

وجده الراهب سبستيان يتأرجح بشدة فى أرجوحته التى علقها أمام الباب الخارجى للبيت ، لكى يتمكن من رؤية الأرض الملتهبة حيث يجب أن يظهر مبعوثا أوردانيتا ، وقال عندما رأى الراهب : « آه · أنت لا تيأس أبدا من الخسارة أيها الأب» · وجلس تقريبا لكى يستطيع أن يحرك البيادق · وكان ينهض بعد كل نقلة ، فى حين كان الراهب يفكر · وقد قال له هذا الأخير :

ـ لا تحاول أن تشغلنى يا صاحب الفخامة ، فسوف أتغلب عليك بسهولة ·

ضحك الجنرال وقال : عشم ابليس فى الجنة ·

كان من عادة أوليرى أن يقترب من طاولةاللعب ليفحص رقعة الشطرنج ، ويهمس فى أذن الجنرال ببعض الافكار ، وكان هذا الأخير يرفض نصائحه محنقا · وفى المقابل ، كلما يربح مرة يخرج الى الحديقة حيث يلعب ضباطه الورق لينبئهم نبوءة · وفى أحد الأدوار سأله الراهب ان كان يفكر فى كتابة مذكراته فأجاب :

ـ أبدا · فما المذكرات الا قصص أموات ·

واصبح انتظار البريد ، وهـو احد هواجسه المهيمنة شغله الشـاغل في تلك الأسابيع الغامضـة حيث كان سعاة سـانتا في يتملكهم الملل وهم ينتظرون الأنبـاء الجـديدة للرحيل ، في حين أن السعاة السريين كانوا أكثر نشاطا وهمة بحيث ان الجنرال كان يعرف الأخبار قبل أن يأتيه بها السعاة الرسميون ، ويجد كل الوقت للروية والتفكير ·

وعندما عرف أن المبعوثين اقتربا في السابع عشر من سـبتمبر ، ارسـل كارينو واوليرى لمقـابلتهما في طـريق توربانو · وكان المبعـوثان هما الكولونل فيسنت بنيريس والكولونل جوليان سانتا ماريا ، وقد دهشـا وهما يجـدان المريض الميئوس منه الذى يتكلمون عنه في سانتافي في صحة جيدة · وأقيم احتفال رسمي مرتجل في البيت حضره مدنيون وعسكريون مرموقون ، وألقيت فيـه خطب مناسبة وشربوا نخب الوطن · وأخيرا احتجز الجنرال المبعوثين · وذكر كل منهما الحقيقة مواجهة ، وقال الكولونل سانتا ماريا المعروف بسرعة تأثره انه اذا رفض الرئاسة فان فوضى مروعة سوف تسود البلاد · وتهرب الجنرال قائلا :

ـ الوجود أولا ثم التغيير بعد ذلك ، ولن نعرف اذا كان هناك وطن الا اذا راق الأفق ·

واذ لم يفهم الكولونل سـانتا ماريا ما يعنيـه الجنرال استطرد هذا الأخير يقـول : « أعني أن المهـم قبـل كل شيء توحيد البلاد بالأسلحة ، وطرف الخيط ليس هنا وانما في فنزويلا » ·

وبدءا من هـذه اللحظة غـدا الأمر لدى الجنرال فكرة ثابتة ، وهي البدء من البداية من جديد ، علما بأن العـدو موجود داخل الوطن وليس خارجه ، فحكام القلة في كل بلد

من غرناطة الجديدة المتمثلين بأنصار سانتاندر ، وسانتاندر نفسه أعلنوا الحرب حتى الموت ضد فكرة التكامل ، وهذا مخالف للامتيازات المحلية للعائلات الكبرى ·

وقال الجنرال : « هذا هو السبب الحقيقى لحرب التشتيت التى تقتلنا الآن ، والمحزن هو أنهم يعتقدون أنهم يغيرون العالم فى حين انهم انما يؤيدون أشد الأفكار الاسبانية رجعية » ·

واستطرد : « اننى أعرف أنهم يسخرون منى لأننى اقول فى رسالة بالذات وفى يوم بالتراث ولشخص بالذات شيئا ثم اقول العكس بعد ذلك فيما بعد والمثال اننى وافقت على مشروع اعادة الملكية ثم لم أوافق عليه أو اننى أوافق على الأمرين فى وقت واحد » · اتهموه بأنه متذبذب فى حكمه على الرجال وفى معالجته للتاريخ ، وأنه حارب فرناندو السابع وانه على وفاق مع موريللو ، وأنه شن الحرب حتى الموت ضد اسبانيا ، وانه المروج الكبير لآرائها ، وأنه استند الى هايتى لكى يحرز النصر ثم تعامل معها كبلد أجنبى ولم يدعها الى مؤتمر بنما ، وأنه كان ماسونيا وقرأ فولتير أثناء القداس ، وخادم الكنيسة فى نفس الوقت ، وبالتودد الى الانجليز بينما كان على وشك الزواج بأميرة فرنسية ، وبأنه متهور ومراء وغير مخلص ، لأنه يتملق أصدقاءه أمامهم ويغتابهم فى غيابهم · وقال : « حسنا ، كل هذا حقيقى لأن كل ما فعلته انما فعلته لهدف واحد هو أن تغدو هذه القارة بلدا مستقلا ومتحدا ، ولم يكن لدى أى شك فى ذلك ، ولا أى تناقض » ·

واختتم مبرراته قائلا : «أما الباقى فليس الا تفاهات» ·

وقال فى رسالة أرسلها بعد يومين من ذلك الى الجنرال بريسينو منديز « لم أشأ قبول المناصب التى تخولنى لها

القرارات لأننى لا أريد أن أظهر بمظهر زعيم المتمردين ، ولا أن أبدو اننى قد عينت لمناصب عسكرية من قبل المنتصرين » • ومع ذلك ففى الرسالتين اللتين أملاهما على فرناندو وأرسلهما فى نفس الليلة الى أوردانيتا ، حرص على ألا يكون شديد التطرف •

كانت الرسالة الأولى صريحة ورسمية وجلية الوضوح من حيث بدايتها ، فقد قال «يا صاحب الفخامة » • كان يبرر فيها الانقلاب بسبب الفوضى والاهمال اللذين غرقت فيهما الجمهورية منذ حل الحكومة السابقة ، وقال فيها : «ان الشعب فى مثل هذه الحالات لا ينخدع ، ولكن يستحيل عليه قبول الرئاسة » • لم يكن يستطيع الا أن يقدم استعداده للعودة الى سانتا فى ليخدم الحكومة كجندى بسيط •

أما الرسالة الثانيه فكانت خاصة ويشير فيها الى ذلك من أول سطر « عزيزى الجنرال » وهى رسالة طويلة وواضحة ، ولا تدع اى شك عن أسباب تردده • فبما أن جواكين موسكيرا لم يتخل عن لقبه فيمكنه غدا أن يقدم نفسه على أنه الرئيس الشرعي وأن يعامله هو كمغتصب ، وبهذا يمكن أن يرجع عما قال فى رسالته الرسمية • وطالما لم يتلق طلبا واضحا صادرا من مصدر شرعى فلن يستطيع بأية حال أن يتولى السلطة •

وأرسلت الرسالتان فى وقت واحد ومعهما بيان فى نفس الوقت ، يطلب فيه من البلاد أن تنسى أهواءها وأن تساعد الحكومة الجديدة ، ولكنه يحذر فى نفس الوقت من كل تعهد، وقال فيما بعد : «رغم أننى أبدو أننى أقدم الكثير فأنا لا أقدم شيئا » • واعترف بأنه كتب بضع عبارات وغرضه الوحيد هو مداهنة الذين يريدون المداهنة •

والشىء المثير للاهتمام هو صيغة الأمر فى الرسالة الثانية ، وهو شىء غريب حقا ، فمن ناحية رجل مجرد من كل

سلطة ، طلب ترقية الكولونل فلورنسيو جيمينيز لكى يمضى الى الغرب مع جنوده وما يكفى من المعتاد للاعتراض على حرب الاستنزاف التى يشنها الجنرالان جوزيه ماريا آوباندو وجوزيه هيلاريو لوبيز ضد الحكومة المركزية . وقال فى اصرار « قاتلا سوكريه » ، وأوصى أيضا ببعض الضباط لشغل مناصب مهمة ، وقال لأوردانيتا « اهتم بذلك » . أما من ناحيتى أنا فسأفعل الباقى من مجدالينا حتى فنزويلا ، بما فى ذلك « بوياكا » . وهو نفسه كان يستعد للمضى الى سانتا فى على رأس آلفى رجل للمساهمة فى اعادة النظام العام ودعم الحكومة الجديدة .

لم يتلق أخبارا مباشرة من أوردانيتا طوال اثنين وأربعين يوما ، ولكنه لم يكف عن الكتابة اليه أثناء الشهر الطويل الذى لم يفعل فيه الا اصدار الأوامر العسكرية الى أربعة أقطار العالم . كانت البواخر تأتى وتروح ، ولكنه لم يعد يتحدث عن الرحيل الى أوروبا رغم أنه يتعلل بذلك من يوم لآخر كوسيلة للضغط السياسى . وأصبح بيت بيبه دى لابوبا القيادة العامة للبلاد كلها ، وطوال تلك الأسابيع ، انتهى به الأمر الى اتخاذ قرارات تتجاوز الشئون العسكرية ، واهتم بتفاصيل تافهة ، كايجاد وظيفة فى مصلحة البريد لصديقه العزيز مستر تاتيس أو اعادة الجنرال جوزيه أوكروس الى الخدمة ، لأنه لم يعد يستطيع احتمال هدوء بيته .

*

وراح يكرر بتفخيم كبير احدى عباراته القديمة : « أنا عجوز ومريض ومرهق ومتقزز ومتضايق ومذموم ومبخوس الأجر» ومع ذلك فلم يبد أن هناك من كان يصدقه ، لأنه بينما كان يستخدم أساليب ماكرة لتدعيم الحكومة كان يرسم ، فى الواقع ، الخطط ، نقطة نقطة ، بقوة وسلطة قائد عام لكى يستعيد فنزويلا ويحقق وحدة أكبر الأمم فى العالم .

وما كان في الامكان استيعاب لحظة أكثر ملاءمة ، فان غرناطة الجديدة كانت آمنة في أيدى أوردانيتا ، والحزب الليبرالى مهزوم ، وسانتاندر محجوز في فرنسا ، والاكوادور في حراسة فلورس ، وهو فنزويلي طموح ومشاغب ، فصـل كيتو وجواياكيل عن كولومبيا لينشىء جمهـورية جـديدة · ولكن الجنرال كان ينـوى أن يضمه الى قضيته بعـد القـاء القبض على قتلة سوكريه · وكانت بوليفيا حليفـة بفضـل المارشال سانتاكروز ، صـديقه الذى عرض عليـه التمثيـل السياسى فى الفاتيكان ، بحيث ان الهدف العاجل هـو انتزاع فنزويلا مرة أخرى من سيطرة الجنرال بايز ·

كانت الخطة العسكرية للجنرال تبدو كأنها تقـوم عـلى عمليه هجـوم كبير من كوكوتا ، فى حين أن بايز كان يركز دفاعه على ماراكيبو ، ولكن قرية ريوهاشا أطاحت فى الأول من سبتمبر بحاكمها وشجبت سلطة قرطاجنة وأعلنت أنهـا فنزويلية وساندتها ماراكيبو عـلى الفـور وأرسلت لنجدتها الجنرال بدرو كاروجو ، رئيس متمردى الخامس والعشرين من سـبتمبر ، الذى لجـأ الى الحـكومة الفنزويلية هربا من العدالة ·

نقـل مونتيللا الخبر بمجرد أن تلقاه ، ولـكن الجنرال كان قد عـرف ذلك ، وكان فرحا متهللا لأن تمرد ريوهاشـا سيتيح له امكانية تعبئة قوات جديدة وأفضل ضد ماراكيبو ، وقال : « وفضلا عن ذلك فان كاروجو فى أيدينا » ·

وفى تلك الليلة بالذات انفرد بضـباطه وشرح خطتـه بدقة كبيرة وهو يصف لهم أخطار الأرض ويحرك الجيـوش كلها كالبيادق فوق رقعة الشطرنج ، ويسـتبق أدق حركات العدو · لم ينل تدريبا أكاديميا يقارن لأن من الذين تلقاه ضباطه وأغلبهم من خريجى أحسن المدارس الحربية باسبانيا· ولكنه كان قمينا باستيعاب المـواقف من كل نواحيهـا بأدق

تفاصيلها .. كانت ذاكرته البصرية مدهشة الى حد أنه كان يمكنه توقع عائق سبق أن رآه فى طريقه منذ سنوات ، ورغم أنه لم يكن سيدا فى فنون الحرب فلم يكن هناك من يفوقه فى الوحى والالهام .

وفى الفجر كانت الخطة الدقيقة والشرسة معـدة بكل تفاصيلها . وكان قد تخيل كل شىء الى حد أن الاستيلاء على ماراكيبو كان متوقعا فى نهاية شهر نوفمبر أو فى أسـوأ الحالات فى أوائل شهر ديسمبر . وفى الساعة الثامنـة من صباح يوم ثلاثاء ممطر ، بعد التحقق من كل شىء ، قال له مونتيللا ان الخطة لا تشمل أى جنرال غرناطى فقال :

ـ لا يوجد فى غرناطة الجديدة جنرال واحد يسـتحق الذكر . والجديرون منهم أشرار .

وسارع مونتيللا بتخفيف الحديث فقال : وأنت نفسك يا جنرال ، أين تذهب ؟

أجاب : فى هـذه اللحظـة اما الى كـوكورا ، واما الى ريوهاشا ، فالأمر سيان .

وهم بالانصراف عنـدما ذكره جبين الجنرال كارينـو المكفهر بوعده الذى لم يف به ولا مرة واحدة . والواقع أنه كان يريده الى جانبه بكل ثمن ، ولكنه لم يستطع هذه المرة التهرب من قلقه ، فربت على كتفه فى ود وقال له :

ـ لك ما وعدتك يا كارينو .. أنت أيضا سترحل .

تحركت الحملة المكونة من ألفى رجل من قرطاجنـة فى تاريخ بدا أنه اختير كرمز ، وهـو الخامس والعشرين من سبتمبر، وكانت القيادة مكونة من الجنرالات ماريانو مونتيللا وجوزيه فليكس بلانكو وجوزيه ماريا كارينو ، وكانت مهمة

كل منهم البحث فى سانتا ماريا عن بيت ريفى يمكن للجنرال أن يتابع فيه الحرب عن قرب وان يسترد صحته ٠ وكتب الجنرال الى أحد أصدقائه يقول : « سأمضى بعد يومين الى سانتا ماريا للقيام ببعض التمرينات ولكى أخدع ما اشعر به من وهن وانهيار ، ولكى أسترد صحتى » ٠ وتم له ما أراد فقد انطلق فى أول اكتوبر ، وفى الثانى منه ، كتب وهو فى الطريق رسالة للجنرال جوستو بريسينو قال فيها : « اننى متوجه الى سانتا ماريا لكى اساهم بنفوذى فى الحملة التى تتقدم نحو ماراكيبو » ٠ وفى نفس اليوم ، كتب مرة أخرى لأوردانيتا : « اننى ماض الى سانتا ماريا يقصد زيارة هذه المنطقة التى لا أعرفها ، ولكى أرى اذا كنت أستطيع خداع بعض الأعداء الذين لهم نفوذ كبير على الرأى العام » وكشف عندئذ الغرض الحقيقى من رحلته : « سأراقب عن كثب العمليات ضد ريوهاشا ، وسأقترب من ماراكيبو ومن الجنود لكى أرى اذا كان يمكننى ممارسة تأثير ما على العمليات المهمة » ٠ وبذلك لم يعد متقاعدا مهزوما هاربا نحو المنفى ، وانما جنرال مشترك فى الحرب ٠

سبقت الرحلة الى قرطاجنة ضرورات حربية ، فلم يضع وقته فى توديعات رسمية ، ولم يعلن عن الخبر الا لعدد قليل جدا من الأصدقاء ، وبناء على تعليماته ، عهد فرنانده وجوزيه بالاسيوس بنصف أمتعته الى أصدقاء وبيوت تجارية حتى لا يقطروا وراءهم أحمالا لا فائدة منها فى حرب غير مضمونة ٠ تركا عند التاجر دون جوان بافاجو عشر حقائب من المستندات الخاصة ، وكلفاه بارسالها الى عنوان فى باريس سيذكرانه له فيما بعد ، وجاء فى الايصال أن بافاجو سيحرق هذه المستندات اذا حدث سبب قهرى ولم يستطع صاحبها المطالبة بها ٠

وأودع فرناندو ، فى مصرف بوش مائتى أوقية من الذهب وجدها فى آخر لحظة فى حافظة أوراق عمه دون أى

أثر عن مصدرها - وترك لدى فرانسيسكو مارتن صندوقا يحتوى على خمس وثلاثين ميدالية من الذهب وكيسين من المخمل متشابهين بأحدهما مائتان وأربع وثمانين ميدالية كبيرة من الفضة وسبع وستون ميدالية صغيرة وست وثمانون متوسطة ، وبالآخر أربعون ميدالية تذكارية من الذهب والفضة محفور على بعضها صورة الجنرال ، وطاقم المائدة الذهبى الذى أخذوه معهم من مومبوكس فى صندوق قديم من الكرتون ، وبضعة أغطية مستهلكة ، وحقيبتين من الكتب وسيفا مرصعا بالماس وبندقية غير صالحة للاستعمال عهد بها هى الأخرى اليه • وبين أشياء أخرى قديمة كانت هناك نظارات غير مستعملة استخدمها الجنرال فى أوقات مختلفة عندما اكتشف طول نظره وهو يحلق ذقنه بصعوبة حتى اليوم الذى لم يكفه بعد ذراعه عن عينيه لكى يقرأ •

وترك جوزيه بالاسيوس من ناحيته ، فى عهده دون جوان دى ديوس أمادور صندوقا ظل ينقله معه طوال رحلاته المديدة من مكان الى أخر ، ولا يعرف أحد ماذا يضم بالذات• كان ملكا للجنرال الذى لم يكن يستطيع فى بعض اللحظات كبت جشعه نحو امتلاك أكثر الأشياء غرابة بحيث اضطر بعد بعض الوقت أن يجرها معه دون أن يدرى كيف يتخلص منها• أخذ معه هذا الصندوق من ليما الى سانتا فى فى سنة ١٨٢٦، وظل معه بعد محاولة الاغتيال فى الخامس والعشرين من سبتمبر ، عندما مضى الى الجنوب لحربه الأخيرة ، وكان يقول : « لا يمكننا أن نتركه طالما لا نعرف على الأقل اذا كان ملكا لنا»• وعندما عاد فى المرة الأخيرة الى سانتا فى وقد صمم على تقديم استقالته النهائية الى الكونجرس عاد الصندوق معه بين القليل الذى بقى من أمتعته الامبراطورية • وفى قرطاجنة ، عند القيام بجرد ممتلكاته صمموا أخيرا على فتحه ووجدوا بداخله أشياء خاصة قديمة كانوا يعتقدون أنها مفقودة منذ وقت طويل • كان به أربعمائة أوقية من الذهب

مدموغة في كولومبيا وصورة للجنرال جورج واشنطن ومعها خصلة من شعره ، وعلبة قديمة من الذهب هدية من ملك انجلترا ، وعلبة أخرى من الذهب بها مفاتيح وبعض المخلفات ونجمة بوليفيا الكبيرة مرصعة بالماس • وترك جوزيه بالاسيوس كل ذلك لدى فرانسيسكو مارتن ومعه قائمة دقيقة ومفصلة ، وطلب ايصالا بالاستلام • واقتصرت الأمتعة عندئذ على كمية معقولة رغم أنه كانت ما تزال هناك ثلاث أو اربع حقائب زائدة تضم ثياب كل يوم ، وعشر حقائب أخرى مملوءة بالمفارش المستعملة ، من القطن والكتان وصندوق به طاقم سفرة ذهبي وفضي من أنماط مختلفة لم يشأ الجنرال بيعه أو التخلي عنه لربما يستقبل فيما بعد ضيوفا مرموقين • وقد عرضوا عليه مرارا كثيرة أن يبيع تلك الأشياء بالمزاد لزيادة موارده المالية ، ولكنه رفض ذلك دائما متعللا بأنها أشياء ملك الدولة •

مضوا في اليوم الأول بأمتعة قليلة وحاشية مقتصرة الى تورباكو ، وفي اليوم التالى استأنفوا الرحلة في جو جميل • ولكنهم اضطروا ، عند الظهر ، الى الاقامة في مخيم مرتجل حيث قضوا الليل معرضين للأمطار ورياح المستنقعات غير الصحية ، واشتكى الجنرال من آلام في الطحال والكبد ، وأعد له جوزيه بالاسيوس جرعات موصوفة في كتاب طب فرنسي ، ولكن الآلام اشتدت وطأتها وارتفعت الحرارة • وفي الصباح كان في حالة من الاعياء بحيث حملوه مغمى عليه الى قرية سوليداد ، حيث أنزله أحد أصدقائه القدامى • دون بدرو جوان فيسبال في بيته • وبقي فيه أكثر من شهر فريسة كل أنواع الآلام التى ضاعفت من حدتها أمطار أكتوبر المزعجة •

لم يكن هناك اسم أكثر ملاءمة لتلك القرية من اسم سوليداد (ومعناها الوحدة أو العزلة) ••• أربعة شوارع بها بيوت فقيرة وساخنة ومهجورة على بعد بضعة فراسخ من

أغنى البلاد وأكثرها ازدهارا ، ولم يكن هناك أى بيت مريح ومناسب لصحة الجنرال من ذلك البيت بشرفاته الست الأندلسية التي يغمرها النور وحديقته المزدهرة حيث يترك المرء لخياله العنان فيها لكي يفكر ويتأمل فى هدوء ، تحت شجرة السيبا الضخمة • وكان يشرف من نافذة غرفته على الميدان المقفر والكنيسة المتهدمة والبيوت المبقعة بسقوفها من سعف النخيل •

ومع ذلك فلم يفده هدوء البيت في شيء ، ففي أول ليلة أصيب بدوار بسيط ولكنه رفض أن يعتبره كدليل جديد على انحطاط قوته ، ووصف مرضه طبقا لكتاب الطب الفرنسي على أنه غضب ضاعفته نزلة برد حادة وروماتيزم قديم أيقظه سوء الجو • وضاعف هذا التشخيص تقززه من الأدوية المتزامنة لمعالجة عدة آلام في وقت واحد لأنه كان يقول ان الأدوية التي تصلح لبعض الآلام تضر بآلام أخرى • ولكنه كان يعترف أيضا أنه ليس هناك دواء جيد لمن يريده، ويشكو كل يوم من أنه ليس هناك طبيب جيد ، وذلك في نفس الوقت ان يكشف عليه كل الأطباء الذين يبعثون بهم اليه •

كتب الكولونل ويلسون لأبيه خطابا يقول فيه ان الجنرال قد يموت فى أية لحظة ، وان بغضه للأطباء لم يكن ازدراء بهم وانما بعد نظر ، واستطرد يقول : «والواقع أن المرض هو العدو الوحيد الذى يخشاه الجنرال ويرفض مواجهته حتى لا يحول بينه وبين مشروع حياته الكبير • وكان الجنرال قد قال مرة ان العناية بأحد الأمراض كالعمل فى سفينة» • وقبل ذلك بأربع سنوات، بينما كان يعد دستور ليما عرض عليه أوليرى أن يقبل علاجا طبيا أساسيا ، وكان رده حاسما :

ويبدو أنه كان مقتنعا بأنه يمكنه تجنب المرض بالنشاط المستمر وبالثقة فى النفس • وكانت فرناندا باريجا قد

اعتادت أن تضع له مريلة وأن تطعمه بملعقة صغيرة كالأطفال . وكان يتقبل الطعام منها ويمضغه في صمت الى حد أنه كان يفتح فمه بعد أن يبتلعه . ولكن ، في سوليداد ، لم يضعوا له المريلة ولم يطعموه بالملعقة ، وانما راح يأكل بأصابعه حتى يفهم الجميع أنه ليس بحاجة الى أحد ، وكان قلب جوزيه بالاسيوس يتقطع وهو يراه يقوم بالأعمال اليومية التي يقوم بها خدمه أو جنوده أو ملازموه ، وتملكه الحزن الشديد وهو يراه يسكب على نفسه زجاجة حبر وهو يحاول افراغها في المحبرة . وكانت حادثة فريدة لأن الجميع كانت تتملكهم الدهشة وهم يرون أن يديه لا ترتعشان رغم المرض ، وأن نبضه هادىء جدا بحيث انه كان يستطيع أن يقص أظافره وأن يقلمها مرة كل أسبوع وأن يحلق ذقنه كل يوم .

في جنته بليما ، قضى ليلة كلها سعادة مع فتاة بدوية جسدها كله يكسوه زغب رفيع . وفي الفجر ، بينما كان يحلق ذقنه ، تأملها وهي عارية في الفراش ، تحلق في حلم هادىء لامرأة أشبعت رغباتها . ولم يقاوم رغبته في أن يمتلكها ثانية ، وغطاها برغوة من الصابون من قدميها حتى رأسها ، وفي نشوة الحب حلق كل جسدها ، تارة بيده اليمنى ، وتارة بيده اليسرى ، ملليمترا بعد ملليمتر ، حتى حاجبها ، وتركها عارية للمرة الثانية ، بجسدها الرائع لطفل وليد ، وسألته بروح مختلجة ان كان يحبها فأجابها بنفس العبارة العادية التي ظل يرددها طوال حياته على الكثير من القلوب دون أية شفقة :

ــ أكثر من أية امرأة أخرى في العالم .

وفي قرية سوليداد ، ضحى بنفسه بنفس الطريقة ، فبينما كان يحلق ذقنه قص احدى خصلاته البيضاء النادرة

والناعمة التي تبقت له ، مدفوعا كما يبدو بدافع صبياني · ثم قص خصلة أخرى وهو أكثر ادراكا بينما كان يردد بصوت مشروخ مقاطعه المفضلة من أغنية « لا أورانكا » ودخل جوزيه بالاسيوس لكي يرى الى من يتحدث ، ووجده يحلق رأسه التي تكسوها رغوة الصابون · وبقى أصلع تماما كالبيضة ·

لم تأت الرقية بأى خلاص · كان يلبس طاقيته الحريرية بالنهار ، ويغطى رأسه في الليل بقلنسوته الحمراء · ولكنه لم يستطع تهدئة رياح اليأس الباردة الا بشق النفس · كان ينهض لكى يمشى فى الظلام فى البيت الفسيح القمرى ، ولكنه لم يكن يستطيع عندئذ السير عاريا · فكان يتدثر بغطاء لكى لا يرتعش من البرد فى ليالى الحر · وكلما مرت الأيام غدا الغطاء غير كاف ، وصمم على أن يلبس القلنسوة الحمراء فوق الطاقية الحريرية ·

كانت دسائس العسكريين الحقيرة وأخطاء السياسيين تزعجه الى حد أنه قال وهو يهوى بيده على المائدة فى ظهر أحد الأيام انه لا يحتمل أيا منهم وصاح : « قولوا لهم اننى مصدور حتى لا يعودوا » · وكان قراره حاسما بحيث منع العسكريين من دخول البيت ، كما منع الاحتفالات كذلك · ولكنه لم يستطع أن يعيش بعيدا عنهم بحيث استمرت جلسات المواساة والصلح كما هى خلافا لأوامره · وأحس بأنه مريض جدا بحيث رضى باستقبال طبيب بشرط ألا يفحصه ولا أن يستفهم منه عن آلامه ، وألا يرغمه على ازدراد آى دواء وقال :

ـ لكى يتكلم فحسب ·

كان الطبيب الذى وقع عليه الاختيار غير مناسب لرغباته · كان يدعى هركيول جاستلبوندو ، شيخ يتدفق

مرحا ، ضخم الجسد وهادىء وأصلع تماما ، يتمتع بصبر كبير يخفف وحده آلام الغير ·

كانت ريبته وجرأته العلمية مشهورتين في الساحل كله ، وكان يعالج الصفراء بكريمة الشيكولاتة وبالجبن المذاب ، وينصح بممارسة الحب في أوقات خمود الهضم لاطالة العمر ، ويدخن دون انقطاع سيجارا يلفه هو بنفسه في ورق تبني اللون ويوصي بتدخينه للتغلب على مساوىء الجسد ، وكان مرضاه يقولون انه لا يشفيهم أبدا تماما ولكنه يطربهم بطلاقة لسانه المرحة ، وكان ينفجر بضحكة عامية ويقول :

ـ ان مرضى الأطباء يموتون كمرضاى ، ولكنهم معي يموتون مرحين ·

أقبل في عربة مستر بارتولوميو موليناريس، وكان هذا الاخير يتنقل مرارا في اليوم ذهابا ومجيئا ويأتي معه بزوار من كل نوع غير متوقعين الى أن منعه الجنرال من المجيء من غير أن يدعوهم · وجاء الطبيب مرتديا بدلة من الكتان الأبيض المجعد وهو يشق طريقه تحت المطر وجيوبه مملوءة بالطعام وفي يده مظلة مفككة جدا بحيث ان الماء كان يتسرب منها أكثر مما تتجنبه · وكانت أول كلماته بعد التحية العادية هي الاعتذار عن رائحة سيجاره الذى انتهى من تدخين نصفه · وسامحه الجنرال رغم أنه لم يحتمل أبدا دخان التبغ طوال حياته ، وقال :

ـ انني معتاد عليه فمانويل تدخن سيجارا أكثر كراهية من سيجارك ، حتى في الفراش ، وتنفث الدخان وهي أكثر قربا مني عنك ·

انتهز الدكتور جاستلبوندو الفرصة وسأله في لهفة : هذا صحيح · كيف هي ؟

ــ من ؟

ــ دونا مانويل ٠

أجابه الجنرال في لهجة جافة : لا بأس ٠

ثم غير الحـديث بطريقة واضحة بحيث انفجر الطبيب ضاحكا ليغطى على وقاحته ٠ وكان الجنرال لا شك يعرف ان الجميع على علم بخلاعاته الغرامية ٠ لم يتباه أبدا بغزواته ، ولكنها كانت كثيرة وصاخبة جدا بحيث ان أسرار مخـدعه كانت معروفة للجميع ٠ كانت رسالة من ليما الى كاراكاس تقتضى عادة تأخير ثلاثة شهور ولكن الحـديث عن مغامراته كان يبدو أنه يطير من رأس الى أخرى ، وتلاحقـه الفضيحة كما لو كانت ظلا ثانيا له ووسمت عشيقاته الى الأبد بصليب من الرماد ٠ ولكنه كان يقوم بالواجب غـير المجـدى لحماية أسراره الغرامية مراعاة لقاعدة مقدسـة ، فلم يبح ولا مرة لأى شخص باسم من عشقها باسـتثناء جـوزيه بالاسيوس ، شريكه في كل شيء ، ولا حتى لارضاء فضول برىء كفضـول الدكتـور جاستلبوندو بخصوص مانويلا سـاينز ، رغم أن علاقته بها كانت جد معروفة بحيث لم يعد هناك ما يخفيه ٠

ولـكن فيما عدا هـذا الحـادث العرضى ، كان لقـاؤه بالدكتور جاستلبوندو كأن العناية الالهية قد هيأته له ، فقد شد من عزمه بنصائحه الجنونية ، وشاركه الحلوى والبسكويت بالمربى واللبن والبونبون التى يحشـو بها جيـوبه ، وكان الجنرال يتقبلها مجاملا ويتناولها لمجـرد التسـلية ٠ وتذمر ذات يوم من أن تلك الحلويات انما تنفع في سد الجوع وليس فى زيادة الوزن وهو ما يتمناه ، فأجاب الطبيب : « لا تقلق يا صاحب الفخامة ، فكل ما يدخل الفم يسمن وكل ما يخرج منه يخفف » ورأى الجنرال الحجة من الغرابة بحيث رضى أن يتناول مع الطبيب كأسا من النبيذ القوى وفنجانا من شراب دقيق النخل ٠

ومع ذلك فان المزاج الذى كان الطبيب يحاول أن يعدله بكل همة ، كانت الأخبار تكدره أكثر ، فقد أخبره احدهم أن صاحب البيت الذى أقام فيه فى قرطاجنة خاف من العدوى وأحرق الفرش الذى رقد عليه والمرتبة كذلك والأغطية وكل ما لمسه أثناء اقامته . وأصدر أمره لدون جوان دى ديوس أمادور أن يستخدم النقود التى تركها لديه لسداد قيمة الأشياء التى أحرقت بسعرها وهى جديدة بالاضافة الى الايجار ، ولكن ذلك لم يخفف مزارته .

أحس بأنه أكثر سوءا بعد بضعة أيام عندما عرف ان دون جوكين موسكيرا مر بالبلد فى طريقه الى الولايات المتحدة دون أن يتنازل حتى بزيارته . ودون أن يخفى قلقه عرف أن موسكيرا بقى أسبوعا على الساحل فى انتظار ابحار السفينة ، وانه راى أصدقاء كثيرين وبعض اعدائه ، وعبر للجميع عن تقززه مما يدعوه جحود الجنرال . وعند انطلاق الزورق الذى يحمله الى السفينة أوجز فكرته الثابتة لكل الذين جاءوا لتوديعه قائلا :

ـ لا تنسوا ذلك ، فان هذا الرجل لا يحب أحدا .

كان جوزيه بالاسيوس يعرف مدى حساسية الجنرال لمثل هذا النوع من العتاب ، فما من شىء يؤلمه أو يحز فى نفسه ويثير حنقه الا أن يشك أحد فى محبته . وكان قمينا بأن يمخر المحيطات ويهدم الجبال بقدرته الرهيبة فى الاغراء الى أن يقنعه بخطئه ، ففى عز المجد أغلقت دلفينا جارديولا ، حسناء انجوسترا باب بيتها فى وجهه . وقد أحنقتها تقلباته . وهى تقول : « أنت رجل عظيم يا صاحب الفخامة ، أعظم من أى شخص آخر ، ولكن الحب كبير جدا عليك » ودخل البيت من جديد من نافذة المطبخ ، وبقى معها ثلاثة أيام مجازفا بأن يخسر معركة أو يفقد حياته على الخصوص حتى وثقت دلفينا من صدق شعور قلبه .

أصبح موسكيرا بعيدا عنه ، ولكنه عبر عن حقده له لكل من أراد الاستماع اليه · وتساءل حتى الاضناء لكى يعرف بأى حق يمكن موسكيرا أن يتكلم عن الحب ، وهو الذى سمح بأن ينقلوا اليه بالطريق الرسمي القرار الفنزويلى بنفيه وحرمانه ، وصاح : «كان يجب أن يشكرنى لأنى أنقذته من ادانة التاريخ له بعدم الرد عليه » تذكر كل ما فعله من أجله ، والطريقة التى ساعده بها لكى يكون ما هو عليه والطريقة التى اضطر أن يتحمل بها نرجسيته كفلاح · وكتب أخيرا لصديق مشترك خطابا طويلا ويائسا حتى يكون واثقا من أن أصوات قلقه تصل الى موسكيرا فى أى مكان من العالم ·

وعلى العكس كانت الأخبار التى لا تاتى تغرقه فى ضبابة خفية · ظل أوردانيتا لا يرد على رسائله · وبعث اليه بريسينو منديز ، ثقته فى فنزويلا برسالة ومعها فى نفس الوقت فواكه من جمايكا يحبها كثيرا · ولكن الرسول لقى حتفه غرقا · وملأه بطء جوستو بريسينو ، رجله على الحدود الشرقية يأسا ، وألقى صمت أوردانيتا ظلا على البلاد كما ألقى موت فرنانـدو مدريد ، مراسله فى لندن ، ظلا على العالم ·

ومع أنه كان يجهل تماما أخبار أوردانيتا فهو لم يعرف أن هذا الأخير يراسل حاشيته بصورة ملحة لكى يحاولوا أن ينتزعوا منه ردا حاسما ، فقد كتب لأوليرى يقول : « اننى بحاجة لأن أعرف بصورة نهائية اذا كان الجنرال يقبل الرئاسة أم لا ، أو اذا كان يجب أن نجرى طوال حياتنا خلف شبح متعذر لقاؤه » وكان أوليرى ، كغيره من ضباط حاشيته · يحاول انتهاز الفرصة للتعرض للموضوع لكى يرسل لأوردانيتا أى رد ، ولكن الجنرال كان يتهرب دائما ·

وعندما جاءتهم أخيرا أنباء من ريو هاشا ، كانت أشد خطورة من تلك التى توقعوها ، فقد استولى الجنرال مانويل

فالديس ، كما هو متوقع على المدينة دون مقاومة في العشرين من اكتوبر ، ولكن كارجو اباد له فرقتي استطلاع ، وقدم فالديس مونتيللا استقالة أراد بها أن يشرف نفسه ، ولكنها اذلته . وقال الجنرال : « ان هذا الوغد يكاد يموت خوفا » ، وطبقا للخطة الأساسية لم يكن باقيا غير خمسة عشر يوما للاستيلاء على ماراكيبو ، ولكن مجرد مراقبة ريوهاشا لم تعد غير وهم .

وصاح الجنرال : رباه ! .. لم يستطع زهرة جنرالاتي قمع ثورة تكنة ! .

ومع ذلك فان الخبر الذي أحزنه كثيرا هو ان الفرق كانت تهرب أمام القوات الحكومية وهي تطابق بينها وبينه وتعتبره قاتل الجنرال باديللا ، معبود ريوهاشا ، مسقط رأسه ، وفوق ذلك كان يبدو أن الكارثة خططت مع بقية البلاد ، وسادت الفوضى والبلبلة في كل مكان ، وكانت حكومة أوردانتا عاجزة عن وضع حد لهما .

ودهش الدكتور جاستلبوندو مرة أخرى من شدة الغضب الذي استولى على الجنرال وهو يراه ينطلق بسباب وشتائم . ويصيح ويقول لرسول خاص جاء يخبره بالأحداث الأخيرة في سانتا في :

ـ بئس هذه الحكومة التي بدلا من أن ترتبط بالشعب والرجال المهمين تشلهم ! . ستنهار من جديد ، ولن تنهض مرة ثالثة لأن الرجال الذين يديرونها والحشود التي تساندهم سيبادون .

كانت الجهود التي بذلها الطبيب لتهدئته لا فائدة منها لأنه ما أن انتهى من تقريع الحكومة حتى استذكر عن ظهر قلب القائمة السوداء لأركان حربها . قال عن الجنرال جواكين باريجا ، بطل ثلاث معارك كبيرة انه يمكنه أن يكون

شريرا كما يريدون ولكنه قاتل· وعن الجنرال بدرو مرجييتو انه يشتبه في انه تورط في مؤامرة اغتيال سوكريه ، وقال عنه انه رجل غير كفء لقيادة الجنود ، وسدد ضربة قاسية للجنرال جونساليز ، أكثر أنصاره اخلاصا في كوكا « ان مرضه ما هو الا استرخاء واسترواح » وتهالك في أرجوحته وهو يلهث ليمنح قلبه الوقفة التي يحتاج اليها منذ عشرين عاما ، ووقع بصره عندئذ على الدكتور جاستلبوندو الذي وقف وقد عقدت الدهشة لسانه على عتبة الباب ، فرفع صوته قائلا : « بعد التفكير ، ماذا يمكن من رجل راهن ببيتين في لعبة النرد ؟ » ·

بدت الحيرة على الدكتور جاستلبوندو وسأل : عمن تتكلم ؟

أجاب الدكتور : عن أوردانيتا · انه خسرهما في ماراكيبو أمام قومندان من البحرية ، ولكن مسجل في المستندات أنه باعهما ·

واسترد النفس الذي كاد أن يلفظه واستطرد : هم جميعا بالطبع صبية في كورس كنيسة بالنسبة لهذا الشاطر سانتاندر ، فقد كان أصدقاؤه يسرقون القروض الانجليزية ويشترون بها سندات حكومية بعشر قيمتها الحقيقية وتقبلها الدولة منهم بعد ذلك بقيمتها الأصلية · وأوضح انه لم يعترض على كل حال على القروض بسبب خطر الفساد وانما لأنها تبدو في نفس الوقت الاستقلال الذي تكلف الكثير من الدم ، وقال :

ـ ان الديون أبغض الى من الاسبانيين ، ولهذا نبهت سانتاندر أن كل ما نفعله لصالح الوطن لن تكون له أية فائدة اذا قبلنا الدين ، لأننا سنستمر في دفع الفوائد حتى نهاية الزمن ، والأمر واضح اليوم ، فسوف يتغلب الدين علينا ·

فى بداية الحكومة الحالية لم يكفه الموافقة على فرار أوردانيتا باحترام حياة المنهزمين ، بل انه احتفل بذلك ، كانه خبر أخلاقي للحرب « ألا يفعل أعداؤنا بنا اليوم ما فعلناه نحن بالاسبان » . أى الحرب حتى الموت . ولكن أثناء ليالى سوليداد الغامضة قال لأوردانيتا فى خطاب مروع بأن كل الحروب قد انتصر فيها الأكثر قوة ، وقال للطبيب :

ــ صدقنى يا دكتور ، ان سلطتنا وحياتنا لا يمكن الابقاء عليهما الا بثمن دم أعدائنا .

وفجأة زال الغضب بطريقة مباغتة دون أن يترك أثرا ، كما بدأ . بدأ الجنرال جميع الضباط الذين سبهم وقال : أنا المخطىء على كل حال ، فما كانوا يريدون الا الاستقلال وهو شيء مباشر وواقعى ، والله يعلم أنهم دافعوا عنه جيدا » . وبسط للدكتور يدا لم تعد الا كتلة من العظام ، لكى يساعده على النهوض ، واختتم حديثه قائلا :

ــ وعلى العكس ، ضللت فى وهم وأنا أبحث عن شيء لا وجود له .

بت فى تلك الأيام فى موقف ايتوربيد ، فقد تلقى هذا الأخير فى آخر أكتوبر ، من مدينة جورجتاون ، خطابا من أمه تقول له فيه ان تقدم القوى فى المكسيك يبعد بكثير كل أمل للأسرة فى العودة ، وأصبح تردده بالاضافة الى التردد الذى يحمله معه منذ المهد لا يطاق . ولحسن الحظ ، بينما كان الجنرال يتمشى فى رواق البيت مستندا الى ذراعه ، قال له على غير توقع :

ــ اننى لم أحتفظ عن المكسيك الا بذكرى سيئة ، فقد التهمت كلاب ربان الميناء جروين كنت أصطحبهما معى الى اسبانيا .

وأردف يقول ان هذه التجربة الأولى فى حياته وسمته الى الأبد ، فان فيراكروز لم تكن الا مرسى وجيز فى أول رحلة له الى أوروبا فى فبراير سنة ١٧٩٩ ، ولكن الانتظار امتد الى شهرين بسبب الحصار الانجليزى على هافانا ، وهى المرسى الثانى ، وقد أتاح له التأخير وقتا لكى يمضى بالعربة حتى مكسيكو ، وتسلق ما يقرب من ثلاثة آلاف متر بين البراكين التى تغطيها الثلوج والصحارى المذهلة التى لم تكن تعرف شيئا عن شروق الشمس الرعوى بوادى أراجوا حيث عاش حتى ذلك الوقت وقال : « خطر لى ان القمر يجب أن يكون هكذا » . وفى مكسيكو دهش من نقاء الهواء واذهلته وفرة ونظافة الأسواق حيث يبيعون للأكل ديدانا ملونة وأخرى نهرية وبيض الناموس وجرادا ويرقات النمل الأسود وقططا متوحشة وصراصير البحر ودبابير الذرة وسحالى وثعابين مجرسة وعصافير من كل نوع وكلابا صغيرة ونوعا من الفاصوليا ينط دون توقف كما لو أن فيه حياة ، وقال : « انهم يأكلون كل ما يتحرك » . ووقف مشدوها أمام المياه الرائقة للقنوات العديدة التى تخترق المدينة والزوارق المطلية بالألوان الربانية ، وجمال ووفرة الزهور ، ولكن أحزنه قصر أيام فبراير ، والهنود الصامتون والمطر الأزلى وكل ما قدر له أن يثقل على قلبه فى سانتافى فى ليما وفى لاباز وفى جبال وأراضى الأنديز التى يراها عندئذ لأول مرة . وقاده الأسقف الذى أوصى به من يده الى نائب الملك ، وبدا له هذا الأخير أكثر أسقفية من الأسقف نفسه ، فانه ألقى بالكاد نظرة الى الشاب الأسمر الشاحب الأنيق الملبس والذى عبر له عن اعجابه بالثورة الفرنسية . وقال الجنرال فى مرح : « كان يمكن أن يكلفنى ذلك حياتى ، ولكن لعله خطر لى أن أتحدث عن السياسة مع نائب الملك ، وكان هذا كل ما أعرفه وأنا فى السادسة عشرة من عمرى » وقبل أن يستأنف الرحلة كتب خطابا لعمه دون بدرو بالاسيو سوجو ،

وهى أول رسالة سيحتفظ بها ، وقال وهــو ينفجر ضاحكا : « كان خطى فظيعا بحيث اننى ، أنا نفسى، لم أفهمه، ولكننى شرحت لعمى ان ذلك بسبب التعب من الرحلة » وفى صفحه ونصف كانت هناك أربعون غلطة كتابية منها غلطتــان فى كلمة واحدة ٠

لم يستطع ايتوربيــد أن يعلق بأى شىء لأن ذاكرته لم تسمح له بذلك ، فكل ما بقى له من المكســيك كان ذكــرى الأضرار التى ضاعفت من كآبته الوراثية ، وقد فهم الجنرال أسبابه وقال : « لا تبق مع أوردانيتا ٠ ولا تنضم كذلك الى أسرتك فى الولايات المتحدة ، فهى قوية جدا ومخيفة وستنتهى بهذرها عن الحرية بأن تسربلنا جميعا بالبؤس » ٠

ألقت العبارة شكا آخر فى بحر التردد، وهتف ايتوربيد:

ـ انت تخيفنى يا جنرال ٠

قال الجنرال فى هــدوء : لا تخف نفســك ٠ امض الى المكسيك ، حتى ولو اقتضى الأمر أن يقتلوك أو أن تموت ، وامض الآن فورا وأنت لا تزال شابا لأن الأوان قد يفــوت ذات يوم ولن تكون لا هنا ولا هناك ٠ ستشعر بأنك غريب فى كل مكان ، وهذا أسوأ من الموت ٠

ونظر الى عينيه مباشرة ، وألقى بكف يده على صــدره وقال :

ـ وأنا أعلم ذلك ٠

رحل ايتوربيد اذن فى بداية شهر ديسمبر ومعه رسالتان من الجنرال لأوردانيتا ، تقول احداهما انه هــو وويلســون وفرناندو فى بيته أكثر النــاس جدارة بثقته ٠ وبقى دون هدف محدد فى سانتا فى حتى أبريل من السنة التالية ، عندما

عزل أوردانيتا بمؤامرة من سانتاندر ، وتمكنت أمه ، بفضل متابرتها المثالية من تعيينه سكرتيرا فى المفوضية المكسيكية بواشنطن ، وعاش بقية حياته منسيا من الادارة ، ولم يعرف أحد شيئا أبدا عن عائلته الا بعد اثنتين وثلاثين سنة ، عندما تبنى مكسيميليان دى هابسبورج الذى فرضه الجيش الفرنسى امبراطورا على المكسيك طفلين صغيرين من الجيل الثالث لآل ايتوربيد ، وعينهما خليفين له على عرشه الوهمى ٠

أما الرسالة الثانية المرسلة الى أوردانيتا التى عهد بها الجنرال الى ايتوربيد فكانت تلتمس منه أن يتلف كل رسائله الماضية والمقبلة حتى لا يبقى هناك أثر لساعاته المعتمة ٠ ولم يصغ أوردانيتا اليه ٠ وكان قد طلب من سانتاندر قبل ذلك بخمس سنوات نفس الالتماس وقال : «لا تنشر رسائلى أبدا ، سواء أكنت على قيد الحياة أم بعد مماتى لأننى كتبتها بكل حرية وبدون أى ترتيب » ٠ ولم يحترم سانتاندر هو الآخر رغبته ، وهو الذى كان يكتب رسائله بكل دقة وبكل ترتيب بحيث كان يبدو من قراءة أول سطر منها أن مصيرها النهائى هو التاريخ ٠

وبين أول رسالة من فيراكروز والأخيرة التى أملاها قبل موته بستة أيام ، كتب الجنرال على الأقل عشرة آلاف ، بعضها بخط يده وبعضها بخط سكرتيريه ، والبعض الآخر كتبه هؤلاء الأخيرون طبقا لتعليماته ، وحفظ منها أكثر بقليل من ثلاثة آلاف رسالة ، وكذلك ثمانية آلاف مستند ممهورة بتوقيعه ٠ كان تارة يستثير غضب سكرتيريه بأن يوقظهم من سباتهم فجأة ، وتارة يكون الأمر عكس ذلك ، ذات يوم ، بدا له ان احدى رسائله التى أملاها لم يحسن السكرتير صياغتها فأضاف بخط يده سطرا بخصوصه قال فيه : « ان مارتل اليوم أكثر غباء من أى وقت آخر كما ترى » ٠ وفى سنة ١٨١٧ ، فى عشية مغادرته انجوسترا لانهاء تحرير

القارة استوفى شئون الحكومة فى أربعة عشر مستندا أملاها فى نفس اليوم ، ولعله انبثقت من هنـا الأسـطورة التى لم يكذبها أحد أبدا وهى انه كان يملى الكثير من الرسائل على عدة سكرتيرين فى نفس الوقت .

واقتصر أكتوبر على سقوط الأمطار الغزيرة فلم يغادر الجنرال غرفته . وكان لابد للدكتور جاستلبوندو من ان يلجأ الى كل حيله الحكيمة لكى يسمح الجنرال بلقائه واطعامه . وخيل لجوزيه بالاسيوس أثناء قيلولاته المفكرة ، وهو مستلق فى أرجوحته لا يتحرك ، ويتأمل المطر الذى ينهمر على البطاح القفر أنه يستعيد فى ذهنه أتفه الأحداث التى مرت بحياته . وتنهد ذات يوم قائلا :

— أى رب الفقراء ، ماذا حدث اذن لمانويلا .

قال جوزيه بالاسيوس : نحن نعرف أنها فى صحة جيدة لأننا لا نعرف عنها شيئا .

لأن الصمت شملها منذ أن تولى أوردانيتا السلطة . لم يراسلها الجنرال بعد ذلك . ولكنه كلف فرناندو أن يطلعها على أخبار الرحلة . وكانت آخـر رسالة منها قد وصـلت فى أخر أغسطس وتتضمن الكثير من الأخبار السرية عن الاعدادات للانقلاب العسكرى ، وكانت رسائلها وأخبـارها معقدة من حيث الانشاء لتضليل العدو ولكن كان من السهل على الجنرال أن يفهم أسرارها .

نسيت مانويلا عن نصائح الجنرال الحكيمة ، وقامت بكل عمق وأحيانا بكل نشـاطها بدورها كالسـيدة البوليفارية الأولى فى الأمة ، وقامت وحدها بحرب ورقية ضد الحكومة ، ولم يجرؤ الرئيس موسكيرا على مهاجمتها ، ولكنه لم يمنع وزراءه من ذلك . كانت مانويلا ترد على هجوم الجرائد عليها

بنقـد لاذع تطبعه وتوزعه وهى عـلى صـهوة جـوادها ، تساندها فى ذلك اثنتان من عبداتهـا • كانت تتـابع فى الازقة الضيقة والمرصـوفه ، وفى يدها حـــربة . الذين يوزعون منشورات هجائية ضد الجنرال وتغطى الشتائم التى تظهر فى الفجر ، فوق الجدران ، بشتائم أشد منها قذعا •

وانتهت الحرب الرسمية بأن انقلبت عليها ، ولكنهـا لم تجزع ، ونبهها موضع ثقتها فى الحكومة الى ذلك • وفى أحد الاعياد الوطنية بميدان السلاح وضعوا رسـما كاريكاتوريا للجنرال يمثله فى زى المهرجين وسلطوا عليه الأضواء من كل جانب • وغافلت مانويلا الحراس ودمرت الرسم ، هى وبعض أصدقائها من الفرسان • وأرسل العمدة فرقة من الجنـود للقبض عليها وهى فى فراشـــها ، ولكنهـا كانت تنتظرهم وبيدها مسدسان • ومنعت وسـاطة الأصـدقاء ، من جانب وآخر ، وقوع حادث أشد خطورة •

كان الحادث الوحيد الذى أفلح فى تهدئتها هو استيلاء أوردانيتا على السلطة • كان صـديقا حقيقيا لها ، وكانت أشد شركائه حماسا • وفى الوقت الذى شن فيه الجنرال ، فى الجنوب ، الحرب على الغزاة البيرونيين ، وجدت نفسها وحيدة فى سـانتا فى • وكان أوردانيتا صـديقها الأمين الذى يهتم بسلامتها ويوفر لها احتياجاتها • وعندما ألقى الجنرال بيانه المشئوم أفلحت مانويلا فى أن تحمله على أن يكتب له هـــذه العبارة : « اننى أعرض عليك كل صداقتى القديمة ومصالحة تامة من سويداء قلبى » • وقبل أوردانيتا العرض الكريم • وكان امتنان مانويلا ازاء ذلك أن اختفت من الحياة العامة تماما بعد الانقلاب العسكرى بحيث قيـل فى بداية أكتـوبر انها رحلت الى الولايات المتحدة وبذلك كان جوزيه بالاسيوس على حق عندما قال : « ان مانويلا فى صـحة جيـدة لأننـــا لا نعرف عنها شيئا » •

استعاد الجنرال ماضيه وهو ضائع تحت المطر ، وحزين لاضطراره الى الانتظار ، ووجد نفسه في قاع الهوة ، وبكى اثناء نومه . واذ سمع جوزيه بالاسيوس تحسراته الخافتة حسب انها صادرة من الكلب الذى التقطوه وهم فى النهر ، ولكنها كانت من سيده . وقد تملكته الحيرة لانه لم يره طوال سنين الصداقة يبكى غير مرة واحدة ، ولم يكن ذلك عن حزن وانما عن غيظ . واستدعى الملازم ايبارا ، وكان يقوم بالحراسة فى الرواق ، حتى يسمع هو الآخر تلك التحسرات. فقال له :

ـ سوف يساعدنا ذلك .

قال جوزيه بالاسيوس : بل سوف يساعدنا جميعا .

نام الجنرال وقتا أطول من المعتاد . لم يوقظه شيء ، لا العصافير فى الحديقة ولا أجراس الكنيسة . وانحنى جوزيه بالاسيوس مرارا عديدة فوق الأرجوحة لكي يسمع تنفسه . وعندما فتح عينيه كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة . وكان الجو حارا .

قال جوزيه بالاسيوس : اليوم السبت ١٦ آكتوبر ، يوم الخلوص .

نهض الجنرال من أرجوحته ، وتأمل من النافذة الميدان المنعزل والكنيسة ذات الجدران الباهتة . وسمع صيحات الطيور الكاسرة وهى تتنازع على بقايا كلب ميت . وأعلنت حدة أشعة الشمس الأولى أن اليوم سيكون خانقا . وقال : «لنعجل بالرحيل . لا أريد أن أسمع طلقات بنادق الاعدام» .

سرت الرعشة فى بدن جوزيه بالاسيوس . عاش هذه اللحظة فى مكان آخر ووقت آخر ، كان الجنرال فيهما كما هو اليوم .. قدماه عاريتان فوق البلاط وسرواله طويل

وطاقية الليل على رأسه الحليقة ·· كان علماً قديماً يتكرر في الواقع ·

قال جوزيه بالاسيوس : لن نسمعها ·

وأردف في دقة متعمدة : لقد اعدم الجنرال بيار في انجوسترا في الساعة الخامسة ، ولكن في أصيل يوم كهذا منذ ثلاثة عشر عاما ·

كان الجنرال بيار خلاسيا من كوراساو ، قاسيا ، في الخامسة والثلاثين من عمره ، توج بمجد كأشجع جنود المليشيا الوطنية ، وتحدى سلطة الجنرال حين كان جيش التحرير بحاجة أكثر من أي وقت مضى الى توحيد قواه لايقاف تقدم موريللو ، وراح يجند السود والخلاسيين والزامبو وكل بؤساء البلاد لمحاربة الارستقراطية البيضاء في كاراكاس متجسدة في شخص الجنرال · كانت شهرته وهالته المسيحية لا تقارنان الا بشهرة وهالة أنطونيو بايز أو بوفيس الملكي. وكان على وشك أن يضم اليه بعض الضباط البيض من جيش التحرير · بذل الجنرال قصارى جهده لاقناعه ، ثم ألقى القبض عليه بناء على أمره ، واقتيد الى انجوسترا ، وكانت عندئذ العاصمة المؤقتة للبلاد ، حيث جمع الجنرال أقرب ضباطه ، وقد رافقه كثيرون منهم فيما بعد ، في هبوطه النهائي الى مجدالينا · ونطق مجلس عسكري ، عينه الجنرال ومكون من بعض العسكريين من أصدقاء بيار بحكم موجز · وكان جوزيه ماريا كارينا ممثل الاتهام ، ولم يكن محامي الدفاع الذي عينه المجلس كاذبا وهو يصف ببار كواحد من أكثر الرجال المستنيرين في النضال ضد السلطة الاسبانية ، ولكن المجلس أجمع بأنه مذنب بالهروب من الجيش وبالتمرد والخيانة وحكم عليه بالموت وبتجريده من رتبته العسكرية · ونظرا لمزاياه بدا أن من المستحيل أن يصدق الجنرال على الحكم ، وعلى الأخص في وقت كان موريللو يسترد فيه بلادا

تنيرة وانخفضت فيه معنويات الوطنيين جدا بحيث ساد الخوف من هروب جماعي للجنود · وتعرض الجنرال لضغوط من س الانواع ، واصغى في رفق الى راى أقرب اصدقائه ومنهم بريسينو منديز ، ولكنه لم يرجع عن قراره ، والغى حكم التجريد ولكنه صدق على حكم الاعدام وطالب بأن يكون في مكان عام · وكانت ليلة طويلة كان يمكن لافظع شيء ان يحدث فيها · وفي الساعة الخامسة من بعد ظهر ١٦ أكتوبر نفذ حكم الاعدام تحت الشمس الحارقة ، في ميدان السلاح بأنجوسترا ، وهي نفس المدينة التي انتزعها هو نفسه قبل ذلك بستة شهور من الأسبان · وكان رئيس فصيلة الاعدام قد رفع أشلاء كلب ميت تتنازع عليه الطيور الكاسرة ، وأغلق الطرقات المؤدية الى الميدان لمنع الحيوانات الضالة من تعكير وقار الاعدام ، ورفض لبيار الشرف الأخير بأن يصدر هو نفسه الى فصيلة الاعدام باطلاق النار ، وعصب عينيه بالقوة ، ولكنه لم يستطع أن يمنعه من توديع العالم بطبع قبلة على الصليب وتحية العلم ·

رفض الجنرال حضور تنفيذ الاعدام · وكان بمفرده في البيت مع جوزيه بالاسيوس ، ورآه هذا الأخير يغالب نفسه لكي يحبس دموعه وهو يسمع صوت الرصاص · وقال في البيان الذي القاه على القوات : « كان يوم الأمس يوما موجعا لقلبي» ، وراح يكرر طوال حياته أن ذلك كان ضرورة سياسية أنقذت البلاد وجمعت بين المتمردين وجنبت البلاد حربا أهلية · وكان ذلك على كل حال أشرس عمل قام به في حياته باسم السلطة ، وكان أيضا أكثر الأعمال ملاءمة سمح له بتعزيز سلطته وتوحيد القيادة وفتح الطريق أمام مجده في نفس الوقت ·

ولم يبد عليه ، بعد ثلاث عشرة سنة ، في سوليداد أنه ضحية تيه الزمن · بقي واقفا يتأمل الميدان الى أن ظهرت

عجوز ترتدى أسمالا ، واجتازته وهى تجر خلفها حمارا محملا بكمية كبيرة من جوز الهند للبيع ، وأفزعت بخيالها الطيور الكاسرة . وعندئذ تحول الجنرال فى أرجوحته وأطلق تنهدة ارتياح ، ومن غير أن يطلب منه أحد أعطى جوزيه بالاسيوس الجواب الذى أراد هذا الأخير أن يعرفه منذ ليلة آنجوسترا المأساوية .

ـ اذا كان ولابد أن أفعل ذلك ثانية فسوف أفعله .

أصبح من الخطر عليـه ان يمشى ، لا لاحتمـال وقوعه ولكن لأن ذلك كان يشق عليه كثيرا ، وعلى العكس ، فلو أن أحدا ساعده على نزول سلم البيت أو هبوطه فان ذلك يكون امرا مفهوما ، رغم أنه كان ما يزال قادرا على ان يفعل ذلك وحده . ولكنه عندما أصبح بحاجة الى ذراع يعتمد عليهـا رفضها قائلا :

ــ شكرا ، ولكننى مازلت أستطيع .

وذات يوم تعذر عليـه ذلك . كان يهم بنزول السـلم عندما غاست الدنيا أمامه، وقال لصديق: «اننى وقعت وحدى من غير أن أدرى كيف ، وبقيت شبه ميت» بل كان الأمر أسوأ وانها لمعجزة اذ لم يحس لان الاغماء صعقه فى أول الدرجات ومنعته خفة جسده من الانحدار .

أسرع الدكتور جاستلبوندو باقتياده الى بارانكا دى سان نيقـولا ، فى عربة دون بارتولوميه موليناريس ، وكان قد أقام عنده أثناء رحلته السـابقة ، وأعـدت له نفس الغرفة الكبيرة التى تتوفر فيها وسائل التهوية ، والمطلة على الشارع الكبير . وفى الطريق بدأ يسيل من عينيه سائل كثيف لم يكف عن مضـايقته . ولم يعبأ بأى شىء طوال الطـريق ، بل كان يخيل أحيانا لمن يراه أنه يصلى ، فى حين أنه كان يتمتم فى الواقع بمقاطع كاملة من قصائده المفضلة . وجفف الطبيب عينيه بمنديل وقد أدهشه أنه لم يفعل ذلك بنفسه، وهو الذى يعنى عناية فائقة بنظافته ، بل انه انتفض بالذات عنـدما أوشك قطيع من البقر أن يقلب العربة عند مدخل المدينة ، وقلب عربة الكاهن وطار الكاهن نفسه فى الهواء ، ولكنـه

أسرع بالنهوض وقد ملأ الرمل الأبيض شعره وأصيب جبينه ويداه بجروح • وعندما استرد جأشه من هول الصدمة اضطر الجنود الى شق طريق وسط الفضوليين والأطفال العراة الذين تجمعوا للفرجة على الحادث دون أن تكون لديهم أية فكرة عمن يكون ذلك الراكب الأشبه بالميت والجالس فى عتمة العربة •

قدم الطبيب الكاهن على أنه واحد من رجال الدين القلائل الذين دافعوا عن الجنرال فى الوقت الذى ندد به الأساقفة وحرموه لأنه ماسونى شهوانى • وبدا على الجنرال انه لم يفهم شيئا مما يدور ، ولم يدر بنفسه الا عند رؤية الدم على ثوب الكاهن الذى طلب منه أن يستخدم نفوذه حتى لا تجول الأبقار فى مدينة أصبح يتعذر على المرء التحرك فيها دون التعرض للأخطار بسبب العربات الكثيرة التى تنطلق فى الشوارع •

قال له الجنرال دون أن ينظر اليه : لا تقلق أيها المبجل، هكذا الأمر فى كل البلاد •

كانت شمس الساعة الحادية عشرة ثابتة فوق الشوارع التى تغطيها الرمال ، عريضة ومقفرة ، والمدينة كلها تلتهب بالحرارة ، وابتهج الجنرال لأنه لن يبقى بها الا ريثما يبرا ما آلم به بسبب وقوعه ولأنه يستطيع أن يبحر فى يوم يكون البحر فيه هائجا ، لأن الموجز الطبى يقول ان البحر عندما يكون هائجا يكون مناسبا لتحريك الأخلاط الصفراوية وغسل المعدة • واستعاد صحته سريعا ، ولكن كان من المتعذر تزامن السفينة مع سوء الأحوال الجوية •

غضب الجنرال لتمرد جسده عليه ، ولم يعد يقوى على القيام بأى نشاط سياسى أو اجتماعى أو استقبال الا قدامى الأصدقاء الذين يتوقفون بالمدينة لتوديعه ، وكان البيت كبيرا ورطبا بقدر ما يسمح به شهر نوفمبر ، وحوله أصحابه

الى مصح عائلى • وكان دون بارتولوميه موليناريس واحدا من بين الذين دمرتهم الحروب ولم تترك له الا وظيفته كمدير لمصلحة البريد ، كان يؤديها دون أن يتقاضى راتبا منذ عشر سنوات • كان رجلا كريما بحيث ان الجنرال كان يدعوه منذ رحلته السابقة « بابا » ، وكانت زوجته • وهى امرأة جليلة حبتها الطبيعة بحب أموى كبير . تقضى ساعاتها أمام مغزل لكى تصنع الدانتلا وتبيعها بأسعار مناسبة فى السفن التى تنطلق الى أوروبا . ولكن ما أن ظهرت أمام الجنرال بالبيت حتى كرست له كل وقتها بحيث انها تخاصمت مع فرناندا باريجا لاعتقاد هذه الأخيرة بأن زيت الزيتون علاج لمرض الصدر . وكانت تضيفه الى العدس الذى يتناوله الجنرال كرها وامتنانا •

وما أزعجه أكثر من اى شىء آخر فى تلك الأيام هو تقيح عينيه الذى جعله حاد المزاج الى أن أفلحت حمامات المياه الممزوجة بالكاموميل فى تهدئته ، وعندئذ استأنف لعب الورق • وهو عزاء مؤقت عن آلام الناموس وأحزان الغروب • وفى احدى نوبات ندمه النادرة ، وبينما كان يداعب صاحب البيت ، بين الجد والهزل ، فاجأهما بقوله ان اتفاقا طيبا أفضل بكثير من ألف قضية رابحة •

سأله موليناريس : أفى السياسة أيضا ؟

اجابه الجنرال : فى السياسة على الخصوص ، فان عدم اتفاقنا مع سانتاندر أضاعنا جميعا •

قال موليناريس : طالما بقيتما صديقين فهناك أمل •

قال الجنرال : على العكس فان غدر أصدقائى لم يضع حدا لمجدى وانما هو تعجل أصدقائى لى ، فهم الذين ورطونى فى مصيبة اتفاقية أوكانا ، وهم الذين أربكونى فى مسألة النظام الملكى وأرغمونى ، أولا على اعادة الانتخاب متذرعين

بنفس الأسباب التى تذرعوا بها بعـد ذلك لارغامى عـلى الاستقالة ، وهم الذين يحتجزوننى أسيرا فى هذه البلاد التى لم أعد أبحث فيها عن شيء ٠

ظل المطر يهطل باستمرار ، وبدأت الرطوبة تفتح ثغرات فى الذاكرة ، وكان الحر شديدا ، حتى فى الليل ، بحيث ان الجنرال غرق فى العرق واضطر أن يسـتبدل قميصه مرارا كثيرة ، وتذمر قائلا : « لدى احسـاس بأننى أسـتوى فى ماء سـاخن » وبقى ذات ليلة جالسـا فى الشرفة أكثر من ثلاث ساعات يتأمل فى الشارع قذارات الأحياء الفقيرة وهى تنساب أمامه ، والأوانى المنزلية ، وجثث الحيـوانات التى يجرفها سيل المطر الذى بدا كأنه يريد أن ينتزع البيوت من أساسها ٠

ظهر القومندان جوان جلين ، حاكم المدينـة ٠ وسـط الاعصار لكى يعلن عن القاء القبض على امرأة تشتغل عنـد السيد فيسيال ، لانها تبيع شعرا كان الجنرال قد قصـه فى سوليداد ، على أنه من البقايا المقدسة ٠ وأصـابه الاكتئاب مرة أخرى وهو يرى بمرارة أن كل ما كان يملكه تحول الى بضاعة سوقية ، وقال :

ـ انهم يعاملوننى كما لو أننى مت حقا ٠

وكانت مدام موليناريس قد أدنت مقعدها القـلاب من طاولة اللعب حتى لا تضيع منها كلمة ، فقالت :

ـ بل انهم يعاملونك كما أنت ٠٠ فانت قديس ٠

قال : حسنا ٠ اذا كان الامر كذلك فليطلقوا سراح هذه المرأة المسكينة ٠

انقطع عن قراءته ، وعندما تكون لديه رسائل لتحريرها كان يكتفى بابلاغ فرناندو ولا يعيد قراءة الرسـائل التى يمهرها بتـوقيعه ٠ وكان يقضى أيامه فى الشرفة ، يتـأمل

الشوارع المقفرة التي يعلوها الرمل ، والحمار الذى يمر ويوزع الماء ، والزنجية الوقحة والسعيدة التي تبيع الاسماك التى احدقتها الشمس ، والأطفال التى تخرج من المدارس فى تمام الساعة الحادية عشرة ، والكاهن بثوبه الرث والمرقع وهو يرسل اليه بركاته من حوش الكنيسة وهو يقطر عرقا . وفى الساعة الواحدة ، وأثناء قيلولة الآخرين كان يسير بجوار المجارى العفنة مخيفا بظله أسراب كواسر السوق ، ومحييا ، هنا وهناك ، الأشخاص القلائل الذين يعرفونه ، وهو شبه ميت وبملابسه المدنية . وكان يمضى حتى حى الجنود ، وهو حظيرة يحوطها سياج أمام الميناء النهرى . كانت معنوية الجنود الذين تضنيهم البطالة تقلقه وهو يرى فى وضوح فوضى الثكنات التى أصبحت رائحتها تزكم الأنوف . ولكن رقيبا يبدو أن لهيب الحر قد أغرقه فى لجة من الذهول أفحمه بأن قال له الحقيقة :

ـ ليست المعنويات التى تضنينا يا صاحب الفخامة ، وانما هى رائحة البول الحادة .

عرف كل شيء عندئذ ، فان أطباء المدينة بذلوا كل جهدهم وقصارى معلوماتهم الطبية باستخدام الغسيل بالبرمنجنات وبمسكنات السكر باللبن وطرحوا المسألة على القيادات العسكرية ، ولم يستطع هؤلاء أن يتفقوا على ما يجب أن يفعلوه . كانت المدينة كلها على علم بالخطر الذى يهددها ، واعتبر جيش الامبراطورية المجيد رسول الطاعون . ولكن الجنرال أقل قلقا مما يعتقدون ، وأصدر الأمر مرة واحدة بأن أصدر أمره بحجر صحى مطلق .

وبدا غياب الأخبار ، سواء أكانت جيدة أم سيئة أمرا يثير القلق عندما جاء ساع على جواد من سانتا مارتا ومعه رسالة غامضة من الجنرال مونتيللا « الرجل معنا والاجراءات تسير فى الطريق السليم » ووجد الجنرال البرقية غريبة جدا وارسالها أغرب بحيث فسرها على أنها من أخطر أمور القيادة

العليا ، وبأنها قد تكون متعلقة بحملة ريوهاشا التى يخصها بأولوية تاريخية لم يشأ أن يفهمها أحد ٠

في ذلك الوقت كان من الطبيعى أن تعقد البرقيات وان تتشابك المعلومات الحربيـة لاسـباب أمنيـه ، لان اهمال الحكومات تسبب فى عدم استخدام الشفرات المفيـدة جـدا أثناء أولى المؤامرات ضد اسبانيا ٠ وكانت فكرة أن العسكريين يخدعونه احدى المسائل التى تثير قلقه هو ومونتيللا ، وهذا ما زاد غموض الرسالة وضاعف قلق الجنرال ٠ وأرسل عندئذ جوزيه بالاسيوس الى سانتا مارتا بحجة شراء فاكهة وخضروات طازجة وبضع زجاجات من النبيذ المعتق والجعة التى لا توجد لديهم فى المدينة ، ولكن الغرض الرئيسى هـو الكشـف عن غموض الرسالة ٠ وكان الامر سهلا جدا ، فقد أراد مونتيللا أن يقول ان زوج ميراندا لندساى نقل من سـجن هوندا الى سجن قرطاجنة وأن العفو عنه لن يستغرق أكثر من بضـعة أيام ٠ وأحس الجنرال عندئذ بأنه خدع ببساطة اللغز بحيث لم يبتهج بالجميل الذى قدمه للتى أنقذته فى جمايكا ٠

أخبره أسقف سانتا مارتا فى بداية شهر نوفمبر، برسالة كتبها بخط يده انه بفضل وساطة البابوية هدأ النفوس فى القرية المجاورة لسييناجا حيث وقعت فيها فى الأسبوع الأخير محاولة تمرد لصالح ريوهاشا ٠ شكره الجنرال ، هو الآخر بخط يده ، وطلب من مونتيللا أن يقوم بالبـاقى ٠ ولـكن الطريقة التى استعجل بها الأسقف سداد دينه لم ترق له ٠

لم تكن علاقاته بالمونسنيور استيفينز بالعلاقات السهلة أبدا ٠ فقد كان الأسقف ، خلف هدوئه الرهبـانى سـياسيا متحمسا ، ولكنه قليـل الحـكمة ، ومعاد من سـويداء قلبه للجمهورية ولاتحاد القارة ولـكل ما يمت بصلة الى الفـكر السياسى للجنرال ، ففى الكونجرس الرائع الذى كان نائبـا لرئيسه فهم تماما ان مهمته هى أن يضع العراقيل أمام نفوذ

سوكريه ، وقد بذل جهده فى سبيل ذلك بخبث وفعالية اثناء انتخاب كبار الموظفين ، وفى المهمة التى أنجــزوها لمحاولة وجود حل ودى للخلاف مع فنزويلا . ولم يدهش الزوجان موليناريس اللذان يعرفان هــذه الاختــلافات أبدا عنــدما استقبلهما الجنرال فى تصبيرة الساعة الرابعة باحدى حِكمه التنبؤية اذ قال :

ــ ماذا يكون من أمر أولادنا فى بلد تضــع فيــه همــة أسقف نهاية للثورات ؟

أجابته مدام موليناريس بلهجة عتاب ودى وحازم فى نفس الوقت :

ــ حتى اذا كنت على حق يا صاحب الفخامة فلا أريد أن أعرف ذلك . نحن كاثوليكيون من زمن بعيد .

استدرك الجنرال على الفور فقال :

ــ أكثر من سيادة الأسقف دون شك لأنه لم يعد السلام سييناجا حبا لله ، وانما لكى يبقى عــلى وحدة أوفيائه فى الحرب ضد قرطاجنة .

قال مسيو موليناريس : نحن هنا ، أيضا ، ضد استبداد قرطاجنة .

قال الجنرال : أعرف ، فكل كولومبى بلا عدو .

كان الجنرال ، وهو فى سوليداد ، قد طلب من مونتيللا أن يرسل اليه باخرة خفيفة حتى ميــناء سابانيللا المجــاور لتحقيق مشروعه فى طرد صــفرائه بالتعرض لدوار بحــر شديد . وتأخر مونتيللا فى ارضائه لأن دون جواكين دى مير، وهو اسبانى جمهــورى ، شريك للــكومودور البيرس كان قد وعده باحدى البــواخر البخارية التى تقــدم خدماتهــا فى

المناسبات فى نهر مجدالينا ، ولان هذا لم يحدث فقد ارسل مونتيللا ، فى منتصف نوفمبر سفينة تجارية يخفق عليها علم انجليزى وصلت فجأة الى سانتا مارتا • وما أن عرف الجنرال ذلك حتى قال لمن حوله انه سينتهز الفرصة لمغادرة البلد : « اننى مصمم على الذهاب الى أى بلد لكى لا أموت هنا » ثم سرت فى بدنه رعشة عندما فكر ان كاميل تنتظره متفحصة الأفق من شرفة مزدهرة أمام البحر ، وقال :

ـ انهم يحبوننى فى جمايكا •

وأصدر تعليماته لجوزيه بالاسيوس للبدء فى اعداد الأمتعة ، وفى تلك الليلة ، بقى مستيقظا حتى وقت متأخر جدا ، يحاول أن يعثر على مستندات كان يريد أن يأخذها معه بأى ثمن • وتملكه تعب شديد بحيث نام ثلاث ساعات متتابعة • وفى الفجر ، عندما فتح عينيه لم يدرك أين هو الا عندما أطلعه جوزيه بالاسيوس على تاريخ اليوم ، فقال :

ـ حلمت اننى كنت فى سانتا مارتا • كانت مدينة فظيعة تماما ، بيوتها بيضاء ومتجانسة ، ولكن الجبل كان يحول دون رؤية البحر •

قال جوزيه بالاسيوس ، لم تكن مدينة سانتا مارتا اذن. انما كانت كاراكاس •

لأن حلم الجنرال كشف له انهم لن يذهبوا الى جمايكا • كان فرناندو قد ذهب الى الميناء منذ وقت طويل ليعد تفاصيل الرحلة • وعند عودته وجد عمه يملى خطابا على ويلسون يطلب فيه من أوردانيتا جواز سفر جديدا لمغادرة البلاد. لأن الحكومة السابقة لم يعد لها أى نفوذ • وكان هذا هو التفسير الوحيد الذى تذرع به لالغاء رحلته •

ومع ذلك فقد اتفق الجميع على القول بأن السبب الحقيقى انما هو أن العمليات الجديدة فى ريوهاشا التى

جاءتهم فى صباح اليوم بالذات قد زادت العمليات السابقة خطورة • كان الوطن يتفتت من محيط الى آخر ، وشبح الحرب الاهلية ينصب على انقاضه ، ولم يكن هناك ما يزعج الجنرال الا التهرب من المحنة ، وقال : « ليست هناك تضحيه الا ونحن مستعدون لقبولها من أجل ريوهاشا » • وكان الدكتور جاستلبوندو الوحيد الذى يعرف كيف يحدثه دون أن يذله ، لأنه شديد القلق عليه بسبب أمراضه أكثر بسبب همومه ، وقال له :

ـ ان العالم ينهار وأنت لا تهتم الا بريوهاشا • لم نحلم أبدا بمثل هذا الشرف •

وكان الرد سريعا : ان مصير الدنيا مرتبط بريوهاشا •

كان يعتقد هذا حقا ، ولا يستطيع اخفاء قلقه لأنهم كانوا متواجدين فى الوقت المتوقع للاستيلاء على ماراثيبو ولان النصر كان الآن أبعد ما يكون • وكلما اقترب ديسمبر وأمسياته الزبرجدية زاد خوفه من ضياع ريوهاشا . وربما كل الساحل • ولكنه كان يخشى اكثر أن تقوم فنزويلا بحملة لتدك كل ما تبقى من أحلامه •

كان الجو قد بدأ يتغير منذ الأسبوع الماضى . فقد انقطع المطر وأشرقت السماء وسطعت فيها النجوم • ولم يحفل الجنرال بروائع الدنيا وراح يفكر ، وهو فى أرجوحته تارة ، وتارة أخرى وهو يلعب الورق دون أن يهتم بمصيره • وبعد قليل ، أثناء اللعب فى الصالون ، هبت نسمة من الورود البحرية وانتزعت منهم أوراق اللعب ورجت الأبواب • وهتفت مدام موليناريس وقد تحمست بتباشير الفصل المعتدل الذى أقبل قبل الأوان : « ولكننا مازلنا فى ديسمبر » وأسرع ويلسون وجوزيه لورنسيو سيلفا باغلاق النوافذ لمنع الرياح من انتزاع البيت • وكان الجنرال هو الوحيد الذى بقى متعلقا بفكرته اذ قال :

ـ أقبل ديسمبر ومازلنا فى نفس النقطة • انهم محقون اذ يقولون ان من الخير أن يكون رقباء سيئون من ان يكــون لديهم جنرالات لا فائدة منهم •

واستمر يلعب • وفي منتصف الدور ألقي ورقه وقال لجوزيه لورنسيو ســيلفا أن يجهز كل شيء للرحيــل • وكان الكولونل ويلسون قد أنزل متاعه فى اليوم الســابق للمرة الثانية ، فتملكته الدهشة وقال :

ـ ان السفينة قد أبحرت •

كان الجنرال يعرف ذلك ، وقال : « لم تكن الســفينة المناســبة • يجب أن نمضى الى ريوهاشــا لكى نرى ان كان قوادنا المشهورون مصممين أخيرا على احراز النصر » • وقبل أن يغادروا المائدة أحس بضرورة تبرير نفسه أمام ضيوفه فقال :

ـ وهذه ليست ضرورة حربية على كل حال ، وانما هى مسألة شرف •

وهكذا في الساعة الثامنة من صباح أول ديسمبر أبحر على الباخرة مانويل ، وهى ســفينة شراعيــة ذات صاريين ، وضعها جواكين دى مير تحت تصرفه التام والكامل لكى يقوم فيها بجولة أو لكي يطرح صفراءه أو للاقامة فى مصنع السكر بسان بدرو اليجاندرو الذى يمتلكه ، وليراعى فيه صحته من أمراضه العديدة وهمومه التي لا تحصي أو لــكي يواصــل طريقه الى ريوهاشا ويحاول مرة أخرى انقاذ أميركا • وكان الجنرال ماريانو مونتيللا قد جاء الى الباخرة ومعه الجنرال جوزيه ماريو كارينو ، وقد عمــل عــلى أن تقــوم الفرقاطة جرامبوس التابعة للولايات المتحدة بحراسة السفينة الشراعية ، وكان بين ركاب الفرقاطة الجراح المشهور الدكتور نايت • ولكن عندما رأى مونتيللا حالة الجنرال المحزنة لم يشأ أن

يعتمد عـلى رأى الدكتـور نايت فحسب فاستشـار الطبيب المحلى أيضا ٠

وقال الدكتـور جاسـتلبوندو : لا أظن أنه سـيحتمل السفر ، ولكن ليرحل فمن الخير له أن يعيش فى هذه الظروف ٠

كانت قنوات نهر جراند سييناجا بطيئة وشديدة الحرارة وتصدر منها أبخرة مميتة ٠ ومخروا البحر عندئذ منتهزين رياح الشمال الأولى التى كانت فى تلك السنة معتدلة وراحت تهب مبكرة ٠ وكانت السفينة الشراعية بمقصورتها المعـدة للجنرال نظيفة ومريحـة ، وراحت تعبر الميـاه فى شىء من المرح ٠

أبحر الجنرال وهو معتدل المزاج ، وأراد أن يبقى على السطح لكى يرى مصب نهر مجدالينا الكبير الذى كان طميه يصبغ المياه بلون الرماد حتى فراسخ بعيدة فى البحر ٠ كان قد ارتدى بنطلونا قديما من المخمل وقبعته الانديزية وسترة من نوع الأرمادا الانجليزية أهداه اياه ربان السفينة ، وفى وهج الشمس ، تحت تلك النسـمة المنـدفعة كان له مظهر أفضل . واصطاد البحارة ، تكريما له ، حوتا ضخما وجدوا فى بطنه بين الكثير من الطرائف مهمازى فارس ٠ وابتهج الجنرال بكل شىء ، بمرح سائح ، حتى تغلب التعب عليـه واستحوذ على روحه ٠ وعندئذ أشـار الى جوزيه بالاسيوس بأن يقترب وهمس فى أذنه :

ـ لابد أن بابا موليناريس يحرق المرتبة الآن ، ويدفن طاقم السفرة ٠

وفى منتصف النهار حاذوا نهر جراند سييناجا ، وهـو امتداد شاسع من المياه العكرة ، حيث تتنازع طيـور السماء سربا من الأسماك الذهبيـة ، وفى سهل الملح الملتهب ، بين

المستنقعات والبحر . حيث النور أكثر شفافية والهواء اكثر نقاء ، تقوم اكواخ الصيادين وشباكهم المنشورة في الحدائق، وبعد قليل تقع قرية لاسييناجا الغامضة التى آثارت أشباحها النهارية ارتياب تلاميذ همبولد في علومهم ، وفي الناحية الأخرى من لاجراند سييناجا يقوم تاج الجليد الأبدى لسيرانيفادا .

كانت السفينة المرحة تنطلق تقريبا فوق سطح الماء في صمت اشرعتها ، خفيفة وثابتة بحيث انها لم تسبب للجنرال شيئا من ذلك القلق الجسماني الذى طالما كان ينتظره لكي يتخلص من صفرائه . ومع ذلك حاذوا فيما بعد احدى سلاسل الجبال التى تمتد في البحر ، وغدت المياه موحلة . واشتد هبوب الريح . وشاهدالجنرال هذه التغييرات بأمل زائد لأن الدنيا بدأت تدور في نفس الوقت الذى حلقت فيه الطيور الكاسرة فوق رأسه ، وبلل قميصه عرق بارد وغامت عيناه بالدموع . واضطر مونتيللا وويلسون الى الامساك به لأنه كان خفيفا جدا بحيث ان أى ميل للسفينة يمكن أن يطوح به من فوق السطح . وعند الغروب ، عندما بلغوا مياه خليج سانتا مارتا الهادئة ، لم يكن في جسدهالتالف شيء للطرد ، وكان مستلقيا على سرير الربان ، خائرا . ومحتضرا ، ولكن في ثمالة الحلم الذى تحقق . وذعر الجنرال مونتيللا من حالته التى تفاقمت بعد ابحاره ، وطلب تشخيصا جديدا من الدكتور نايت فقرر هذا الأخير أن يهبط الى الأرض فوق محفة .

وفيما عدا قلة الاهتمامالذى يتميز به أهالي سانتا مارتا لكل ما له طابع رسمي ، كانت هناك أسباب أخرى مفسرة لوجود مثل ذلك العدد القليل من الناس عند الميناء ، فقد كانت سانتا مارتا من أصعب المدن للانضمام الى قضية الجمهورية . فبعد معركة بوياكا التى رسخت الحرية فان نائب الملك ساماتو لجأ اليها فى انتظار امدادات من أسبانيا .

وحاول الجنرال نفسه تحريرها مرات عديدة ، واستصاح مونتيللا وحده ذلك بعد ان تدعمت الجمهوريه ، وبالاضافه الى حقد الملكيين كان هناك عداء جماعي نحو قرطاجنه .. المدينة الاثيرة لدى السلطة المركزية والتي يدعمها الجنرال ، دون أن يدرى ، بحبه للقرطاجينيين ، ومع ذلك فقد كان السبب الأكثر خطورة ، حتي لدى أغلب انصاره اخلاصا اعدام الاميرال جوزيه برودنسيو باديللا دون محاكمة . وطفح الكيل لانه كان خلاسيا ، كالجنرال بيار . وقد ازداد الغل باستيلاء أوردانيتا على الحكم ، خاصة أنه هو الذى راس مجلس الحرب الذى أصدر حكم الموت ، بحيث ان اجراس الكنيسة لم تدق كالمتوقع ، ولم يعرف أحد السبب ، كما أن طلقات المدفع لم تطلق من حصن الموز ترحيبا به ، لأنهم اكتشفوا فى الفجر أن البارود الذى بالمخزن مبتل . وكان الجنود قد اشتغلوا حتى قبيل ذلك بقليل لكي لا يرى الجنرال العبارات المكتوبة بالفحم على جدران الكاتدرائية « يحيا جوزيه برودنسيو » وقد أثر الاعلان الرسمي بوصوله بالكاد فى الأشخاص القلائل الذين كانوا ينتظرونه في الميناء . ولكن غياب الأسقف استيفيز هو الذى لوحظ أكثر لأنه كان أول وأبرز المدعوين الرسميين .

وكان يجب أن يتذكر دون جواكين دى مير حتى آخر عمره المخلوق المخيف الذى أنزلوه من السفينة فوق محفة فى أول الليل الخانق من الليلة الأولى ، متدثرا في غطاء من الصوف ، وعلى رأسه قبعتان، الواحدة فوق الأخرى ومتدليتان حتى حاجبيه وهو لا يكاد يستطيع التنفس . ومع ذلك فقد انحفر في ذهنه الى الأبد يداه الملتهبتان ونفسه الحار والوقار العجيب الذى ترك به المحفة لكي يحييهم ، الواحد بعد الآخر ، وهو يذكر رتبة كل منهم واسمه الكامل في حين كان يقف بكل صعوبة ، يسانده ملازموه ، ثم ترك نفسه بين أيديهم حتى العربة حيث تهالك فوق المقعد معتمدا برأسه الى الخلف ،

ولكن بصره النهم بقي معلقـــا بالحيـــاة التي تدور أمامه من خلال النافذة ، لمرة وحيدة وأخيرة ٠

لم يكن على كل العربات الا اجتياز الشارع لبلوغ مبنى الجمرك القديم الذى حجزوه له ٠ كانت الساعة توشك عـلى الثامنة في يوم أربعاء ، ولكن أول نسمات ديسمبر التي هبت من الشاطيء جعلته يبـدو كيوم أحـد ٠ وكانت الشـوارع عريضة وقذرة والبيوت الحجرية بشرفاتها البارزة تبدو فى حالة أفضل من غيرها فى البلد كله ، وأخرجت عائلات بأسرها مفروشاتها للجلوس على الرصيف والاستمتاع بالجو الجميل، واستقبل كثيرون منهم زائرهم وسط الشارع وكانت هناك جيوش من الحباحب بين الأشجار أضاءت شاطيء البحر . وكان ضوؤها أشد سطوعا من الفوانيس ٠

كان المبنى القديم للجمرك قد شـيد قبل ذلك بمائتين وتسع وتسعين سنة وهو بذلك أقدم مبنى فى المدينة . واعيد ترميمه منـذ وقت قريب ، وأعـدت للجنرال ، فى الطابق الثانى الغرفة المطلة على البحر ، ولكنه فضل الاقامة معظم الوقت فى القاعة الرئيسية حيث توجد الحلقات الوحيدة التى يمكن تعليق الأرجوحة فيها٠ وهناك كانت توجد أيضا المائدة الكبيرة من خشب الأكاجو المحفور وهى التى سيوضع فوقهـا بعد ستة عشر يوما جسده المحنط ، مسجى بسترته الزرقاء التى تنم عن مكانته ولكن بدون الأزرار الذهبية الثمانيةالتى انتهز أحدهم فرصة الارتباك والبلبلة وانتزعها فى غفلة من الباقين ٠

هو وحده لم يكن يبدو أنه قريب هكذا من الموت ٠ وعلى العكس ، لم يكن الدكتور الكسـندر بروسـبر ريفراند ، الطبيب الفرنسى الذى استدعاه الجنرال مونتيللا على عجل ، فى الساعة التاسعة ، بحاجة الى أن يجس نبضه لكى يدرك أنه بدأ يموت منذ سنين ٠ فما أن رأى ذبول عنقه ، وانكماش

صدره ولون بشرته الأصفر حتى أدرك أن الضرر الاكبر هو رئتاه التالفتان ، وأكدت الأيام التالية صحة تشخيصه • وأثناء الاستجواب المبدئي ، وجها لوجه ، نصفه بالاسبانية والنصف الآخر بالفرنسية تحقق الطبيب من أن مريضه يملك عبقرية كبيرة للخلط بين الأعراض وبين حقيقة المرض ، وان القليل من النفس المتبقى له يضيع فى مجهوده الذى يبذله لكى يمنع نفسه من السعال ولكى لا يبصق أثناء الكشف • وأثبت الفحص السريرى التشخيص الأول ، ولكنه نسب فى التقرير الطبى الذى سجله فى تلك الليلة ، وهو أول تقرير من بين ثلاثة وثلاثين تقريرا سجلها خلال الخمسة عشر يوما التالية ، أهمية كبيرة معادلة لنكبات الجسد وعذاب الروح •

كان الطبيب ريفراند فى الرابعة والثلاثين من عمره ، مثقفا واثقا من نفسه ، ويعنى بمظهره • قدم قبل ستة أعوام بعد أن خاب أمله فى عودة آل بوربون على عرش فرنسا ، وكان ينطق ويكتب اسبانية سليمة • ولكن الجنرال انتهز أول فرصة لكى يقدم له دليلا على أنه يعرف الفرنسية معرفة جيدة ، وأسرع الدكتور بأن رد عليه قائلا :

ــ ان لفخامتك لهجة باريسية •

أجابه الجنرال وقد تشجع : من شارع فيفيين • كيف عرفت ذلك ؟

قال الطبيب : من دواعى فخرى أننى أستطيع أن أخمن أين نشأ أى باريسى وفى أى ركن بمجرد سماعى اللهجة التى يتحدث بها ، رغم أننى ولدت وعشت فى قرية صغيرة بنورماندى •

قال الجنرال : حيث أجود أنواع الجبن والنبيذ •

أجاب الطبيب : لعل سر صحتنا الجيدة يكمن هنا •

وكسب ثقته وهو يترفق بالجانب الصبياني من قلبه .
وكسبها أكثر أيضا لانه بدلا من ان يصف له ادويه جديده أعطاه بيده ملعقة من شراب أعده له الدكتور جاستلبوندو لتهدئة سعاله ، وقرصا مسكنا ابتلعه الجنرال دون ايه مقاومه لأنه كان يريد ان ينام • وطفقا يتحدثان فى مواضيع مختلفه حتى أحدث المسكن مفعوله ، وخرج الطبيب على طرفى قدميه ، واصطحبه الجنرال مونتيللا الى بيته ، مع بعض الضباط . وانزعج عندما قال له الطبيب انه سينام بكامل ثيابه لعلهم يحتاجون اليه على عجل •

لم يستطع ريفراند ونايت الاتفاق خلال الاجتماعات العديدة التى تمت بينهما طوال الأسبوع • كان ريفراند مقتنعا بأن الجنرال مصاب بمرض رئوى سببته نزلة شعبية لم تعالج كما يجب • اما الدكتور نايت فكان مقتنعا ، بسبب لون البشرة والحمى المسائية ، بأنه يعانى من ملاريا مزمنة • ومع ذلك فقد اتفقا على خطورة حالته ، وطلبا من أطباء آخرين البت فى المسألة ، ولكن الأطباء الثلاثة الذين يقيمون فى سانتا ماريا ، وغيرهم من أطباء المدينة رفضوا الحضور دون ابداء الأسباب، بحيث ان ريفراند ونايتاتفقا على علاج أساسه مراهم صدرية ضد البرد وشراب الكينا ضد الملاريا •

تفاقمت حالة المريض فى نهاية الأسبوع بسبب كوب من لبن الحمارة شربه على مسئوليته وخفيه عن الأطباء • كانت امه تتناوله محلى بالعسل وتعطيه منه وهو صغير لتهدئة سعاله . ولكن مذاقه الناجع المرتبط بطريقة حميمة جدا بأقدم ذكرياته أعاد له المرارة وأتلف جسده . الى حد أن الدكتور نايت أسرع بالرحيل لكى يرسل اليه اخصائيا من جمايكا ، وأوفد طبيبين ومعهما كل أنواع الأدوية المسكنة فى وقت قياسى فى مثل ذلك الوقت • ولكنهما وصلا متأخرين جدا •

ورغم كل شيء لم يتفق مزاج الجنرال مع انحطاط قواه لانه كان يتصرف كمـــا لو أن الآمـــراض التي تقتله لم تكن الا وعكات تافهة • كان يقضي الليل ساهرا في أرجوحته ينظر الى فنار قلعة مور وهو يدور ، محتملا آلامه حتى لا يكشـــف عنها بأنينه ودون أن يحول بصره عن جمال الخليج الذى كان يعتبره أجمل خلجان العالم • وكان يقول :

ـــ ان عينى تؤلمانني من كثرة النظر •

وكان يحاول أثناء النهار أن يبدو نشطا جدا ، كما لو كان في الماضي ، فيستدعى ايبارا وويلسون وفرناندو أو من يكون قريبا منه لكي يطلعهم على الرسائل التي لم يعد يجـــد صبرا لاملائها ، وجوزيه بالاسيوس وحده هو الذى كان على شيء من وضوح القلب بحيث أدرك أن تلك التصرفات العاجلة كانت تعني النهاية لأنها كانت تدابير لمستقبل المقربين اليه ، ولم يكن بعضهم موجودا في سانتا مارتا • نسى مشاحنته مع سكرتيره القديم ، الجنرال جوزيه سانتانا ، وحصل له عـــلى وظيفة في وزارة الخارجية حتى يتسنى له الاستمتاع بحياته الجـــديدة كعريس حديث • ووضـــع الجنرال جـــوزيه ماريا كارينو ، الذى اعتاد امتداح قلبه الكبير ، على الطريق الذى سيقوده بعد سنوات طويلة الى رئاســـة فنزويلا • وطلب من أوردانتيا خطابات خدمة لأندريس ايبارا وجوزيه لورنسيو سيلفا حتى يمكنهما الحصول على معاش منتظم ، وأصبح سيلفا قائدا عاما وسكرتيرا في وزارة الحرب والبحرية ، ومات في سن الرابعة والثمانين ، واضمحل بصره بعد أن حصل عـــلى بطاقة عجز حصل عليها بعد مساع شـــاقة وهو يكشـــف عن جروحه العديدة لكي يثبت جداراته الحربية •

وحاول الجنرال كذلك أن يقنع بريسينو منديز بالعودة الى غرناطة الجـــديدة لشـــغل وزارة الحربيـــة ، ولكن عجلة التاريخ لم تتح له وقتا لذلك • واتخـــذ لابن أخيـــه فرناندو

تدابير ايصائية حتى ييسر له دخول الادارة ، ونصح الجنرال دييجو ايبارا ، أول ملازميه وأحد الذين كان يعاملهم دون آية كلفة سواء فى الحياة الخاصة أم أمام الجمهور ، أن يمضى الى مكان يشعر فيه أنه اكثر فائدة من فنزويلا . وحتى وهو على فراش الموت طلب آخر جميل فى حياته للجنرال جوستو بريسينو ، رغم أنه كان على خلاف معه فى تلك الأيام .

لم يشك ضباطه ، بلا مراء ، الى أى حد وحد ذلك التوزيع مصائرهم لأنه قدر لهم أن يقضوا بقية حياتهم معا ، سواء فى السراء أم فى الضراء ، وأن يتقاسموا حتى السخرية التاريخية تواجدهم من جديد ، بعد خمس سنوات ، فى فنزويلا ، بجوار الجنرال بدروكاروجو ، فى المغامرة الحربية لصالح الفكرة البوليفارية للوحدة .

لم تعد مناورات سياسية وانما ترتيبات وصائية لصالح أيتامه واقرار مفاجىء للجنرال أوردانيتا آكده لويلسون قائلا « ريوهاشا ضاعت » وفى أصيل نفس ذلك اليوم تلقى الجنرال رسالة غير متوقعة من الأسقف استيفيز لاستخدام نفوذه لدى الحكومة المركزية للاعتراف بسانتا مارتا وريوهاشا كمحافظتين ووضع حد للخلاف التاريخى مع قرطاجنة . وأشار الجنرال الى جوزيه لورنسيو سيلفا ، عندما انتهى من قراءة الرسالة اشارة تدل على الاجابة وقال له : « كل الأفكار التى تدور فى رأس الكولومبيين لا تؤدى الا الى التجزئة » وفيما بعد ، بينما كان يهتم مع فرناندو بالرسائل المتأخرة ، كان أشد مرارة وهو يقول :

ــ لا تهتم حتى بالرد عليه . فلينتظروا حتى يوارينى الثرى ليفعلوا ما يشاءون .

كان همه الدائم فيما يتعلق بالجو يؤدى به الى حافة الجنون ، فاذا كان رطبا أراده أكثر جفافا ، واذا كان باردا

أراده دافئا ، واذا كان جبليا أراده بحريا • كان هذا الأمر يغذى قلقه المستمر لكي يفتحوا النافذة لدخول الهواء وأن يغلقوها • وأن يضعوا المقعد لصق الجدار . وأن ينقلوه من مكانه • ولم يكن ليستريح الا عندما يتأرجح فى أرجوحته ، مستخدما ما بقى له من قواه الضعيفة •

أصبحت أيام سانتا مارتا مملة جدا بحيث ان الجنرال جدد رغبته في المضى الى بيت مسيو دى مير الريفى ، وكان الدكتور ريفراند أول من شجعه على ذلك وهو واع بأن هذه هى الأعراض الأخيرة لوهن لا صلاح بعده ، وفى عشية الرحيل كتب لصديق : « سأموت بعد شهرين على الأكثر » ، وكان قوله هذا بالنسبة للجميع نبوءة لأنهم لم يسمعوه يتكلم عن الموت طوال حياته الا بضع مرات •

كانت فلوريدا دى سان بدرو اليجاندرو تقع على بعد فرسخ من سانتا مارتا ، فوق خاصرة جبل سييرا نيفادا ، وهى مزرعة قصب سكر فيها مصنع لصنع العسل الأسود • وقطع الجنرال ، فى عربة مسيو دى مير ، الطريق المغبر الذى قدر لجسده أن يقطعه بدونه وفى اتجاه عكسى ، بعد عشرة أيام ، ملفوفا فى غطائه الجبلى القديم فوق عربة ثيران • وقبل أن يرى البيت أحس بالنسمة المعطرة برائحة المولاس الساخن ، وخضع لأحابيل الوحدة وقال وهو يتنهد :

ـ هذه رائحة سان ماتيو •

كان مصنع السكر بسان ماتيو ، الواقع على بعد أربعة وعشرين فرسخا من كاراكاس ، فى حنايا قلبه ، فقد أصبح يتيم الأب وهو فى الثالثة من عمره ، ويتيم الأم وهو فى التاسعة ، وأرمل وهو فى العشرين • كان قد تزوج فى اسبانيا بفتاة جميلة من الارستقراطية الكريولية تمت له بصلة القرابة ، وكانت رغبته الوحيدة هى أن يكون سعيدا

معها وأن يشرف على ادارة أملاكه الواسعة كسيد لحيوات وأراضى مصنع السكر فى سان ماتيو • لم يعرف أحد ابدا بالتأكيد اذا كان موت زوجته بعد زواجهما بثمانية شهور بسبب حمى خبيثة أو بسبب حادث منزلى، وكان ذلك بالنسبة له ميلادا تاريخيا ، لأنه كان حتى ذلك الوقت شابا من شباب المستعمرات تبهره الملذات الدنيوية وليست له آية ميول سياسية • ولكن بدءا من تلك اللحظة ، أصبح دون تمهيد الرجل الذى بقيه حتى آخر حياته • لم يتحدث أبدا عن زوجته ، ولم يذكرها أبدا ، ولم يحاول أبدا أن يتزوج بامرأة غيرها • وطوال ليالى حياته تقريبا حلم ببيت سان ماتيو ، وكان يحلم كثيرا بأبيه وأمه وبكل من اخوته وأخواته ولكنه لم يحلم بها هى أبدا ، لأنه دفنها فى أعماق نسيان مطلق كدواء شرس لكى يتمكن من العيش بدونها • وأحيت رائحة مولاس سان بدرو ذاكرته لمجرد لحظة ، هى والعبيد الواقفون أمام المطاحن الذين لم يوجهوا اليه ولا حتى نظرة شفقة واحدة والأشجار الضخمة حول البيت الذى أعيد طلاؤه حديثا باللون الأبيض بمناسبة استقباله ، ومصنع السكر الآخر فى حياته ، حيث قاده قدر محتوم الى الموت •

قال فجأة : كانت تدعى ماريا تيريزا رودريجز دل تورو اى الايزا •

سأله مستر دى ميير فى شرود : من تعنى ؟

أجاب : من كانت زوجتى •

ــ واستدرك على الفور : ولكن أرجوك أن تنسى ما قلت . فلم يكن ذلك الا أحد عوائق شبابى •

ولم يقل شيئا آخر •

تسببت الغرفة التى خصصت له فى ذكرى أخرى مزعجة، وفحصها بدقة متناهية ، كما لو أن كل شىء فيها كان وحيدا

بالنسبة له ، فبخلاف السرير ذى القبة ، كان هنـاك صوان من الخشب الأكاجو ومنضدة صغيرة بجوار الفراش من نفس نوع الخشب فوقهـا قرص من الـرخام وكرسى كبير منجـد بالقطيفة الخضراء ، وعلى الحائط ، بجوار النافذة سـاعة مثمنة الاضلاع بأرقام رومانية متوقفة على الساعة السـابعة وسبع دقائق وقال :

ــ سبق أن أتينا هنا ٠

وفيما بعد ، بعـد أن ملأ جـوزيه بالاسيوس السـاعة وضبطها عـلى الوقت الصـحيح ، رقد الجنرال فى أرجوحته وحاول أن ينام ، ولو دقيقة واحـدة ٠ ورأى عنـدئذ ، من النافذة جبل سيرا نيفادا واضـحا وأزرق اللون . كلـوحة معلقة لصق الحائط ، وشرد ذهنه في الغرف العديدة بالحيوات العديدة وقال :

ــ لم أشعر بدا بأننى قريب من بيتى هكذا ٠٠

نام نوما هادئا فىالليلة الأولى فى سان بدرو اليجاندرو، وبدا أنه قد شفى من آلامه الى حد أنه قام بجولة حول المطاحن، وأعجبته سلالة الأبقار الجيدة وتذوق المولاس ، وأثار دهشة الجميع بمعلوماته عن فن صناعة السكر ٠ ودهش الجنرال مونتيللا من مثل هذا التغيير وطلب من الدكتـور ريفراند تفسير ذلك ، وذكر له هذا الأخير أن تحسن صـحة الجنرال الوهمي أمر عادى عند المحتضرين وأن النهاية قد تكون بعد أيام ان لم تكن بعد ساعات ، وريع مونتيللا من الخبر وضرب الحائط بقبضته وشجت يده ٠ وبدءا من تلك اللحظة ، وحتى آخر أيامه لن يكون أبدا نفس الرجل ٠ كان قد كذب كثيرا على الجنرال بحسن نية ولأسباب سياسية عديمـة الأهميـة ، وقرر أن يكذب عليه عندئذ بدافع الشفقة ، وأصدر تعليماته فى هذا الصدد الى كل المحيطين به ٠

أقبل الى سانتا مارتا في ذلك الأسبوع ثمانيـة ضباط ينتمون الى الطبقة العالية استبعدتهم فنزويلا بسبب نشاطهم ضد الحكومة ، وبعضهم من أكثر الذين أحرزوا مجـدا فى حركةالتحرير : نيكولاس سيلفا وترينيداد بورتوكا وجوليان انفانت • وتوسل مونتيللا اليهم أن يخفوا عنه الأخبار السيئة وتضخيم الجيدة منها في محاولة لتخفيف أكثر آلامه العديدة خطرا • وفعلوا أكثر من ذلك ، وقدموا اليه تقريرا مشبعا جدا عن الموقف بحيث تمكنوا من احياء أمجاد الأيام الغابرة فى عينيه ، وعاد الجنرال الى موضوع ريوهاشا الذى كان قد تخلى عنـه منـذ أسبوع وراح يتحدث عن فنزويلا كاحتمال عاجل ، وقال :

ـ أبدا لم تسـنح لنا الفرصـة بأن نبدأ من الطـريق السليم من جديد •

ثم استطرد باقتناع شديد : فى اليوم الذى سأمشى فيـه من جديد فى وديان أراجو سيهب الشـعب الفنزويلى بأسره ليرحب بى •

رسم خطة جديدة فى أصيل يوم أمام زائرين عسكريين عرضوا عليـه مسـاعدته مترفقين به فى حماسهم ، ولكنهم اضطروا أن يصغوا اليه طوال الليل وهو يقول لهم بلهجـة ايحائية كيف يشيدون من البـداية والى الأبد امبراطـورية أوهامه الكبيرة ، وكان مونتيللا هو الوحيد الذى جرؤ عـلى مخالفـة الذين حسبوا انهـم يسـتمعون الى تخريف مجنون اذ قال لهم :

ـ حذار ، فالذين استمعوا اليه فى كازاكويما اعتقدوا نفس الشيء •

والواقع أن ما من أحد قد نسى يـوم الرابع من يوليـة سنة ١٨١٧ عندما اضطر الجنرال أن يقضى طوال الليل فى بحـيرة كازاكويما مع جمـاعة من الضـباط ، ومن بينهم

بريسيفو منديز ، للاختباء من الجنود الاسبان الذين كادوا يفاجئونهم فى بقعة مكشوفة • كان شـبه عار ويرتجف من الحمى ، وأعلن بصـوت مرتفـع خططه التى سـينجزها فى المستقبل : «الاستيلاء الفورى على انجوسترا ــ واجتياز جبال الانديز لتحرير غرناطة الجـديدة ، ثم فنزويلا بعـد ذلك لانشاء كولومبيا ، وأخيرا غزو أراضى الجنوب الشاسعة حتى بيرو ، وسنسلق عندئذ جبل شيمبوروزو ونغرز على قمتـه الثلجية العلم الثلاثى الألوان لأمريكا العظمى المتحدة والحرة للقرون القادمة » • واعتقد الذين أصغوا اليه وقتئذ أنه فقد عقله ، ومع ذلك فقد تحققت النبوءة بالحرف الواحد، وخطوة خطوة فى أقل من خمس سنوات •

ولكن لسوء الحظ كانت نبوءته فى سان بدرو اليجاندرو مجرد رؤية مبشرة بالنهاية ، فالآلام التى هدأت فى الاسبوع الأول عادت أكثر حدة وعنفا فى عصبة من الاعيـاء التام . وتقلص حجمه الى حد أنهم اضطروا الى رفع أكمام قمصانه من جديد ، وقص أسـفل سراويله القطيفة • ولم يسـتطع النوم أكثر من ثلاث ساعات فى بداية الليل ، وكان يقضى بقية الليل وهو يسعل ويكاد يختنق فريسة هذيان أو يأس بسبب فواق بدأ يعتريه فى سانتا مارتا وغدا أكثر الحاحا • وكان يلهى آلامه بعد الظهر بتأمل قمم الجبـال الثلجيـة من النافذة •

اجتـاز المحيط الأطلسى أربـع مرات ، وجاب الأراضى المحررة على صهوة جواده كما لم يفعل أحد ذلك على الاطلاق، ولم يحرر وصية فى أى وقت ، وهو أمر غريب فى ذلك الوقت كان يقـول « لا شىء لدى لكى أتركه لأحـد » وكان الجنرال بدرو الـكانترا هيران قد عرض عليـه أن يحـرر وصية فى سانتا فى عندما كان يتأهب للقيام برحلة متذرعا بأنه احتياط عادى لكل مسافر ، ورد عليه الجنرال بلهجة فيهـا من الجـد أكثر من الطرب ان المـوت لا يدخـل فى عـداد مشروعاته

الحاضرة ، ومع ذلك فهو الذى أملى مسودات رغباته الأخيرة ، وتصريحه الأخير وهو فى سان بدرو اليجاندرو ، ولم يعرف أحد أبدا اذا كان ذلك عملا واعيا أو كبوة من قلبه المضنى ٠

ولما كان فرناندو مريضا فقد راح يملى على جوزيه لورنسيو سيلفا مجموعة من الملاحظات المتضادة شيئا ما تعبر عن خيبات أمله أكثر منها عن رغباته : « ان أمريكا بلد يتعذر حكمها ، والذى يخدم ثورة كأنه يحرث البحر ، وهذه البلاد ستقع الى الأبد فى أيدى الشعب الهائج والطغاة الأغبياء من كل لون وكل جنس » ٠ وأفكار أخرى كئيبة كانت تدور فى الأذهان ويتناقلها مختلف الأصدقاء فى رسائلهم ٠

واستمر فى املائه لعدة ساعات ، كما لو أن نوعا من الاستبصار قد استحوذ عليه ، لا يكاد يوقفه شىء الا نوبة من السعال ٠ ولم يستطع جوزيه لورنسيو سيلفا متابعته ، كما أن أندريس ايبارا لم يستطع مواصلةالكتابة مدة طويلة بيده اليسرى ٠ وعندما استولى التعب على الجميع ، سكرتاريين وملازمين ، بقى الملازم ماريانو دى باز واقفا ، وكتب تحت الاملاء بكل دقة ومثابرة حتى نفد الورق الجديد ٠ وطلب عندئذ ورقا جديدا ، واذ تأخروا فى الاتيان به راح ماريانو يكتب على الحائط حتى غطاه كله تقريبا ٠ وأحس الجنرال نحوه بالامتنان بحيث أهداه المسدسين اللذين استخدمهما الجنرال لورنزو كاركامو فى مبارزته الغرامية ٠

ومن بين رغباته الأخيرة ، طلب أن تدفن رفاته فى فنزويلا ، وأن يودع الكتابان اللذان كانا ملكا لنابليون بجامعة كاراكاس ، وأن يسلم لجوزيه بالاسيوس ثمانية آلاف بيزو ذهبا اعترافا بخدماته المستمرة ، وأن تحرق كل المستندات التى تركها فى قرطاجنة طرف مسيو بافاجو ، وأن تعاد الميدالية التى كرمه بها المجلس الموقر ببوليفيا الى مكانها الأصلى ، وأن يعاد الى أرملة المارشال سوكريه السيف

الذهبي المرصع بالأحجار الكريمة الذى أهداه سوكريه اليه ، وأن تـوزع بقيــة ممتلكاته بما فى ذلك منـاجم آروا بين شقيقتيه وأبناء أخيه المتوفى ، ولم يكن هناك شيء آخر لأنه اضطر الى سداد ديون كثيرة ، سواء أكانت صغيرة أم جسيمة ومن بينها العشرين ألف بيزو المزعجة الخاصة بالاستاذ لانكاستر .

والى هذه البنود الدقيقة حرص على أن يضم اليها بندا استثنائيا غريبا . ولكن الغريب هو أنه لم يخص به أيضا الجنرال أوليرى الذى لم يحضر الجنازة ، لأنه لم يستطع العودة فى الـوقت المناسب من قرطاجنـة ، وكان الجنرال قد أمره بالذهاب هناك لكى يضع نفسه تحت تصرف أوردانيتا .

كان من المقدر أن يرتبط كل من الاسمين بالجنرال الى الابد . فقد عين ويلسون فيما بعد قائما بأعمال بريطانيا العظمى فى ليما فى بادىء الأمر ، ثم فى كاراكاس ، واشترك فى المحل الأول فى الشئون السياسية والعسكرية للبلدين . وأمام أوليرى فى كنجستون وفيما بعد فى سانتا فى، حيث عمل قنصلا لبلده مدة طويلة ، ومات وهو فى الواحدة والخمسين من عمره ، بعد أن دون فى أربعة وثلاثين مجلدا شهادة ضخمة عن حيـاته الى جانب جنرالات أميركا ، وكانت شـيخوخته صامتة ومثمرة أوجزها فى عبارة واحدة : « بعد موت المحرر وتدمير مآثره اعتكفت فى جمايكا حيث كرست حيـاتى فى ترتيب أوراقى وتدوين مذكراتى » .

وبدءا من اليوم الذى أملى فيه الجنرال وصيته استنفد الطبيب معه كل المسكنات التى فى جعبته من لزقات الخردل فى قدميه وتدليك العمود الفقرى ولبخات مسكنة على كل الجسد ، وعالج امساكه المزمن بحقن شرجية سريعة المفعول ولكنها مدمرة جدا ، وخشى أن يصاب باحتقان مخى فعالجه بلصقات منفطة ، وهو علاج خطر ولكنه يمتص رواسب

الزكام • وقد أخضعه الطبيب ريفراند لهذا النوع من العلاج خمس مرات فى مؤخرة رأسه ومرة فى ركبته • وبعد قرن ونصف من ذلك أجمع الكثير من الأطباء أن تلك الطريقة هى التى عجلت بموته فقد تسببت فى اضطرابات فى البول بحيث راح يتبول على غير ارادته وبألم شديد ويصاحب بوله الدم ، الى حد أن مثانته جفت كما تحقق الدكتور ريفراند من ذلك عند تشريح جثته •

وكان الجنرال شديد الحساسية من ناحية الشم بحيث أجبر الطبيب والصيدلى أوجستو توماسان على الوقوف بعيدا عنه بسبب رائحة المراهم التى تتصاعد منهما وراح يرش الحجرة بماء الكولونيا أكثر من ذى قبل ، واستمر يأخذ حماماته غير المجدية ، ويحلق ذقنه وينظف أسنانه بالفرشاة بضراوة وشراسة وبجهد خارق ليحمى نفسه من أوساخ الموت •

مر بسانتا مارتا فى الأسبوع الثانى من ديسمبر الكولونل لويس بيرو دى لاكروا، وهو محارب شاب فى جيش نابليون كان الى وقت قريب ملازما للجنرال• وما أن رآه حتى أرسل الى مانويلا رسالة يخبرها فيها بالحقيقة ، ما كادت تقرأها حتى أسرعت فى طريقها الى سانتا مارتا • ولكن عندما بلغت جوادياس قيل لها ان الجنرال قد لفظ نفسه الأخير فمحاها الخبر من الوجود ، وانطوت على نفسها وتركت كل شيء خلفها فيما عدا الصندوقين المحتويين على مستندات الجنرال التى أفلحت فى وضعها فى مكان آمن بسانتا فى واللذين استعادهما دانييل أوليرى بعد ذلك بسنين طويلة بناء على طلبها • وكانت أول عمليات حكومة سانتاندر أن حكمت عليها بالنفى ، فتقبلت مصيرها بوقار محنق ، ومضت أولا الى جمايكا ، ثم فى تنقل حزين الى أن انتهى بها المطاف فى مدينة بايتا • وهى ميناء قذر على المحيط الهادى يؤمه

نيف من صيادى الحيتـان من كل البـلاد ، وهنـاك امضت حياتها تواسى نفسها فى شغل الابرة وعمل الدانتيلا وتدخين السيجار وصنع الحلوى على صورة حيوانات وتبيعها للبحارة طالما سمح لها التهاب مفاصـل يديها بذلك ، أما الدكتـور تورن ، زوجها فقد قتل بالسكين فى أرض بور بليما وسرق منه القليل من النقود التى كانت معه ، وترك وصية لمانويلا مبلغا من المال يعادل الدوطة التى جاءته بها عند زواجها . ولكنها لم تتسـلم هـذا المبلغ أبدا · بيـد أنها تلقت ثلاث زيارات خففت من وحدتها : زيارة الأستاذ سيمون رودريجز الذى قاسـمته رماد المجـد ، وزيارة جيزيب جاريبـالدى المواطن الايطالى الذى مضى لمحاربة دكتاتورية روزاس فى الأرجنتين ، وزيارة الروائى هرمان ميلفيل الذى كان يجوب البحار بحثا عن حقائق لروايته موبى ديك · واذ تقدم بهـا العمر ، وأرغمها كسر فى فخذها على ملازمة الفراش ، راحت تطالع البخت فى الورق ، وتقدم نصائح للعشاق ، وماتت فى وباء طاعون وهى فى التاسعة والخمسـين من عمرها ، وأحرقت شرطة الصحة كوخها والمستندات الثمينة ورسـائل الجنرال الخاصة فى نفس الوقت ، وكان كل ما احتفظت به من الجنرال خصلة شعر وقفاز ·

وجد بيرو دى لاكروا فلوريدا دى سان بدرو فى حالة من النوضى من تلك التى تسبق حالة الموت ، فكان البيت ينساق مع التيار ، والضباط ينامون فى أية لحظة وقد هدهم السهر · وكانوا عرضـة للانفعال الى حـد أن جوزيه لورنسيو سيلفا المعروف بحرصه وحذره شهر سـيفه ليرغم الموجـودين عـلى التزام الصمت الذى يطالب به الدكتور ريفراند ، ولم تعد فرناندا باريجا نفسها تجد نشاطها ولا حيويتها لتلبية الكم الهائل من طلبات الطعام فى الأوقات غير المتـوقعة · وكان أكثرهم احباطا يلعبون الورق ليـلا ونهـارا لا يحفلون بأن يسـمع زعيقهم المحتضر فى الغرفة المجـاورة · وذات ليلة ،

بينما كان الجنرال راقدا في فتور الحمى ، راح احدهم يصرخ في الشرفة بأنهم باعوه باثنتي عشرة بيزو وثلاثة وعشرين سنتيما نصف دستة من الألواح الخشبية وماتين وخمسة وعشرين مسمارا عاديا وستمائة مسمار قصير عددى من تلك التي يستعملها المنجدون وخمسين ذهبيا وعشرة أمتار من البفتة وعشرة أمتار من التيل وستة أمتار من شريط أسود ٠

كانت فضيحة حقيقية غطت على الأصوات الاخرى ، وانتهت بأن شملت المزرعة كلها ٠ وكان الدكتور ريفراند في الغرفة المجاورة يضمد يد الجنرال مونتيللا المكسورة ، وأدرك كل منهما أن المريض ، في وضوح غفلته يحصى هو الآخر تلك الأرقام ، وانحنى مونتيللا من النافذة وصاح بكل قوته :

ــ اصمتوا بحق الله ٠

تدخل الجنرال وقال من غير أن يفتح عينيه :

ــ دعهم وشأنهم ٠ مهما يكن فليست هناك حسابات لا أستطيع سماعها ٠

جوزيه بالاسيوس ، وحده ، كان يعرف أن الجنرال لم يكن بحاجة الى سماع المزيد لكي يفهم أن تلك الأرقام تشمل جزءا من المائتين والثلاثة والخمسين بيزو وسبعة الريالات وثلاثة صلديات تم جمعها من أجل جنازته ، بايعاز من البلدية ، من قبل بعض الخاصة ومن المذابح ومن السجن ، وأن القائمة خاصة بالأدوات اللازمة لصنع التابوت واعداد القبر ٠ وتكفل جوزيه بالاسيوس ، بناء على أمر من مونتيللا بمنع أى شخص من دخول الغرفة ، مهما تكن رتبته ومكانته ٠ وفرض هو نفسه نظاما صارما للسهر على المريض بحيث لم يعرف أحد من منهما سيموت وقال : لو انني منحت سلطة كهذه منذ البداية لعاش هذا الرجل مائة سنة ٠

وأرادت فرناندا باريجا الدخول وقالت :

ـ مع كل النساء اللاتى أحبهن ، فان هذا اليتيم المسكين لا يمكن ان يموت دون أن تكون بجواره امرأة . حتى ولو كانت فقيرة ومسنة ولا تنفع بشىء مثلى .

لم يسمحوا لها بالدخول ، وجلست عندئذ بجوار النافذة ، تحاول أن تطهر هذيان المحتضر بصلوات كنائسية . وعاشت بعد ذلك على البر والاحسان العام ، وقد غرقت فى حداد أبدى حتى بلغت الواحدة بعد المائة من عمرها .

وكانت هى التى فرشت الطريق بالزهور وأدارت الترتيل عندما اقبل كاهن قرية ماماتوكو لكى يمنحه مسحة المريض يوم الأربعاء ، يتقدمه صف مزدوج من الهنديات ، حافيات الاقدام ، يرتدين كتونة القساوسة من القماش الخشن ويضعن فوق رؤوسهن أكاليل من الزهور ، ويحملن قناديل زيتية ينرن بها الطريق ويرتلن بلغتهن أناشيد جنائزية . وأخذن يتقدمن فى الطريق الذى كانت فرناندا تفرشه بالزهور أمامهن . وكانت لحظة مؤثرة بحيث لم يجرؤ أحد على ايقافهن . واعتدل الجنرال فى فراشه عندما سمعهن يدخلن وغطى عينيه بذراعيه تجنبا للانهيار . وألقى بهن فى الخارج وهو يصيح :

ـ أبعدوا هذه الأنوار .. كأنها موكب أشباح .

أحضر فرناندو من ماماتو فرقة موسيقية لكى لا تنتهى كآبة البيت الى القضاء على المريض ، وراحت تعزف بدون انقطاع طوال يوم كامل ، تحت أشجار التمر الهندى بالحديقة . وأحدثت الموسيقى أثرها الطيب فى روح الجنرال ، فطالب الفرقة باعادة عزف مقطوعة «لاترينيتاريا» ، وهى مقطوعة تصاحب رقصته المفضلة المعروفة برقصة «الكارديل» ، وكان لها شيوع كبير لأنه وزع بنفسه نوتيفتها الموسيقية فى كل مكان مضى اليه .

آوقف العبيد المطاحن ، وتأملوا لحظة طويلة الجنرال من خلف شيش النافذة · كان متسربلا فى قماش من الجوخ الأبيض ، ووجهه آكثر امتقاعا وشحوبا كما لو أنه مات · وكان يستمع الى الموسيقى وهو يهز رأسه التى بدأ الشعر ينبت فيها من جديد ، وكان ، عندما ينتهى كل مقطع ، يصفق بالطريقة التى تعلمها من دار الأوبرا بباريس ·

نشطته الموسيقى ، فأخذ فى الظهر فنجانا من الحساء وتناول بضعة أجزاء من دجاجة مسلوقة وبعض الحلوى ، ثم طلب مرآة يدوية لكى يرى نفسه وهو فى أرجوحته وقال : « بعينين كهاتين لا يمكن أن أموت » · وتولد عند الجميع عندئذ الأمل الضائع تقريبا فى أن ينجز الدكتور ريفراند معجزته ، ولكن عندما بدت حالة المريض تتحسن اذا به يخلط بين الجنرال ساردا وبين أحد الضباط الثمانية والثمانين الذين أعدمهم سانتاندر فى يوم واحد بدون محاكمة بعد معركة بوياكا · وبعد ذلك انتكس فجأة نكسة لم يبرأ منها وصاح بالقليل مما بقى له من صوت بأن يطردوا الموسيقيين من البيت حتى لا يزعجوا سلام احتضاره ، وعندما استعاد هدوءه أمر ويلسون بتحرير رسالة للجنرال جوستو بريسينو يطلب منه فيها جميلا ، بعد وفاته تقريبا . وهو أن يتصالح مع أوردانيتا لانقاذ البلاد من كوارث الفوضى ، ولم يمل بنفسه غير السطر الأول « أكتب اليك هذا الخطاب فى آخر لحظة من لحظات حياتى » ··

وراح يترثر الى وقت متأخر من الليل مع فرناندو ، ولاول مرة زوده بنصائح تتعلق بمستقبله ، وستبقى فكرة تدوين مذكراته معا فى حالة مشروع ، ولكن ابن أخيه كان قد عاش الى جواره بما يكفى لكى يحاول تدوينها ولو لمجرد تمارين قلبية حتى يعرف أولاده فكرة عن تلك السنوات السعيدة والتعيسة وقال الجنرال : «سيكتب أوليرى شيئا اذا أراد ذلك ، ولكن الأمر سيكون مختلفا» · وكان فرناندو فى

السادســة والعشرين من عمره عنــدئذ ، وقد عاش حتى بلغ الثامنة والثمانين ، ولكنه لم يكتب غير بضــع صفحات غــير مترابطة، لأن القدر حباه بالنعمة الكبيرة بأن أفقده الذاكرة ·

كان جــوزيه بالاســيوس موجودا في الغرفة عندما أملى الجنرال وصيته · ولم ينطق لا هو ولا أحد غيره بكلمة أثناء ذلك العمل المقدس، ولكنه توسل الى الجنرال وهو يأخذ حمامه المهدىء فى المساء بأن يغير رغباته قائلا :

ـ كنا دائما فقيرين ولم نفتقر أبدا الى شيء ·

قال له الجنرال : بل على العكس كنا ثريين ، ولم نشعر بحاجتنا أبدا الى المزيد ·

كان هذان النقيضان هما الحقيقة الخالصة ، فقد التحق جوزيه بالاسيوس بخدمة الجنرال وهو جد صغير ، بأمر من أم الجنرال ، وكان عبدا لها ولم تعتقه أبدا بطريقة رســمية ، وبقى طوال حياته فى ريب مدنى ، ولم يتلق أبدا أى راتب ، ولــكن ضروراته الشــخصية كانت ضمن ضرورات الجنرال الخاصة ، وتطابق معه فى كل شيء ، فى طريقة ملبسه ومأكله حتى بلغ به الأمر الى التشبه به فى زهده وقناعته · ولم يشأ الجنرال أن يتركه لمصيره دون رتبة عسكرية أو معاش عاجز فى سن لا يمكنه أن يبدأ فيها حياته من جديد ، ولم يكن هناك اذن خيار آخر · لم يكن هناك مفر من تنفيذ بنــد الثمانيــة آلاف بيزو · وقال الجنرال :

ـ ليس هذا الا عدلا ·

ولكن جون بالاسيوس أسرع بالرد قائلا : انما العــدل هو أن نموت معا ·

والواقع أن هذا ما حدث لأنه أساء التصرف فى ماله كما أساء الجنرال التصرف فى ممتلكاته ، فبعد أن مات هذا الأخير

بقى هو فى قرطاجنة ديزاند يعيش على البر والصدقات العامة ، ولجأ الى الخمر ليغرق فيها ذكرياته وانقاد لملذاته ومات فى سن السادسة والسبعين ، بعد أن تمرغ فى الوحل أثناء أزمة من الهذيان والرعاش فى جحر متسولين معزولين من جيش التحرير ٠

وفى العاشر من ديسمبر استيقظ الجنرال وهو يشعر بأن حالته أصبحت من السوء بحيث أسرعوا باستدعاء الاسقف استيفيز ، لربما يريد أن يعترف ٠ وأقبل الأسقف على الفور ، مرتديا ثيابه الكهنوتية ليضفى أهمية كبيرة على المقابلة ، ولكن تلك المقابلة تمت سرا بناء على أمر الجنرال ومن غير وجود أى شهود ، ولم تدم أكثر من أربع عشرة دقيقة ٠ ولم يعرف أحد أبدا ما دار فيها ، وخرج الاسقف مسرعا وقد اكفهر وجهه ، وصعد الى عربته دون استئذان أحد ولم يقم الاحتفال الجنائزى ولم يحضر الجنازة رغم الدعوات العديدة التى وجهت اليه ، وأحس الجنرال بأن حالته تفاقمت ، وازدادت سوءا بحيث لم يستطع مغادرة أرجوحته وحده ، واضطر الطبيب أن يحمله بين ذراعيه كما لو كان طفلا ويسنده بالوسائد حتى لا يخنقه السعال ٠ وعندما استرد أنفاسه أخرج الجميع لكى يتكلم مع الطبيب على حدة ، وقال له :

ـ لم أكن أتصور ان هذه البذاءة من الخطورة بحيث يجب التفكير فى الزيوت المقدسة ، وأنا الذى لم أحظ بالايمان بأن هناك حياة فى الآخرة ٠

قال ريفراند : ليس الأمر كذلك ، فقد ثبت أن المريض اذا أراح ضميره فان ذلك يتيح له حالة نفسية تسهل مهمة الطبيب كثيرا ٠

لم يهتم الجنرال بلباقة الرد فقد بلبله الكشف الخاطف بأن السباق الجنوني بين مرضه وأحلامه بلغ فى تلك اللحظة بالذات نهايته أما الباقى فما هو الا ضلال · وقال :

ــ رحماك يا الله ! كيف الخروج من هذه المتاهة ·

وفحص الغرفة في صحو الأيام الغابرة . ورأى الحقيقة لاول مرة : الفراش الاخيرالعارى ومنضدة الزينة الحقيرةالتى لن تعكس مرآتها المهزوزة صورته بعد ذلك أبدا والطست الخزفى المشروخ بما فيه من ماء والمنشفة والصابون من أجل أيد أخرى، والسرعة الضارية للساعة المثمنة الأضلاع وهى تتابع سباقها المحتوم فى السابع عشر من ديسمبر فى الساعة الواحدة وسبع دقائق من بعد ظهر يومه الأخير ، وعندئذ عقد ذراعيه وراح يصغى الى الأصوات المرحة للعبيد وهم ينشدون نشيد الساعة السادسة فى مطاحن السكر ، ورأى من النافذة كوكب الزهرة المتألق وهو يمضى عاليا فى السماء الى الأبد والثلوج الخالدة ونباتات اللبلاب الصفراء الجديدة التى لن يراها تتفتح يوم السبت التالى فى البيت المتسربل بالحداد ولا ومضات الحياة التى ستتلى بعد ذلك قرونا ، بعد قرون ·

تمت

اقرأ فى هـذه السـلسلة

احلام الاعلام وقصص اخرى	برتراند رسـل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى ٠ رادونسكايا
نقطـة مقـابل نقطـة	الدس هكسـلى
الجغرافيا فى مائة عـام	ت ٠ و ٠ فريمـان
الثقـافة والمجتمـع	رايموند وليـامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر ٠ ج ٠ فوربس
الأرض الغـامضة	ليســترديل راى
الرواية الانجليـزية	والتـر ألـن
المرشـد الى فن المسرح	لويس فارجـاس
آلهـة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشـاشة	د٠ قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	اولج فولـكف
الهوية القومية فى السينما العـربية	هاشـم النحـاس
مجمـوعات النقـود	ديفيـد وليـام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطق	عـزيز الشـوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الادبى	د٠ محسن جاسم الموسـوى
ديـلان توماس	اشراف س ٠ بى ٠ كوكس
الانسـان ذلك الكائن الفـريد	جـون لويس
الرواية الحـديثة	جـول ويست
المسرح المصرى المعـاصر	د٠ عبد المعطى شعراوى
على محمـود طـه	أنـور المعـداوى
القـوة النفسـية للاهـرام	بيـل شـول وأدينيت
فن الترجمـة	د٠ صـفاء خلوصى
تولسـتوى	رالف ئى ماتلـو
ســتندال	فيكتـور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنز هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف · ع ادنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	د· نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د· فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د· روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا · سبنسر
النحل والطب	د· ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ــ ١٩١٤	د· لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د· جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د· غبريال وهبة
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	د· رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د· محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل · باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ــ ١٩٨٥	شوكت الربيعى
التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د· محيى الدين أحمد حسين

نظـريات الفيلم الكبرى	ج٠ دادلى انــدرو
مختارات من الأدب القصصى	جــوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد	د٠ جــوهان دورشــز
حــــرب الفضــاء	طائفة من العلــماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدوليـة	د٠ الســـيد عليـــوة
الميــكروكمبيـــوتر	د٠ مصــطفى عنــانى
مختارات من الأدب الياباني	صــبرى الفضــل
الفكر الأوربى الحديث ٣ جـ	فرانكلين ل ٠ باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جـــابريل بايـــر
اعلام الفلسفة السياسية المعــاصرة	انطــونى دى كرســبنى
كتــــابة الســـيناريو للســـينما	دوايت ســــوين
الزمن وقياســـه	زافيلســكى ف ٠ س
أجهــزة تكييف الهـــواء	ابراهيم القرضــاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتـــر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهمـــوس
التجــربة اليــونانية	س ٠ م بـــورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د٠ عاصم محمــد رزق
العـــلم والطــلاب والمـدارس	رونالد د٠ سمبســون
الشارع المصرى والفــكر	د٠ أنور عبــد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمــان روســـتو
تبســـيط الكميـــاء	فــريد س هيس
العــادات والتقاليد المصرية	جــون بوركهــــارت
التــذوق الســينمائى	ألان كاســـبيار
التخطيط الســـياحى	ســامى عبــد المعطى
البـــذور الكونيــة	فــريد هـــويل
	شــاندرا ويكــراما ماسينج
دراما الشاشة (٢ جـ)	حسين حلمى المهندس
الهيــــروين والايدز	روى روبرتســـون
نجيب محفــوظ على الشــــاشة	هاشــم النحـــاس
صــــور افريقيـــة	دوركاس ماكلينتــوك

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية اسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر · بورر وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	أرنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د· صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م·هـ· كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د· السيد طه ابو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا · هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
الشاهنامة (٢ ج)	الفردوسى الطوسى
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبريلى
عن النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد ميرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د· فيليب عطية
السينما العربية	اعداد / مونى براخ وآخرون

دليـــل تنظيم المتـاحف	آدامز فيـليب
سـقوط المطر وقصص أخـرى	نادين جورديمـر وآخرون
جماليـــات فن الاخــراج	زيجمـونت هبنـر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ جـ)	ســتيفن أوزمنت
الحملة الصــليبية الأولى	جـوناثان ريـلى سـميث
التمثيـل للسـينما والتليفزيون	تـونى بـار
العثمــانيون فى اوربا	بـول كولنـــر
صــناع الخــلود	موريس بيــر برابر
الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ جـ)	الفــريد ج · بتـــلر
رحـــلات فارتيمـا	رودريجـــو فارتيمـا
انهم يصـــنعون البشر (٢ جـ)	فانس بكـارد
فى النقد السـينمائى الفرنسى	اختيار/ د· رفيق الصــبان
الســينما الخيــالية	بيتــر نيكوللز
الســلطة والفــرد	برتراند راصــل
الأزهــر فى ألف عـام	بينــارد دودج
رواد الفلســفة الحــديثة	ريتشــارد شـاخت
ســفر نامة	ناصر خسرو عـــلوى
مصر الرومانيــة	نفتــالى لـويس
كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر	جـاك كرابس جونيـــور
الاتصال والهيمنة الثقـــافية	هــربرت شــيلر
مختارات من الآداب الآســيوية	اختيار / صــبرى الفضــل
كتب غيرت الفكر الانسانى (٥ جـ)	أحمـد محمـد الشـنوانى
الشموس المتفجرة	اســحق عظيمــوف
مدخـل الى علم اللغـــة	لوريتـو تـود
حـديث النهـر	اعـداد/ سوريال عبـد الملك
من هم التتـــار	د· أبرار كريم الله
ماســــتريخت	اعداد/ جابر محمـد الجـزار
معـالم تاريخ الانسانية (٤ جـ)	هـ · ج · ولـــز
الحمـــلات الصـــليبية	ســتيفن رانســيمان
حضـارة الاسلام	جوســتاف جرونيبـاوم

رحلة بيرتون (٣ جـ)	ريتشارد ف · بيرتون
الحضارة الاسلامية	أدمز متز
الطفل (٢ جـ)	ارنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سوندارى
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج · برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج · كارفيل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف · م · بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارن
بين تولستوى ودستويفسكى (٢ جـ)	جورج ستايز
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ · ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى ب · ناش
انواع الفيلم الأميركى	ستالين جين سولومون
رحلة الأمير رودلف ٢ جـ	عبد الرحمن الشيخ
تاريخ العلم والحضارة فى الصين	جوزيف نيدهام
المراة الفرعونية	كريستيان دديروش
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٥٠٨/١٩٩٦

ISBN — 977 — 01 — 4913 — 6

عقب احتلال نابليون لأسبانيا ثارت مستعمراتها فى أمريكا الجنوبية التى طالما عانت من فساد الحكم وسوء الإدارة وكان على رأس هذه الثورة فتى أرستقراطى اجتذبته مبادئ الحرية التى أخذت تتأجج فى الفكر الأوربي آنذاك وكانت وقوداً للثورة وحرب الاستقلال الأمريكية فضحى بكل شئ من أجل عقيدته وأخذ يجوب منحدرات الانديز الوعرة وغاباتها الكثيفة علي رأس جيش من المتطوعين الذين آمنوا بقضية الاستقلال وكللت جهوده بالنجاح فتحررت المستعمرات لكن حلمه بتوحيدها فى دولة واحدة تقوض نتيجة الصراعات الداخلية وبعد أن انتخب رئيساً للجمهورية تنازل عن منصبه وحمل على مغادرة وطنه ولكنه توفى وهو فى الطريق إلي المنفى.

وكانت تلك اللحظة الدرامية مصدر الإلهام للكاتب الكولومبى جابرييل جارسيا ماركيز فى كتابة هذه الرواية الرائعة التي هي من آخر أعماله بعد حصوله على جائزة نوبل والتى نقدمها لأول مرة بالعربية.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب